



الكتـــــاب : داو

المـــؤلـــف :دعاء عبد الرحمن

تنسيـق داخلي : سمر محمد

الطبعة الأولى: ينـــاير 2019

رقـم الإيـداع : 2019/3017

978-977-6542-52-5 : I.S.B.N

المدير العام:محمد شوقي

مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس

00201150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار





دعاء عبد الرحمن



قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ

لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ

إِلَّا قَلِيلًا

إهداء

إلى كل من وجد جِدار روحي ينقض فأقامه دون أن يأخذ عليه أجرًا

أصدقاء وأُدباء وقُراء ومتابعين كِرام،

الذين لم يذروني أترك شغفي وأوراقي وأنصرف لممارسة اللاشيء!

وأخُص بالذِكر أ. محمد شوقي مدير نشر دار عصير الكتب،

للجهد الذي بذله على مدار أوقاته المهدورة ليضع القلم في يدي مُجددًا

خالص امتناني وتقديري للجميع.

دعاء عبدالرحمن

يترك الشيطان البداية للملائكة؛

بينما يسكن هو كل النهايات!

هدأ زئير العواصف، وبدأ وابل المطر الساقط منذ عامٍ في التراجع رويدًا رويدًا حتى توقف تمامًا، امتلأتِ البُحيرة التي جفَّت ويبست تُربتها عطشًا لسنواتٍ وسنواتٍ، انقشعت السُحب الركاميّة عن محاصيل جُرّفت، وأبنيةٍ تهدّمت، ومركب صغير متحطم، أمتعة وأوراق متناثرة هنا وهناك فوق سطح الماء الذي استقرَّت أمواجه أخيرًا، لتتهادى فوقه لافتة خشبيّة مسطّحة بين الحطام خُطَّ فوقها بطلاءٍ أحمر قانٍ:

«محظوظٌ هو مَن يخرج من بلدتنا حيًا أو على الأقل..

ليس بمجنونٍ!»

ظل الغراب

جمعهنّ العجوز حوله في دائرة مغلقة، بينما النار أمامه يعلو لهيبُها كلّما مدّ عصاه السّميكة بداخلها عابثًا بالحطب المشتعل، قلوبهنّ تخفق وجَلًا ورهبةً، وعيونهنّ متسعة انتظارًا لبقيّة الحكاية عن تلك البلاد البعيدة التي تحوي شاطئًا أسودَ نسبة إلى رماله السمراء.

كلّ مَن حولها من الفتيات تَغضَّنَت جباههن دهشة مختلطة بلمحةٍ من التقزز، بينما يسري الهمسُ بينهن كالفحيح مستترًا بطقطقة الحطب المحترق، أمَّا هي فقد أدركت بألفة خفية أن هناك شيئًا يُشبهها في بقعة ما على الأرض، شيئًا غريبًا مختلفًا لدرجة عجيبة، يثير المشاعر المتناقضة... ولونه أسمر!

حتى وإن كانتْ رمالًا بعيدة، تكتفي بزيارات متواترة من أمواجٍ تتلمسها بين فينة وأخرى؛ لتوقن بأنّها ليست وحيدة مثلها.

وبرغم عدم تفوّهها بكلمة إلا أنّ صاحب النار ترك ناره والحكاية، ثمّ التفت نحوها بنظرات غامضة غارقة في حَدقتيه الغائرتين، وهمسَ بلكنته الحادة الممتزجة مع كصيص اللهب:

- رملٌ أسمر يعلوه سماء زرقاء صافية بلون عينيكِ يا فتاة، فاحذري المختبئين خلف القلاع، واحذري الأسوار العالية.

كلّ ما جال بخاطرها وقتها أطفال يعبثون بقوالب الرمل الأسود على الشواطئ يبنون بها البيوت بأسوارها المرتفعة، فتأتي الأمواج لتهدمها من جديدٍ، لكنها لم تفهم مقصده، ولا نظنّها قد فهمت تحذيره أيضًا!

سكت هنيهة ثم نزع نَظرَاته عن وجهها انتزاعًا، وعاد بها إلى الفتيات من حوله يمررها بينهنّ وهو يستكمل حديثه عن الشواطئ السمراء التي ستذهب إليها إحداهنّ لو وقع عليها الاختيار، كلهنّ ناجيات إلا واحدة!

فالليلة هي ليلة البرْكة، طقوس سنوية تختص بها بلدتهم وحدها، كلّ عائلة لها فتاة قد أَتمّت التاسعة عشرة من عمرها في شهر الحصاد لا بد أن يذهب بها وليُّها عند منتصف الليلة الأخيرة منه إلى العجوز الذي يوقد النار؛ ليجمع الإناث حولها في الليلة نفسها من كلِّ عامٍ، ليُملي عليهنّ المصير المحتوم:

- مَن سيقع ظِلُّ الغراب فوق ظِلّها منكنّ فستنتقل فورًا إلى تلك الأرض البعيدة، ستعيش حياتها على الشاطئ الأسود، لن ترى عائلتها مجددًا، ولن تعود أبدًا إلى «داو»، لكنها ستجد طريقها، ربما تتزوج وتنجب فلا تخفَن هكذا، كلّ ما في الأمر أنها لا مكان لها هنا بيننا، هي شؤمٌ على بلدتنا فقط، أمّا عند الرمال السوداء فسينقطع الشؤم عنها، وتنعم «داو» بالراحة لعامٍ كاملٍ حتى موعد الحصاد المقبل.

يُغلقن أعينهنّ ويضممن أكفهن إلى صدورهنّ بتضرع، جميعهن يُردن النجاة ويشعرن بها قريبةً، بينما يعلو صدرها ويهبطُ وتزوغ نظراتها ودبيب الخطر يتسلّل إلى عقلها؛ ليخبرها بجنونٍ بأنها هي الهالكة بينهنّ، لا لشيء.. سوى لأنّها سَلام فقط.



ولمّا ارتفعت الشمس وتوسّطت كبد السماء بدأت الطقوس الحقيقية واختضّ قلب سلام هلعًا عندما دخل العجوز الغرفة التي وضعهنّ فيها عند الفجر وأغلق الباب منصرفًا ليَبِتْنَ ليلتهنّ هناك دون أن تَغمض عينٌ لإحداهنّ على الإطلاق!

أمرهنّ أن يتّبعن خطواته للخارج وساقهن خلفه كالعنزات اللاتي تعرف طريقها جيدًا للمذبح ولا تملك الفرار أو حتى الاعتراض!

جذب ذيل جلباب سلام الأحمر الطويل كلّ ما يستطيع من تراب وطينٍ لازب متشبثًا به مستنجدًا، كفرصةٍ أخيرة للنجاة.

ها قد عُدنَّ للبِركة مرة أخرى، ولكن هذه المرة في حشدٍ من الناس حولهن يشاهد، ولا يجرؤ أحد على التدخل، فقط يتخافتون عنهن، ماذا لو لم تجِف البحيرة التي تفصل بلدتهم عن بقية البلدان، ماذا لو استطاعوا عبور الصحراء من الجهة الأخرى دون مطاردة قُطّاع الطُرق، دون الموت فيها عطشًا، ماذا لو لم تنقطع الطاقة في بيوتهم تمامًا ويعودون إلى الشموع مجددًا، ماذا لو لم يحصد يوم الفتنة الكبرى أرواح شباب البلدة لتُبقي لهم العجائز؟! هل كان سيختلف مصيرهن كثيرًا، هل كُن ينعمن الآن بأحضان أمهاتهن؟

تهمس إحدى الأمهات باكية وهي تشير إلى ابنتها، لقد كانت تحب حياكة الملابس، لقد كانت بارعة، بينما الأخرى لا ينضب دمعها وهي تحكي عن فتاتها، لقد كانت جميلة، أوشكت على الزواج، والثالثة والرابعة تُناظران قطعة من قلبيهما بوداع، يتشاركن الأماني بأن المُختارة ستكون

سلام، سمراء البلدة الوحيدة صاحبة العيون الزرقاء، إنها فتاة شؤم على نفسها وعائلتها، لا بد وأن يختارها الغراب، وتعود بناتهن إليهن سالمات!

سار العجوز وهن يتّبعنه بخضوع حتى تحلقن حول مياه البِركة، فاشتممن رائحتها الراكدة العطنة مجددًا دون نفور هذه المرة، فلقد جلسن بجانبها ليلة كاملة، والاعتياد يمنع التمييز أحيانًا.

نبت على حوافها المنحدرة عشب أخضر متسلق، يحوي بداخله كل الحشرات الليلية المزعجة.

أشعة الشمس تضرب رؤوس الجميع، وتغشى أبصارهم، ويسيل العرق على الجباه، فترفع الفتيات أكفهن كما يفعل الجميع ويضعنها بشكلٍ مائل فوق أعينهن ليستطعنّ رؤية عائلاتِهنّ، بينما سلام تشرئب بكلّ جسدها لتستطيع النظر باحثة بين الحشد المجتمع حولهن في حلقة ضخمة متسعة ومتكدسة بالبشر باحثة عن أختها متسائلة بقلب وجلٍ: تُرى أين هي ليلى؟

- سلام ، سلام .

كانت ليلى تناديها، يكاد صوتها يضيع بين أصوات الأمهات اللاتي يصحن على بناتهن لينظرن نحوهن، وبرغم ذلك استطاعت سلام سماعها، وجرت بنظراتها سريعًا بين الوجوه المكفهرّة حتى عثُرت على اليدين اللتين تلوحان لها من بينهم:

- ليلى!

كانت تلوّح بيديها لتستطيع تمييزها من بين الناس، اختلطت مشاعرها فلم تعد تعرف هل تبكي أم تبتسم؟ كلاهما مختلطٌ على ملامحها، مفعمة بالأمل ويائسة حتى النخاع!

ليلى أختها الكبرى التي تحبها بكل تناقضاتها المُحيرة، هي مَن قامت على تربيتها بعد رحيل والديهما عندما أتمت سلام العاشرة من عمرها، تضربها حتى يتورم جسدها، وفي الوقت نفسه تجعل لها غرفة خاصة ببيت زوجها عقب زواجهما، سلطان صخر العاصي .. ساحر البلدة!

شهقات عالية مرتعبة شقَّت صدور الحشد، وخطوات خائفة إلى الخلف صدرت لا إراديًا من الحشد لحظة ظهور سلطان، يتقدم بهيبته المعهودة نحو الشجرة القديمة جافة الأوراق منذ زمنٍ بخطواته التي تشبه الزحف وكأنه لا يحرك قدميه من الأصل! بينما طَرف جلبابه الأسود الشاحب يتبعه مُصدرًا خلفه حفيفًا لا ينقطع! عيناه تجولان في الوجوه كالصقر بنظرات غائرة غامضة، مقطِّبًا جبينه، يربط عمامته السوداء بقوة تاركًا طرفها يتدلى خلف ظهره، يرتفع أنفه للأعلى بشموخ وتجبر، مرَّ بجوار عجوز البركة فأطرق الرجل خائفًا وهو يحني رأسه بتذلل قبل أن يتخطاه سلطان ويُومئ له برضا، فلقد أدى دوره كما يفعل كل عام بكل إخلاص وجدية، جمع الفتيات وقص حكاياته واحتجزهن للصباحً رهن إشارة منه، أما بقية شهور السنة فهو يسير صامتًا بين الناس في الأسواق صباحًا، مشعلًا النار بجوار البركة ليلًا وكأنه يحرسها، لا ولد له ولا عائلة ولا أحد يناديه إلا بعجوز البركة!

توقف سلطان بجوار الشجرة الضخمة مستندًا إلى أحد الجذوع الضخمة فبات ينافسها ضخامة وطولًا، فيهتز الجذع بترددٍ تحت وطأة ثقله متراجعًا للخلف، ومَن في البلدة كلها لا يهاب سلطان صخر العاصي، حتى حاكم البلدة الذي بلغ الخمسين من عمره يدعي بأنه يخشاه! وهو سعيد بذلك للغاية، لا ينغّص عليه سعادته سوى عائلة الراوي، وتحديدًا ابن عمومتهم الأصغر، جلال الدين شمس الراوي.

- الغراب ، الغراب، الغراب.

هتافات الحناجر وإشاراتهم إلى الأفق أجبرت «سلام» على ترك وجه أختها والالتفات سريعًا نحو الشجرة الكبيرة، لقد أتى!

أسود قاتم ذو عينين قاسيتين لا تختلفان كثيرًا عن نظرات سلطان، في تلك اللحظة ينعق في الأفق وهو يدور حول الجذع الأكبر المرتفع بلا توقف، وتدور معه الأعين والقلوب، يرتفع وينخفض بلا توقف سارقًا أنفاس الجميع معه، لم تشعر سلام بقدميها، فسقطت على ركبتيها في اللحظة نفسها التي رفع فيها سلطان يده للأعلى باسطًا كفه بتصلب يحاول السيطرة عليها، لكنها تهتز بقوة دون أن تهبط وكأن أحدًا ما يحركها رغمًا عنه، يزداد نعيق الغراب ويزداد معه اهتزاز كف سلطان بينما سلام تموت بين ثانية وأخرى، والدموع تنهمر كالشلالات من أعين بقية الفتيات حولها مرتجفات خوفًا، ينظرّن نحوها وقد أصبحت كالحلس البالي يعلوها الغبار، شاخصة البصر نحو ذاك الأسود، الذي تخلى عن دورانه وحط بكل ثقله على حافة الجذع، فاهتز لعدة مرات قبل أن يفارقه مجددًا وكأنه يصفعه، وبدأ يقترب منهن ويحلق فوق رؤوسهن، وفجأة شعرت سلام بثقلٍ له أنياب يحط على كتفيها ويسقط ظله فوق ظلها ليتمازجا معًا، فصرخت وصرخت وظلّت تصرخ حتى اختفى كل شيء.

❋ ❋ ❋

كانت أمها مُحقة، كان يجب أن تستمع إليها منذ تسع سنوات، عندما نهرتها ومنعتها غاضبة من الذهاب نحو الغابة وقتها فكرت في ذلك أمامها ونطق لسانها بفضول الطفلة، منذ أن وَعت للكلمات وهي تسمعهم يقصون القصص حول الفتنة التي أكلت الأخضر واليابس وأخذت معها خيرة شبابهم وأشعلت النار اشتعالاً في الحديقة الغناء ولم تتركها سوى غابة مهجورة تعج بالأشباح!

يُطلقون عليها كلمة غابة ويحذرون من الاقتراب منها، كل حكايات عجوز النار بالقرب من البركة تدور حول الحديقة التي كانت بهجة للناظرين في يوم من الأيام ثم احترقت واحترق معها كل أصحابها فباتت مهجورة لا يحُدّها سوى أسوار الخوف منها فقط .

ولقد كانوا صغارًا في العاشرة، يستمعون إلى الحكايات القديمة بوجل ويلمزون «سلام» بكلمات تُبكيها وهم ينعتونها بالشؤم لامتزاج سمار بشرتها بلون عينيها الغريب! لا تعرف من اخترع تلك الكذبة وروجها بينهم حتى صارت حقيقة راسخة.

وبينما قلوبهم الصغيرة كانت ترتجف خوفًا وفضولًا، باحثين عن تلك الأشباح الذين يلوك الجميع سيرتهم في الساحة الكبيرة يوم الجمعة، تلك الساحة الخلفية من قصر الحاكم التي يتوجه إليها أهل البلدة قبيل الغروب بأمره منذ أن ألغى الصلاة في المساجد وأصبحت كالقبور، حفاظًا على البلدة من اشتعال فتنة جديدة بين أهلها كما حدث سابقًا!

ما زالتْ تذكر ذلك اليوم عندما تسللت إلى هناك مع قريناتها في غفلةٍ من الجميع عابرات أسوار الخوف! لم يجدنَ في البداية شيئًا مخيفًا

هناك، مجرد أشجار محترقة يابسة ملتفة جذوعها حول بعضها البعض، مما شجعهنّ على المسير والغوص بداخلها أكثر، سحبتهنّ لها ففقدنَ الطريق ولم يستطعن العودة، وعندما حل الظلام أضاعتهن خطواتهن من بعضهن البعض، وبدأن في البكاء ذُعرًا حين بكت أول طفلة منهن، خوفًا من الليل القادم بحلته السوداء نحو أفكارهن الأشد سوادًا منه، وفجأة فقدت «سلام» الشعور بقدميها وسقطت مكانها، ظلت تصرخ منادية عليهن ولم يكن يُجيبها سوى نهنهات تبتعد عنها إلى الأرجاء الواسعة، حاولت قرص ساقها لتستجيب ولكنهما كانتا كالميتة بلا حراك، زحفت وزحفت وقد غشيت الدموع عينيها وباتت تحرقها بشدة حتّى خرجت خارج حدود الشجر الكثيف، ووجدت نفسها في مواجهة القصر، قصر عائلة صقر القاسم أصحاب الحديقة الذي بدأ الحريق الكبير من عنده، واشتعلت بعده الأشجار، تصلبت يداها اللتان كانتا تستخدمهما في تحريك جسدها الصغير، وتجمدت عيناها على ذلك السور الضخم المتهدم جزء منه، وكان آخر ما رأته في تلك اللحظة عينين ظهرتا فجأة في هذا الفراغ من السور، تبرقان وتنظران لها بحدة فسقط رأسها فاقدة للوعي، ولم تُفق إلا وهي في حجر أمها متكوّمة فوقه كالسلحفاة المختبئة داخل بيتها.

علمت بعد ذلك أن صديقاتها وجدنَ طريقة للخروج دونها، فلم تجد أمها سبيلًا بعد أن فقدتها سوى أن تهرع وأختها ليلى إلى «سلطان» ساحر البلدة ليخرجها من هناك.. وقد فعل!

«سلام، هل أنتِ مجنونة، حمقاء إلى تلك الدرجة، كم مرة حذرتك من الذهاب إلى هناك!»

«كل صديقاتي ذهبن إلى هناك يا أمي!»

«كم مرة أحتاج لأذكّرك بحديث عجوز البركة عنكِ»

«أرجوكِ يا أمي لا تكرريها، أنا لستُ شؤمًا يا أمي، أنا لستُ شؤمًا.»

«إن كان هذا سيَردعك فسأكررها كلّ يوم، أنتِ شؤمٌ يا سلام، أنتِ شؤم، وإذا ذهبتِ إلى هناك فلن تعودي مجددًا.»

وقتَها كرهتْ سلام نفسها وأمها والعجوز اللعين وصديقاتها حتى القطة المسكينة الرمادية التي مرت بجوارها في تلك اللحظة!

عدة أيام مرت حتى بدأت قدماها تتحركان وتعودان للحياة والحركة من جديد، ورغم ذلك لم تحاول حتى الخروج من بيتها، وزهدت في اللعب، إلى أن لحقت أمها بأبيها وواراها التراب بجانبه، أبيها الذي سقط على رأسه فوق أحد صخور جبل داو ومات في الحال، فحزنت أمها ومرضت حتى ماتت بعده بأيام، لم تنسَ أبدًا نظرات أمها في أيامها الأخيرة، نظرات متهمة، نظرات كارهة، لم تُدرك ماذا فعلت ولماذا تحملها المسؤولية عن موت والدها، وانتقلت النظرات نفسها إلى عيني ليلى التي باتت هي كل عائلتها منذ ذلك الحين.

لن تنسى ذاك اليوم الذي انتقلت فيه ليلى إلى بيت «سلطان» بعد زواجها منه، بيت موحش، يبعد عن كلّ بيوتات البلدة، مساحته كبيرة، له قبة سميكة مرتفعة، وله حرارة خاصة ورائحة تشبه خشب الصندل، وتلك الغرفة التي كان ممنوعًا على الجميع الاقتراب منها، حجرة مُلحقة بالبيت، لها نافذة خاصة تطل مباشرةً على الغابة الملعونة، يدخل إليها سلطان ويمكث أيامًا لا يخرج منها، فقط تذهب إليه ليلى بالطعام، تضعه على الباب وتنصرف، كانت تعرف التعليمات جيدًا، تحفظها منذ أن أعلمها إياها وهي كانت مطيعة راهبة في محرابه، ثم يخرج منها وحده، نتن الرائحة، مكفهر الوجه، ملامحه يعلوها غمامة سوداء مُطأطئ الرأس، ولكن.. أكثر قوة وبأسًا!

الجميع يخافه بينما ليلى تخدمه كما لو أنّ حياتها تتوقف عند رضاه، لم تفهمها سلام يومًا، كذلك لم تفهمه، إنه مخيف وبرغم ذلك يجالسها ضاحكا كما لو كانت طفلته ويأتي إليها بالحلوى، دائمًا ما تشعر بأن هناك شخصًا آخر بداخله، شخص يتمنى لو خلع عنه عباءته السوداء تلك، لم تشق ثغرها يوما ابتسامةٌ متبادلة معه وبرغم ذلك لم تكن تكرهه تمامًا، وكذلك لم تحبه، كانت منزوية منطوية على نفسها حتى فتح مصنع الأطفال بابَه، غيرت الأطفال حياتهم جميعًا، أمّا سلام فقد شعرت بأنها قد وُلدت معهما مجددًا إلى تلك الحياة، طفلين.. وهي وليلى.. ثم يأتي العالم بعد ذلك.

كانت تقتل فضولها دومًا حتى لا يأخذها إلى تلك الحجرة المُقفلة، أما الآن وبعد أن أتمت التاسعة عشرة أصبحت ملقاة بها وحدها، كورقة في مهب الريح مع سرير صغير متهالك من الخشب الأحمر، يكشف لها عن شراشفه الصفراء المتدلية حوله والمتناثر فوقها بقع دماء قديمة!

لا شيء غير ذلك سوى وعاء عميق معدنيّ أسفل نافذة خشبية صغيرة لا تسمح حتى بمرور أشعة الشمس، لولا تلك الشموع الصغيرة المتناثرة في أرجاء الغرفة لما رأت حتى أصابعها.

وما كانت إلا التفاتة حتى سقطت نظراتها المذعورة فوق تلك الطلاسم المنقوشة على الجدار عن يمينها، والأوراق الممزقة والمبعثرة أسفله، أوراق مميزة تعرفت ذاكرتها عليها سريعًا، فقد كانَ لدى والدها نسخة منها في غرفته الخاصة ببيتهم القديم، تستمع يوميًا إليه وهو يتلو بالكلمات المنمقة ويصلي في غرفته، لم تكن تفقه كثيرًا من معانيها وعندما سألته أجابها بأنه القرآن، ولكنه لم يمنحها من وقته ليُعلمها شيئًا منه! فقط اقتطع وُريقة منه وقام بطيها جيدًا عدة مرات وثبتها داخل سلسالٍ مُعلقٍ بجيدها وأمرها ألّا تخلعه؛ لأنه سيحميها ولكن لم يحدث شيءٌ،

ظل الشؤم يطاردها في كل تحركاتها حتى وفاته، بل أصبحت متهمة بلا اتهام، في جريمة لم ترتكبها!

وبعد أن ضاعت في الغابة المحترقة تيقنت أمُّها أيضًا أن لا شيء بقادر على رفع الشؤم عنها ولا حتى هذه القصاصة التي تحوي آية الكرسي حول عنقها!

رمشت بسرعة كبيرة تُلقي بدمعات تعلقت بين أطراف جفونها عائدة من بين أطلال ذكرياتها الأليمة متسائلة تهمس لنفسها:

- تُرى كم ساعة قضيتُها هنا؟ ولماذا لستُ في الأرض البعيدة ذات الشاطئ الأسود؟!

قدماها كالصخرتين، وقلبها يوشك أن ينفجر، الهواء يدخل إلى رئتيها بصعوبة، كلما مرّ الوقت يزداد الدوار برأسها وتختنق بشكل مؤلم، في حاجة مُلحة للمزيد من الهواء النقي.

ارتفعت كفها نحو السلسلة المعلقة حول عنقها ربما تستمد منها بعض الأمان، ولكن لا شيء مجددًا. عادت تهمس لنفسها مجددًا تحثها على النجاة:

- تحركي يا سلام، تحركي أرجوكِ، لن تموتي هكذا كالفأرة بهذا الجُحر العفِن.

دفعت ثِقل جسدها بوهن شديد، لا يوجد ما يَصلح للتشبث هنا! زحفت وزحفت والأرض تأبى أن تمررها من فوقها كأنّها تتعلق بثوبها من كل اتجاه.

قشعريرة باردة بدأت تُحرك مشاعر الخوف بداخلها تنتاب سطح جلدها فانكمشت بينما يُخيلُ لعينيها ظلال غريبة تمر على الحائط

المواجه لها مرورًا سريعًا فيدفعها بذعرٍ أكبر لتكرارالمحاولة مدفوعة بغريزة البقاء.

حتى وصلت أخيرًا إلى الباب الخشبي المصقول بالعاج المزركش برسومات غريبة غير واضحة لعقرب وثعابين وحشرات زاحفة أخرى تجهل هويتها، حشرتْ أنفها الطويل أسفل الباب وجعلت تَستنشق دفعات الهواء التي تمر من أسفله، تسحبها سحبًا وأزيز صدرها ينبئها بأن تتروّى وتُهدّئ من روعها، باللّه كيف كان «سلطان» يدخل هنا لأيام بإرادته؟! كيف كان يتنفس؟! ماذا كان يفعل هنا بين أربعة جدران حمراء وسرير شراشفه تغطيها بقع الدم؟!

تسللت إلى مسامعها صوت خربشات بعيدة، شحذت لها كل حواسها بانتباه حتى تبينت مصدرها، إنها النافذة، النقر يتوالى شيئًا فشيئًا حتى تحوَّل إلى رجيفٍ قويٍّ، هل يحاول أحدهم فتح النافذة من الخارج؟!

النافذة تتهاوى وهي متكومة أسفل الباب شاخصة في انتظار القادم، بدأ الهواء يشق الغرفة كزائرٍ غريبٍ مصاحبٍ لظل ضوء مشتعل راميًا بأطرافه على الجدار المقابلٍ، ضربةٍ أخيرة قويةٍ أطاحت بلوح خشبي كان يسد النافذة من الداخل عرِضيًا ليظهر من خلفه وجه ليلى كفارس من العصور الوسطى تحمل بلطة على كتفيها وأنفاسها تنهت من فرط المجهود، بشرتها البيضاء كأمها متلونة باحمرار الانفعال، وعيناها المكحلتان على الدوام متسعتان تصميمًا ممتزجًا بالتوتر والقلق، تلف حول شعرها المسترسل الأسود وشاح أحمر يغطي كامل جبهتها وتشير إليها بهمس يشبه الحسيس:

- تحركي يا سلام، سريعًا.

❋ ❋ ❋

حواسه مرافقة لذاك الصهيل، لا يجد نفسه إلا هنا، ساحة ترويض الخيول، هوايته التي لا يجيد سواها بعد عمله بالمدرسة، يقذف قميصه خلف ظهره ومعه كل شيء جاد، ثم يعقد أكمامَه حول خصرِه، قبل أن يقفز عابرًا السياج، وبين القوائم الخشبية العريضة.. يختفي الكون!

ولا يبقى سوى تلك العنيدة التي ترفض الخضوع! فتجبره على امتطائها عنوة، تذهب كل رغبة ولا يبقى سوى شغف خضوعها المرتقب وهي تحاول دفعه من فوق ظهرها، بينما الهواء يضرب جذعه العاري فيشعر بنشوة التحرر، هنا فقط هو خارج حدود السيطرة، كالخيول البرية تمامًا، ولا يعيده إلى الأرض سوى تلك الشهقات المنبهرة البعيدة للصِبية الذين يأتون للمشاهدة، فتزداد حماسته للسيطرة على تلك البرِية عصبية المزاج، ينسى خدوش اللجام التي خطت معالمها براحة يديه وذراعيه وهو يدور معها في حركات دائرية قبل أن تصهل بقوة وترفع قوائمها الأمامية للأعلى مرة بعد مرة تريد التخلص منه، إنها اللحظة التي يعشقها، المقاومة مرحلة رائعة يأتي من بعدها ما هو أروع ... الرضوخ!

لا بد وأن ينتصر المُعلم الذي يخالف عادات البلدة في كل شيء حتى في ملابسه، سيقانهم الطويلة تتحرك معه بتناغم دون وعي منهم وهم متعلقون لساعة كاملة خلف القوائم في انتظار استسلام هذه الأنثى المهتاجة بلون البن المطحون، صاحبة الجلد الناعم للغاية، والأذنان الطويلتان المنتصبتان دليلًا على عنفوانها وقوتها، عيناها الواسعتان بشراسة وخداها الأسيلان قليلَا اللحم، إنها عربية أصيلة، تذكره بتلك البعيدة القريبة، التي تسكن أقصى البلدة، ابنة عمه .. وحلاله المُحرمة عليه !

- انزل يا ولد، انزل.

نداءات متوعدة من امرأة تقترب بخطوات تميل إلى الهرولة تكاد تتعثر في جلبابها الأحمر من شدة اندفاعها، فاضطر إلى إنهاء النزال على عجل من أمره، وفي اللحظة المناسبة قفز عائدًا للأرض تاركًا صهوة فرسه على وعد باللقاء مجددًا، يعلم أن تلك القفزة ستكلفه الكثير فيما بعد، فهي ستظن أنها انتصرت وفي المرة القادمة ستكون أشد شراسة وعنادًا، ولكن لا بأس، الصبي المُعرض للضرب المبرح أهم بكثير.

تخطى الصبي السياج للداخل هربًا نحوه من أمه الغاضبة قبل أن تصل إليه بينما المرأة تستند إلى الأعمدة وهي تنهت بقوة وتتوعده بنظرات قاتلة صارخة في ولدها:

- عمار، تعالَ إلى هنا حالاً.

تناول كفه بينما هو يستغيث به وهمس له مُطمئنًا:

- لا تخف.

سار به نحوها بهدوء يناقض تشبث قدمي عمار بالأرض رفضًا للانصياع لها حتى توقفا بمواجهتها تمامًا والقوائم الخشبية تفصل بينهما:

- لا داعي لكل هذه الجلبة، عمار ورفقته جاءوا اليوم بناء على طلب مني.

رفعت المرأة سبابتها نحوه منفعلة متسعة العينين بشراسة هاتفةً:

- اسمع يا جلال الدين، لقد حذرناك كثيرًا من قبل، أنا وغيري من عائلات هؤلاء الصِبية، ابتعد عن أبنائنا، لا نريدك أن تعلمهم شيئًا، لا التاريخ ولا الترَويض ولا أي شيء من تُرهاتك تلك، أنت تُفسد علينا الأولاد كما سبق وأفسد علينا والدك معيشتنا.

اعتاد أن يبتلع تلك الكلمات ومثيلاتها بصبر وتروٍّ، فأدار وجهه للخلف ملقيًا نظرة على ذلك الخائف هناك، يعذر خوفها على ولدها كما يفعل البَقِيَّة من أهل البلدة، يكرهون أن يتأثر به أولادهم وينمو بداخلهم ما نمى بداخله ونشأ عليه، إنهم يخافون، والخوف لا يجدي معه الخُطب الرنانة!

- لا تخف يا عمار، اذهب الآن مع والدتك حتى تُرضيها

بمجرد أن تحرك الصبي من خلف ظهره طالته يدها فانقضت عليه تجذبه وتعنفه بشدة أقرب إلى القسوة وتسحبه خلفها كالماعز التي تربيها في حظيرة بيتهم هاتفة بنبرة أكلها الخوف ولاكَ حروفها:

- لن أسمح لك بالخروج وحيدًا بعد الآن، هل تريد أن يغضب سلطان العاصي عليك ويسخطك قردًا!

- لن يحتاج سلطان إلى هذا فالصبي كالقرد بالفعل!

كانت هذه كلمات العم عابد، استدار نحوه مبتسمًا للدعابة التي ألقاها للتو، إنه هكذا دائمًا يُواجه كل صِدام بسخرية لطيفة ويُحيلها إلى موقف طريف، ربما هذا ما فطن إليه بعد خمسة عقود قضاها في الحياة كاملة لا ينقصها سوى هذا العام الذي يحث به الخطى نحو الستين بثبات، تأمل جلال الدين خطوط الشيب الذي يزحف بمهارة فوق فَوْدَيه فتظهر الشعرات الرمادية من أسفل عمامته البيضاء المثبتة بعناية هناك يتدلى طرفها الطويل الذي يلفه حول عنقه، قبل أن تتلاشى ابتسامته الساخرة ويستعيد جديته.

- هل تعلم أنك الشاب الوحيد في هذه البلدة يا عم عابد؟

قالها له يلاطفه كالمعتاد، فالجميع يعلم أن البلدة لم يتبقَّ بها سوى العجائز والنساء والأطفال، بعد الفتنة التي أخذت شبابها وذهبت بلا

عودة، ولم تترك سوى قِلة باتوا الآن بين الثلاثين والأربعين من عمرهم بعد عشر سنوات من وقوعها، فتقبلها عابد ضاحكًا لتطبِق أهدابُه المنتفخة أبوابَها كلما ضحك هكذا بأريحية.

راقب جلال الدين ضحكته التي تربى عليها وهو يشعر بالنشوة التي تأتي محملة بالذكريات، أبوه شمس الرواي وبيت أعمامه وقبيلته التي هجروها وجاءوا هنا كالأغراب، لا لم يهجروها، بل أُخرجوا منها رغمًا عنهم.

- إنه موعد صلاة العصر يا جلال الدين، هيا بنا.

يعلم بأنه يلحظ شروده فيجاهد ليخرجه منه بشتى الطرق، فلتذهب الذكريات إلى ركنها المخصص الآن فلقد حان موعد الشعائر.

تبع خطوات عابد البطيئة، قدمُه الكبيرة تدهس الحصى، وبعضُ أجزاءٍ دفنها الترابُ والسنون من هواتفَ كانت محمولة في يوم من الأيام ولم يعدُ لها قيمة الآن، تتناثر من حوله أطباق استقبال قمرية يستخدمنها النساء كمعدات طبخ بداخل الأفران الطينية، وقد انعزلوا عن العالم!

ليس بحاجة إلى عصاة ليتوكأ عليها كعادة أهل سكان البلدة من الشيوخ، أحيانًا كثيرة يشعرُ بأنه يصغره سنًّا ويضاهيه طولًا، دائمًا ما تبهره حماسته، جلبابه الرمادي القصير ومن أسفله سروال باللون نفسه لا يظهر منه سوى جزء يسير بعض الشيء، يلف خصره بحزام من الجلد السميك الأسود يتدلى منه جرابٌ ظاهر للعيان لخنجر ذهبي قديم حاد، يسمع همهماته التي يحفظها عن ظهر قلب، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

ما زال يُلزمه بها منذ كان في العشرين من عمره، كان يضع الحصى أمامه يوميًّا بعد صلاة العصر في باحة المسجد الكبير الفارغ من المصلين

ويُجلسه أمامه متربعًا، لم ينس جلال الدين أبدًا التصميم المفعم بالطمأنينة في نظراته وهو يشد على يديه بينما يبادله النظر والحصى بينهما:

- ردد خلفي هذا الذِكر مئة مرة يا جلال الدين، أمامك مئة حصاة، سنُبعد واحدة بعد كل مرة نقولها حتى لا تختلط الأعداد في أذهاننا وننسى، ستفعل هذا صباحًا ومساء لتكون حرزًا لك من شياطين صخر العاصي وابنه.

ومنذ ذلك الحين وجلال الدين لا يتركها أبدًا صباحًا ومساءً، بتركيز وفِهم وحضور قلب، وفي الليل يجلسان سويًا ليقرأ عليه سورة البقرة كاملة التي يحفظها عن ظهر قلب كـ اسمه تمامًا، ثم يخلد إلى فراشه وهو لا يخشى كل شياطين الأرض وليس شياطين صخر وابنه سلطان فقط!

- مولانااا ، يا أستااااذ!

لم يكن في حاجة لا للتوقف ولا الالتفات لذلك الذي قد أهلك حنجرته نداء، فقط اكتفى بأن أبطأ خطواته قليلًا، للمرة ربما المئة أو أكثر، يأتي الرجل خلف زوجته أم عمار ليعتذر، ليس في حاجة إلى أن يعرف ماذا فَعَلت، فالتكرار يولد العادة، وهو قد اعتاد على الأسف.

لحق به في خطوات واسعة، همه بين عينيه وفقره مخيط بحواف ثيابه الحمراء أيضًا كما ألزم الحاكم أهل البلدة، ، الجميع يرتدي الأحمر بأمر منه!

سرق الخوف أنفاسه فخرج ما تبقى منها لاهثًا:

- مولانا، أرجوك لا تغضب من أم عمار، إنها بلهاء، سأرسل ولدي لك كما تريد، فقط أرجوك سامحنا ولا تُنزل علينا عقابك!

خُيل إلى جلال الدين بأنه سمع ضحكات عم عابد الخافتة وهو يحث السير ليجعله يسرع خلفه عاقدًا كفيه خلف ظهره كعادته للمشي، فاضطر الرجل للهرولة من خلفهما وهو يكرر كلماته برجاء أكبر، السلامة تقتضي أن يترك الخوف يلوكه ويهضمه، والرحمة تأمره بأن يطمئنه، والحقيقة تُجبر لسانه أن يقول ما سبق أن قاله كثيرًا من قبل: بأنه مجرد رجل وليس له كرامات كما يعتقدون ومن ثَم لا يملك غضبًا يسلطه عليهم ليخافونه بتلك الطريقة!

وقبل أن ينهي صراعه وجد العم «عابد» يتوقف فجأةً ويستدير بكليته نحو الرجل المسكين واضعًا كفه بقوة فوق كتفه ومسلطًا نظرات لا يعلم جلال الدين من أين يأتي بها قائلًا بصوت عميق:

- اسمع يا أبا عمار، ولدك من الصِبية المقربين من مولانا وهذا هو الشيء الوحيد الذي يجعله يصبر على زوجتك وما تفعله، فلا تختبروا حبه له وصبره أكثر من هذا!

كاد الرجل يركع فقد انحنى ظهره فجأة تحت وطأة التهديد المُبَطَّن وهو ينظر نحو جلال الدين باستغاثة ولكن العم العابد لم يمنحه الوقت الكافي، والتفت تجاه جلال الدين بنفس النظرة الغاضبة وهو يشير بعينيه نحو المسجد قائلًا بلهجة يفهمها جيدًا:

- لنلحق بالشعائر يا مولانا.

سار جلال الدين بمحاذاته يعاني ذات التوتر والصراع الذي لا يفارقه بعد كل لقاء بالعامة من الناس حتى دخلا المسجد وضمتهما جدرانُه فأقاما الصلاة وحدهما كالمعتاد ثم شرعا في تنظيف أرضيته العارية من التراب وزواياه التي تسكنها الوحدة كما يفعلا يوميًا، ثم أشعلا البَخور برائحة المسك، تلك الرائحة التي تسكن عقله وتأخذه معها في رحلة شبيهة مع خيوط دخانه إلى أيام كان يتزاحم فيها مع الغلمان

ليلحقوا بالصف الأول يوم الجمعة، وأسفل المنبر تنساب آيات وأحاديث إلى قلوبهم بينما فتية قبيلته تتهامس أن لا يجوز التحدث بعد صعود الخطيب المنبر، فيلكزهم عمه نصر الراوي بيده وهو ينظر لهم بتحذير أن يصمتوا ويستمعوا للخطبة!

- لا تسمح للذكريات أن تسلب منك عتادك لمواجهة الواقع يا جلال الدين، نحن لا نملك رفاهية الوقت.

- ولا أي رفاهية غيره يا عم عابد، هل يصدق الناس في البلاد البعيدة أننا هنا في داو قد عدنا إلى إضاءة بيوتنا بالمشاعل اليدوية والشموع؟!

ابتسامة مُتجاوبة طافت بين حنايا الزمن على وجهه ثم اختفت سريعًا كسرعة ظهورها بينما يُشير إليّه ليجلسا في صدر المسجد ساخرًا:

- لو كانت أقمارهم الصناعية ما تزال تعمل .. فنعم!

ثم استطرد وهو يتربع على الأرض بأريحية مستندًا إلى أحد الأعمدة من خلفه:

- ولا تنس أن داو أفضل حالًا من غيرها، فنحن ما يزال لدينا آبار نستخدمها لزراعة قوت يومنا، أما هم فلا نعلم كيف يطعمون بطونهم!

- أصبحت تتحدث مثل الحاكم، هل تفكر في الترشح لحُكم البلدة مثلًا؟!

رفع حاجبيه ضاحكًا بوقار بينما يضغط عمامته على رأسه ليثبتها وهو يقول:

- ألم نقل منذ قليل إننا لم نعد نملك تلك الرفاهيات!

❋ ❋ ❋

سيد الخوف هو، يملك ولا يحكم، لقنها إياه أبوه كل ليلة: تعلَّم درسك من الثعبان، لا غضاضة من الزحف أحيانًا بينما يخشاك أصحاب الأقدام، ولكن كن متأكدًا من أن النتيجة ستُحسم بلدغة مفاجأة.

والذي يملك عندما يُخطئ ليس أمامه سوى إرخاء قبضته قليلًا لتتوازن الأمور، وبرغم تمرسه وخبراته إلا أنه أخطأ ومنح ثقته لمخلوقات ليس لها عهد، فجاءت أول ضربة لم يحسب لها حساب في سلام الصغيرة، لقد اختاروها بعد أن منحوه الميثاق باختيار غيرها، ثم هربوا وهو يسمع ضحكاتهم في نعيق الغراب.

ارتبكت أوراقه أمام دموع أختها وأم أولاده، وهي ترجوه أن يسمح لها بإنقاذ أختها، فهي تعلم الحقيقة الكاملة، وتُدرك ما لم يُدركه شيوخ البلدة، ليس هناك شاطئ أسود ولا حياة أخرى في بلاد بعيدة، من سيختارها الغراب ستقدم قربانًا للشياطين في الغرفة المغلقة وبعد ثلاث ليالٍ يفتح الغرفة ليأخذ جسدها منزوع الروح والدماء إلى الغابة حيث مثواها تحت ترابها، هكذا هي أحكامهم ليبقوا تحت سيطرته.

لا يدري من يتحكم بمَن، ولا من يُسخِّرُ من، يفكرُ أحيانًا بأنهم هم من يقومون بتسخيره ولكن هذا لا يَردعه ما دامت هناك مزايا أخرى، ما دام هو السلطان الحقيقي لهذه الأرض التي يحيون فوقها، لا خيار أمامه.

اليوم هو يوم الحصاد، اليوم الرسمي للقائه بالحاكم في قصره الضخم، ترك ليلى تفعل ما ترجته أن يوافق عليه، وذهب لموعده المرتقب، وطئ بوابة القصر الفولاذية بذقن مرتفعة ونظرات ملتهبة نحو الحُراس الذين لم يكونوا في حاجة إلى إرعابهم فهم يخشونه من تلقاء أنفسهم

دون أن يُحرك أُصبعًا، أطرقوا مذعنين أمامه وهم ينحنون بتبجيل، مصطحبين إياه للداخل، وكأنه عَالم آخر غير الذي بالخارج، حدائق ذات بهجة يتوسطها بئر عميقة للسُقيا، حافته تتسع لتسمح بالجلوس والاستمتاع بالنظر، أحجار ملونة على الجانبين تحدد الممر الذي يسير فيه كِبار الزوار نحو البوابة الجرانيتية الداخلية للقصر والذي يسبقها ثلاث درجات يبدأ الرخام من عندها ويمتد زاحفًا نحو البهو الشاسع بالداخل، قصرٌ مُشيّد منذ عشرين عامًا، لم يسكنه سوى الحاكم وأسرته، قبل أن يعم الفقر وتجف المياه.

وكالمعتاد خرج الحاكم لاستقبال سلطان بتَرحاب شديد واحترام، ودوي صوته مرتفعًا فاتحًا ذراعيه عن آخرهما:

- سلطان صخر العاصي، أهلا بك يا سيدنا.

كم يُحب نبرته الممطوطة هذه وهو يناطحه القوة ويخشاه في الوقت ذاته، تقدم سلطان باتجاهه يطرق الأرض بخطوات ثقيلة مقصودة على الأرض الرخامية اللامعة قائلًا بتملق ليس في حاجة إليه:

- مرحبًا بك يا سيدَ داو، بل يا عظيمَ داو إذا أردنا الحقيقة.

يضحك الحاكم مقهقهًا فاتحًا فمه الكبير، جامعًا طرفي عباءته البيضاء الناصعة المزركشة بالخيوط الذهبية البراقة، فعباءة الحاكم لا بد أن تختلف عن أثواب عامة الناس في اللون والتصميم والزركشة، هكذا هو قانون داو الخاص بطبيعة الملابس، العامة يرتدون العباءات الحمراء الباهتة ولا يضعون العمامة، أما ساحر البلدة فله اللون الأسود والعمامة كذلك، لا يجب أن يكون هناك ناصعٌ سوى الحاكم فقط بملابسه وعمامته المخيطة من خيوط الذهب والفضة، استطاع أن يميز نفسه في كل شيء، إلا أنه اشترك مع الناس رغمًا عنه في المصير، مياه الآبار والإضاءة بالشموع حتى وإن اختلف حجمها .. تظل إضاءة شاحبة!

- هل رضي الأسياد بحصاد هذا العام؟

قالها الحاكم بلؤم وبعض التشفي المبطن ولكن سلطان اكتفى بأن أطرق قليلًا برأسه لثانية قبل يرفع عينيه فقط بتلك الطريقة التي يفعلها حينما يريد بث الخوف في من يقف بمواجهته، مما جعل الحاكم يتنحنح متابعًا بتردد قد يصل إلى اللعثمة:

- سمعتُ بأنهم اختاروا أخت زوجتك الصغرى ولكنني لم أصدق حتى اللحظة.

لاحت ابتسامة جانبية صغيرة على ثغر سلطان عندما لاحظ ارتباك الحاكم وهو يقول بوقار:

- الأسياد هي من تختار يا عظيم داو، ليس لنا من الأمر شيء.

ارتفع فجأة صرير البوابة الخاصة بباحة القصر الخلفية مما جعل الحاكم يتنفس براحة وقد أنقذه حضور العامة في اللحظة المناسبة، التجمع الكبير الذي يحدث نهار كل جمعة بشكل متكرر وقد وافقت هذه الجمعة يوم الحصاد.

أشار الحاكم بكفه لسلطان ليسير بجواره بداخل بهو القصر ليستطيعا المرور إلى الباب الخلفي الذي يتصدر الساحة مكان تجمع سُكان داو، الباب الخلفي مختلف تمامًا عن ذاك الذي دلف منه للتو، أعمدة أسمنتية عريضة يتوسطها بوابة حديدية ثقيلة تُصدر صريرًا مرتفعًا كلما تحركت والأرض من أسفلها يكسوها البلاط الصخري وينتهي عند الدرجة الخامسة التي تفصل باب القصر الخلفي عن الساحة الكبيرة العارية تمامًا عن أي كساء، فقط رمال وشجيرات عالية تغطي مساحة الأسوار الداخلية بالكامل فتعزل من بالداخل عمن خارجه.

الناس يسمعون فقط عمَّا هو خلف الباب الرئيسي للقصر بحدائقه وآباره ولكنهم لا يصدقون، ما يصدقونه هو ما تراه أعينهم كل جمعة في الساحة من رمال وطاولات منخفضة موزعة في الساحة بشكل عشوائي تعلوها اللحوم المشوية بمختلف الأنواع، إنهم يصدقون بطونهم أكثر!

أشار الحاكم بكلتا يديه ليتخذ الجميع أماكنهم حول الطاولات بينما يقف هو بجوار ساحره، وعن يمينهم وشمالهم أربعة جنود مُدججون بالسيوف والرماح، فقد نفذت الذخائر ولم يعد للبنادق والمسدسات قيمة تُذكر!

وبدأ بخطبته العصماء التي يكررها عليهم منذ سنوات حتى حفظها صغيرهم قبل كبيرهم:

- أحبائي، تعلمون أنكم أسرتي وعائلتي الكبيرة، أُطعمكم قبل أن أُطعم أبنائي، لا يهنأ لي طعام دونكم، واليوم يوم فرح، وقد تخلصت داو من شر عظيم بفضل ساحرنا المخلص سلطان صخر العاصي، الذي يعمل بإخلاص كما كان والده تمامًا حتى يتم القضاء على كل الشرور ومنابع الشؤم التي كانت سببًا في جفاف الأرض وعدم نزول المطر، وقريبًا جدًّا سنعود كما كنا، أبشركم بذلك، فلقد راودتني رؤيا ليلة أمس عن قُرب زوال الغُمة.

أطلت نظرة جانبية من عين سلطان نحو الحاكم، فالخطبة هذه المرة تحوي رؤيا وهو ما ليس متفقًا عليه مسبَّقًا، وخرج عن الاعتياد ولكنه آثر الصمت بينما يستقبل الحاكم خطبته بوجه منشرح:

- ستعود داو لمكانتها قريبًا جدًّا، سترتفع المياه مجددًا حول البلدة، وسيغسل المطر فقر السنوات التي عشناها ونعيشها، بشّرَتني الرؤيا أنه ربما تكون السنة هي الأخيرة في المحنة، وأن حصاد هذا العام هو الأخير.

سرت شحنة متوترة بين الناس وعلت الهمهمات في الساحة واتسعت العيون دهشة وفرحة بينما جذبت كل أم فتاتها التي ستبلغ التاسعة عشرة العام المقبل بين أحضانها وعلا صوت بكاء الفرحة ورفع الرجال أيديهم إلى السماء يدعون للحاكم بدوام حكمه وعظمته وبقائه إلى أبد الدهر في منصبه وارتفعت أصوات أصحاب اللحى البيضاء يتساءلون:

- إذن هل سنعود لصلاة الجماعة مجددًا؟!

قبض سلطان كفه بجواره صامتًا كالقبور محاولًا السيطرة على الغضب الذي بدأ يتأجج، الحاكم يحيك مؤامرة ما ضده، إنه يهدم كل شيء أقاموه منذ سنوات، ولكن لماذا؟

- بالتأكيد سنعاود، ولكن عندما نتأكد تمامًا أن الفتنة لن تتأجج مرة أخرى، فاجتماعكم دون تفرقة واختلاف أهم عندي من أي شيء آخر.

أطرق الشيوخ برؤوسهم في محاولة لإقناع أنفسهم وهم يتهامسون بأن الحاكم مُحق، وفي كل الأحوال فهم غير ملامين وغير آثمين؛ لأن عليهم طاعة ولي الأمر، وطاعة ولي الأمر واجبة.

مالت إحداهن نحو أُذن زوجها هامسة بتهكم:

- نحمد الله أن الحاكم لم يُصرح بالصلاة في المساجد وإلا لاكتشف الناس أنك لا تصلي من الأساس.

التفت لها زوجها بنظرة قاتلة فابتلعت لسانها في الحال وأطرقت برأسها بينما هو يجذبها مطبقًا على رسغها ليؤلمها هامسًا بنبرة متوعدة:

- وهل تظنين أن أحدًا من هؤلاء يصلي في بيته، الأبواب مُغلقة على من بداخلها يا امرأة، فاصمتي خيرًا لكِ .

وهنا علت أصوات الطبول وقد بدأت وفود الرجال المتشحين بالأخضر يدخلون إلى الساحة منهمرين بين الناس يدورون حول أنفسهم بقوة ومهارة فتدور معهم أثوابهم المنتفخة بينما دقُ الدفوف يزداد مرة وينخفض مرة بوتيرة متناغمة حتى بدأ العامة يتمايلون بنصف جسدهم الأعلى معهم وهم جلوس إلى الخلف والأمام وأصابعهم تعمل بمهارة وجوع لتنتزع اللحم المشوي من بين العظام وتَقذفه في الأفواه التي تلوكها بنشوة كبيرة وسعادة وعيونهم لا تغادر هياكل الحيوانات التي بدأت تظهر من خلف اللحم المأكول، كل حواسهم منشغلة تلتهم كل ما يقابلها بمشاعر غامرة تغرقهم وتحجزهم عن أي شيء آخر!

- لماذا؟!

همسة مبطنة بالوعيد من سلطان جعلت الحاكم يشير بيديه للجنود من حولهما بأن يبتعدوا قليلًا، ثم التفت نحوه بنصف استدارة وهو يشبك أصابع كفيه في بعضهما البعض مُدعيًا الهدوء مُفسرًا:

- لا بد أنك نسيت أن ابنتي ستبلغ التاسعة عشرة في العام المقبل.

- كُنا سنجد لها مخرجًا بالتأكيد، تعلم أنني لن أضحي بابنتك يا عظيم داو.

- كما وجدت مخرجًا لأخت زوجتك يا سلطان .. أليس كذلك؟

ضغط سُلطان أضراسه بقوة فتحرك صُدغاه في حركة ظاهرة بينما برقت عيناه بلهيب الغضب الذي يسير بشرايينه في تلك اللحظة وهو يتابع بأنفاس مثل شرارات الجحيم:

- كانت هناك حلول أخرى غير إلغاء المراسم، أقلهم أن تصدر قانونًا يمنع مشاركة الأسرة الحاكمة في الحصاد وتعلم أن أحدًا لم يكن ليعترض.

ألقى الحاكم نظرة سريعة على الناس المنهمكين في إطعام بطونهم ثم عاد بناظريه إلى ذاك الغاضب الذي يبث النار كالتنين في وجهه دون خوف ويريد أن يفرض عليه التراجع فرضًا، وصار لديه يقين أن القرارات التي اتخذها كانت صائبة للغاية، سلطان تجبّر ولا بد من ردعه وبأي وسيلة.

- هل تتدخل في شؤون الحكم يا سلطان العاصي؟ هل تحاول مثلًا فرض إرادتك على الحاكم؟!

أجابه بكثير من الصمت بينما تتحول نظرة سلطان من الغضب إلى التبصر فباتت نظرته مبهمة عميقة تلوح بالزحف البارد الذي يسبق اللدغة القاتلة، ثم قال وهو يضغط كل كلمة يتفوه بها:

- حاشاك أن أُراجع قراراتك .. يا عظيم داو، لك الأمر .. وعلينا التنفيذ!

أنهى كلامه وهو يطرق للأسفل ويتراجع بظهره للخلف ليستأذن بالانصراف المُبكر، تراجع لخطوات عندما حصل على الإذن بإيماءة من الحاكم حتى ًاصبح بداخل بهو القصر، دارت عيناه في الأنحاء الشاسعة بينما تتناطح الأفكار بطرق مظلمة بداخل عقله، الحاكم يظنه غبيًّا، يتخذ خطواته للتخلص منه رويدًا رويدًا، كالأرملة السوداء التي تتخلص من الذكر بمجرد التلقيح فلم يعد له قيمة لديها، يعلم جديًا أنها الخطوة الأولى لتحديد نفوذه، ثم تأتي الخطوة الثانية بإقصائه تمامًا .

سجنه أو قتله لا يشكل هذا فارقًا لكليهما، البهو لم يصبح فارغًا كالمعتاد، بل اصطفت فيه بضعة جنود وتمركز معظمها على تلك السلالم الموصلة للغرف العلوية، لم يكونوا موجودين عند دخوله، ولم يُصدر الحاكم الأوامر إليهم أمامه، إذن فالأمر دُبّر سابقًا ومُعدٌّ له، ومن غير الجائز أن يكون قد تم تدبير ذلك بين ساعة وأختها، إنه مُخطط سَلفًا،

ولكن التخطيط كله يعتمد على إضعافه باختيار الغراب لـ «سلام» على وجه التحديد! فكيف علِم الحاكم أنها هي من سيقع الغراب على رأسها؟

هل يستعين الحاكم بساحر آخر مجهول؟!

يبدو ذلك مستحيلًا في وجوده، كيف لم يخبره أعوانه من الجن بذلك؟

خرج من القصر وقد تضاربت الإجابات وتضادت مع بعضها البعض، يشعُر بأنه يضعُف أكثر فأكثر وكأن قوّته تتخلى عنه.

قوته التي لازمتهُ كظله وانتقلت إليه تلقائيًا كالميراث منذ أن مات صخر العاصي محترقًا في بيته وولاه الحاكم منصب والده مع بداية عام الجدب.

لا بد وأن يستعيدها بأي ثمن بل ويصبح أكثر جبروتًا من ذي قبل مهما كلفه ذلك من ثمن، برِقت عيناه بتحدٍّ شيطاني وهو يعزم على العودة لبيته، وتحديدًا إلى تلك الغرفة التي لا يدخلها غيره، حيث الطلاسم والتعويذات، مكان تقديم القرابين التي هربت إحداهن منها للتو، العاصفة بدأت ولا أحد يعلم كيف ستنتهي ولا من ستجتاح في طريقها؟

❋ ❋ ❋

دار حول البيت ليتأكد أنها قد أصلحت ما أفسدته سابقًا وأعادت النافذة كما كانت، وبالفعل فعلتها ليلى وقامت بتثبيت لوح الخشب قطعيًا وكأن شيئًا لم يكن، التفت للخلف نحو الغابة مُفكرًا، عندما وافق على تهريبها لم يكن يعلم ما يضمره له الحاكم، الآن كل شيء تغير، لا بد من إعادة حساباته مجددًا، وهذه المرة لا دخل للعواطف فيها.

- سلطان!

اقتربت ليلى بحذر هامسة باسمه متعجبة من وقفته تلك مستندًا إلى النافذة يتحسسها كمن يتفقد أحد أطفاله ليطمئن على سلامته، شبكت أصابعها بترقب وهي تقترب أكثر منه وتعيد الهمس ولكن هذه المرة بنبرة حملت امتنانًا وفيرًا وابتسامة منحوتة على ثغرها:

- لن أنسى معروفك أبدًا يا أبا الأولاد، بفضلك أختي لا تزال على قيد الحياة.

ظل مستندًا لم يتحرك قيد أنملة وكأنه تجمد في وقفته، عباراتها تتطاير من حوله لا تمس سوى سمعه فقط، إنه غارق حتى أذنيه فيما ينتويه ويخطط له، وبعد الكثير من الصمت الذي لم تجرؤ هي على قطعه بكلمات أخرى قال بنبرة خشنة لا روح فيها:

- لا تمتني كثيرًا، فهي في مكان أشد وحشة من حجرة الأسياد.

حركت ليلى رأسها نفيًا وهي تلتفت بجسدها كلها تلقاء الغابة وتقول بثقة:

- لا، ستعرف طريقها للخروج سريعًا كما اتفقنا، لقد وضعتها على الكرسي المتحرك وأرشدتها إلى الطريق الذي ستتبعه عرضيًا إلى أن تجد المخرج نحو الجهة الأخرى من البلدة.

شردت ببصرها بين الأشجار المرتفعة هناك وكأنها تحاول اختراقها وهي تستدرك قائلة:

- تعرف بأنها تفقد قدرتها على المشي عندما ترتعب بهذا الشكل..

- أعرف.

قالها بسَأم بترًا للحديث الذي بات يستنزفه ويشتت تركيزه عمَّا هو أهم واستدار مغادرًا نحو باب البيت تاركًا إياها مثبت النظرات للأمام، تُعيد حساباتها هي الأخرى؛ إنه منغلق تمامًا معها الآن، لا يتكلم كثيرًا ولم يطلعها كعادته على ما يدور برأسه، ويتجنبها!

منذ ساعات فقط كانت تجلس أمامه فوق الفراش، جاثية على ركبتيها، تتقربً منه، وتحيط وجهه بكفيها وتثبت عينيها المكحلتين بالسواد الشديد كعادتها بعينيه تبثه رجاءها؛ ليرحم أختها الصغرى، ظل ينظر إليها وكأنما نظراتها تأسره حقيقة لا مجازًا دون حَراك، يسألها وكأنما يسأل نفسه:

- وقانون داو يا ليلى، وهيبتي وهيبة يوم الحصاد أمام العامة والحاكم؟!

حافظت على ثبات نظراتها وكذا ابتسامتها المستقرة فوق شفتيها وتجيبه بنفس الراجية الواثقة من استجابته:

- لقد ربيتها في بيتك منذ أن كانت طفلة في العاشرة يا سلطان وكانت تهابك وتحبك كأبيها وظلت طفلتك الوحيدة حتى أنجبت لك الأولاد

يا أبا الأولاد، اسمح لي بأن أساعدها على الهرب إلى الجهة الأخرى من البلدة، سأجعلها تدعي بأنها وحيدة وليس لها عائلة وأنها تلجأ إليهم وتريد أن تعيش بينهم وبالتأكيد ستجد هناك من يعطف عليها.

غلفهما الصمت ببرودته المقيتة، لم يمزقه سوى صوت لهو أطفالهما القادم عبر النافذة المطلة على فناء البيت الخارجي، وصراع ما يلوح فوق ملامحه، هو ساحر البلدة المُهاب، يتحكم بالجن ويأمرهم، ولا يمكنه التحكم بقراراته منذ أن رآها لأول مرة بصحبة أمها الباكية التي كانت ترجوه لإنقاذ صغيرتها من ظلمة الغابة، لم تكن المرة الأولى التي يرى فيها أم ليلى تأتي راكعة تطلب المساعدة، لقد كانت حالة دائمة لدى صخر العاصي لشدة حاجتها للإنجاب من جديد وقد انطع رحمها عن إنجاب الذرية بعد إنجابها لـ ليلى ونساء البلدة يعايرونها ويسخرون منها بأن حملها بابنتها الأولى كانت محض مصادفة!، والده كان يمنحها اهتمامًا خاص ويفرد لها مساحات خاصة من وقته حتى انقطعت عن زيارته ولم يرها إلا عندما جاءته منهارة ترجوه بأن يعيد لها ابنتها الصغيرة من الغابة.

ذاك اليوم ليلى كانت مختلفة عنها كثيرًا، تجلس على ركبتيها مستقيمة الظهر كما تفعل الآن، وكأنها تستعد للانقضاض، تثبت نظراتها الغارقة في سواد الكحل، وتنهي مطلب أمها بنبرة ممطوطة تشبه مواء القطط:

«أرجوووك» ثم غادرت بخطوات تنافس خطواتهم التي تجمع الخفة بالحذر، ليكتشف بأنه قد سقط مسحورًا بسحر آخر غير الذي يعرف!

شعر فجأة بالخواء عندما سحبت كفيها من فوق وجنتيه وعادت تستقيم في جلستها وتستند بكفيها على فخذيها وقالت كأنما قرأت أفكاره:

- أرجوووك!

زفر مستخدمًا النبرة نفسها التي يغطي بها انفعالاته العاطفية قبل أن ينهض منتفضًا وقال بسأم:

- وإن رآها الناس، وإن لم يتقبلوها هناك، فكيف سأبرر ظهورها مجددًا؟!

- الناس هنا يعرفون بأنها شؤم وسيصدقون عنها أي شيء، سنقول بأن الشاطئ الأسود لفظها وأعادها إلينا ولم يتقبلها أو أي شيء آخر تريده.

جمع طرفي عباءته مقطب الجبين بينما يحسم الصراع الدائر بداخله بجملة واحدة قالها وهو يتوجه نحو باب الغرفة بخطوات عصية:

- أخرجيها إلى الغابة قبل أن أعود من القصر، وحذارِ أن يراكما أحد وإلا ستكون نهايتك ونهايتها.

❋ ❋ ❋

وإليك سلام

ماذا لو كان الوحش حقيقة! ماذا لو كانت كل الأساطير حدثت يومًا ما بالفعل، ماذا لو كنا نحن الوحوش الحقيقية.. لو كُنا نحن الخيال؟ بينما هم الواقع.. هم من يخشوننا!

رمشت سلام بأهدابها عدة مرات قبل أن تتأوه متألمة وهي تفتح عينيها ببطء، لم يك هناك سوى الظلام فقط، ضجت حواسها دفعة واحدة بينما الذكرى القريبة تهاجمها، تتذكر اللحظات الأخيرة قبل الاصطدام، عندما اندفعت برعب نحو قلب الغابة بعد أن حملتها أختها بصعوبة ووضعتها فوق الكرسي المتحرك ووضعت بحجرها بعض الطعام وقارورة ماء ودفعتها بين الأشجار وأمرتها وهي تلهث أن تهرب ولا تعود ثانية حتى ولو كلفها الأمر حياتها:

- اهربي يا سلام ولا تعودي أبدًا مهما حدث، لو علِم أحد فستكون نهايتنا جميعًا، اعبري الغابة إلى الجهة الأخرى وعندما يجدك أحدهم أخبريه بأنك يتيمة ومريضة ولا تجدين من يعولك ويطعمك، إنهم أهل كرم وستجدين حياة أخرى بينهم، ولا تخبريهم من تكونين وإلا فسيعيدونك مجددًا ووقتها ستسجنين في غرفة الأسياد إلى الأبد، هل فهمتِ؟

دفعت سلام الكرسي المتحرك بكل ما تمتلك من قوة، الذعر هو من كان يدفعها لا يداها، تهرب من خوف إلى خوف، ومن موت إلى موت،

ومن وحدة إلى أخرى، لا تعرف تحديدًا ممن تهرب، من أهلها؟ من بلدتها؟ من عائلتها؟ تهرب إلى الغرباء ربما تجد لديهم بعض الرحمة، وربما تجد لعنة أخرى تلاحقها!

غاصت أكثر وأكثر بين الأشجار المحترقة والدموع تغرق وجهها وأنفاسها تنهت بلا توقف حتى كاد قلبها يتوقف بينما بصرها شاخصٌ للأمام وقد فقدت القدرة على تحديد إلى أي جهة تتحرك تجاهها، وفجأة ودون مقدمات ارتطم الكرسي بجذع شجرة ملقى عرضيًا مع شدة اندفاع العجلات، وجدت الأرض تقترب منها بسرعة بالغة حتى تنبهت أنها هي من تسقط عندما ارتطمت رأسها وشعرت بسائل دافئ يرسم خطًا فوق جبهتها ويهبط في رحلة إلى أنفها ثم فمها فكان طعم الدماء آخر ما تذوقته قبل أن تفقد الوعي ويظلم كل شيء من حولها، ظلام ربما لا يأتي بعده نور أبدًا

إلا أن ظنها قد خاب، وها هي تفتح عينيها من جديد ولكنها لا تُبصر، هل فقدت نظرها كما فقدت قدرتها على المشي! أي فتاة أنت يا سلام؟ شيء ما يتحرك حولها، حفيف ثياب! جف حلقها فكتمت أنفَاسها عنوة وهي تحاول التأكد من أن المتبقي من جسدها يستطيع الحراك، يدها تؤلمها ولكنها ما تزال تعمل، دقيقة، دقيقتان، ثلاثة، لا يزال الصوت على نفس الوتيرة، إلا أنه ابتعد عنها ثم سمعت سلام صريرًا خفيضًا لشيء ما، بدأت بعدها تلمح خيط ضوء شاحب قادم من نافذة بعيدة، إنه ضوء القمر، يخبرها بأن عينيها بدأتا تعتادان الظلام وتتعاملان معه، عودة الرؤية لم تخفف من ضربات قلبها الموجعة بين أضلعها، بل زادتها عندما بدأت تبحث بمقلتيها هنا وهناك تتفقد طبيعة المكان الملقاة به على تلك الأرض العارية، الضوء الشاحب يكشف لها عن غرفة كبيرة للغاية و.. صرخة مرتفعة انطلقت من حلقها وهي ترى ذاك الخيال الأصفر هناك بجوار النافذة قبل أن تضع كلتا كفيها فوق فمها وتتخدر ساقاها أكثر فأكثر.

تحرك الخيال نحوها فأطلقت لحنجرتها العنان بصرخة أخرى أكثر فزعًا مُحاولة التراجع للخلف فتوقف الخيال عن الحركة تمامًا أمام النافذة مباشرة، سقط الضوء فوقه فمنحه مزيدًا من الظِلال الطويلة المرعبة، تحولت صرختها إلى بكاء يائس وشهقات مرتفعة وهي تراه يسير ببطء باتجاه الفراش حتى جلس فوقه والذي لم تلاحظه سوى اللحظة وهي تتبعه بعينيها، السرير عريض للغاية لم تتضح تفاصيله في تلك الظلمة الحالكة، دقائق كالدهر مرت عليها وكأنها تم سجنُها في لوحة رُسمت فقط لحبسها بداخلها، لا شيء على الإطلاق يتحرك ولا حتى تظن الهواء يفعل!

- أنا.. أتذكركِ.

قالها الخيال بنبرة مبحوحة بعيدة، وبصوت متحشرج يَشي بحنجرة لم تُستخدم منذ الكثير من الوقت، بدأت شهقاتها تخف تدريجيًا مُحدقة به في محاولة يائسة من اختراق الظلام، وعندما وجدت صوتها قالت بخفوت مرتعشة:

- ما أنت؟

ساد الصمت مجددًا بينما هو متجمد في جلسته قبل أن تأتيها الحشرجة نفسها بكلمات ربما تبدو مألوفة لها:

- كنتِ هنا.. منذ.. سنوات كثيرة.. كنتِ ضائعة.

حركت رأسها تنفي شيئًا لا تعرفه بينما صدرها ينهت صعودًا وهبوطًا انفعالا ليضيف مؤكدًا:

- كنتُ هناك.. خلف الجدار المتهدم.

مادت الدنيا بها وهي تتذكر تلكما العينين التي رأتهما تنظران إليها من خلف الجدار المتهدم في القصر المحترق بقلب الغابة وهي طفلة عندما ضاعت هناك منذ سنوات قبل أن تفقد الوعي، كما فعلت الآن بالضبط! عندها تيقنت أنها الآن بأحد حجرات ذاك القصر، ويحدثها أحد أشباحه!

❁ ❁ ❁

عندما فتحت عينيها للمرة الثانية كانت أشعة الشمس القوية تغمرها بالدفء وتتسلط بقوة على مقلتيها فعادت لتغمضهما متألمة بعد رحلة ظلام طويلة، فالنور لا يؤلم إلا من اعتادوا العيشَ في الظلمات حتى ألِفوها وألفتهم!

نهضت سريعًا تنظر حولها لتتيقن مما عرفته ليلة أمس قبل إغماءتها الأخيرة، الجدران محترقة يعلوها طبقة سواد مختلطة بغبار منحها مظهر شاحب مخيف، كل ما بالغرفة محترقٌ تمامًا، هيكل سرير فارغ من الفرش والألواح، خزانة الملابس الفارغة العريضة التي تحتل جدار كامل، مرآة عريضة كذلك يغطيها السواد من كل جانب فلم تعد تعكس سوى خيالات، سجاد هش من شدة تفحمه، آثار لستائر كانت تغطي النافذة يومًا ما، كل هذه الأشياء لم يعد منها سوى بقايا.. ورائحة الموت التي لم تذهب بعد، أطلال لحياة مترفة قضت على أصحابها في نهاية بشعة لا يتخيلها أحد.

لحظة! هناك صحنٌ كبيرٌ فضيٌّ ممتلئ عن آخره بثمار التفاح الأخضر وزجاجة مياة نقية، فوق حافة الفرش الإسْفَنْجِيَّة التي ترقد فوقها أرضًا بجوار السرير المتهالك، حدقت سلام به لدقيقة بدهشة وهي تظن بأن خيالها الجائع فقط هو من صورهُ لها، إنه تحفة فنية طازجة وسط كل هذا الكم من الخراب!

لم تستقر نظراتها لأكثر من لحظتين حتى وهي تلتهم الثمار واحدة بعد الأخرى، ظلت تجُوب الغرفة بعينيها بينما صوت قضِماتها تندمج مع أصوات الطيور القادمة من النافذة هناك، تحاول مرةَ بعد مرة بضرب قدمها علّها تستجيب وتستعيد الشعور بها من جديد.

ظلت على وضعيتها تلك لساعات حتى بدأ الغروب يزحف بخيوطه الذهبية بين النور فيطفئه رويدًا رويدًا، مستندة إلى الجدار من خلفها، مختبئة خلف أرجل السرير العريضة عن يمينها، تضرب قدميها بين الفينة والأخرى، تخشى أن تصدر صوتًا لبكائها، تخشى الصراخ وهي أعلم الناس بأن أحدًا لن يسمعها، اللهم سوى الخيال الذي حدَّثها بالأمس! تُفكر في الزحف كما فعلت في غرفة الأسياد سابقًا، إلا أن الخوف يلجم حركتها، فهناك كانت تعلم أن خلف بابِ الغرفةِ البيتَ الذي طالما عاشت به وتحفظه، كانت تعلم أن هناك أختها والأطفال، أما هنا فخلف الباب المفتوح شيء مجهول قابع يترصدها، لا تعلم كُنْهه ولا ماذا يريد منها، ربما خوفنا الحقيقي ليس له علاقة بأبواب موصودة تحتجزنا خلفها بقدر علاقته بمعرفتنا عمَّا ينتظرنا بداخلها!

خطوات ثقيلة قادمة شقت همس دموعها فأخرستها تمامًا بينما ارتج خافقها وهربت الدماء من عروقها كلما اقتربت الخطوات.

تجمدت عيناها عند حافة الباب في انتظار ما تجهله، توقف حفيف الثياب للحظة قبل أن يعيد رحلته من جديد زحفًا ليظهر خيال الأمس أمامها دَفْعة واحدة عند الباب، لا يفصل بينهما سوى السرير فقط، كتمت صرختها في كفيها التي تضغط فمها مرتعبة وهي تعاينه قبل أن يحل الظلام، لم يكن خيالاً كما كانت تظن، يبدو بشريًّا، طويلاً، شعره مُشَعَّث، يصل إلى كتفيه، ذقنه نامية، ويرتدي جلباب امرأة!

صورة متنافرة جحظت لها عيناها ولا تستطيع أن تتحقق من أيسر الأشياء، جسد رجل، بداخل ملابس نسائية، ما هذا بحق الله؟!

غامت مقلتاها وكادت تمارس هوايتها المُحببة وتفقد الوعي، ولكنه جذبها للواقع مرغمة وهو ينطق بنفس النبرة المبحوحة الخشِنة التي تكلم بها بالأمس:

- أنتِ ملكة الإغماء!

تقوص لسانها بداخل فمها حتى كادت تبتلعه وشعرت بأنها توقفت عن التنفس وهي تراه يدور حول السرير ببطء، ظنت أنه سيقترب منها فالتصقت أكثر بالجدار من خلفها متمنية أن تنصهر بداخله وتختفي، لكنه لم يفعل.

سار نحو الجدار المقابل لها فاستطاعت أن ترى قدميه بوضوح أكثر، ينتعل خفًا نسائيًّا لم يستطع أن يحتوي قدمه الكبيرة بالكامل فترك نصفها تقريبًا خارجه!

استند إلى الجدار ثم انزلق ببطء جالسًا القرفصاء يراقب للحظات طويلة بفضول وتفحص ذعرها البادي فوق ملامحها وكأنها قطته الأليفة، قبل أن ينطق ثانية بخفوت وكأنه يخشى خدش الصمت المحيط بهما بينما عيناه تقعان فوق زجاجة الماء التي لم تمسها:

- لم تشربي!

لم تُجبه وكأنها ابتلعت لسانها بالفعل، كل ما جد عليها أن كفيها تركتا فمها لتهبطا إلى جيدها حيث السلسال المعلق هناك، تشبث بالجزء المستدير في نهايته والمحتفظ بداخله بالورقية المطوية وبداخلها تموت ألف مرة راجية أن تعمل الكلمات المكتوبة بداخلها هذه المرة وتنجيها مما وقعت به، ولكنها حصلت على النتيجة نفسها، لا شيء حدث، كل ما هنالك أنه نهض وتحرك نحوها بفضول أكبر، هل يعمل السلسال بشكل عكسي؟!

مد يده نحوها فانطلقت حنجرتها بصرخة صغيرة شاحبة منهكة محطمة كصاحبتها جعلت يده تتوقف في الهواء لثانية قبل أن تتحرك مجددًا، أعادت كفيها لتخفي بهما وجهها فشعرت بأصابعه تتلمس

السلسال، ضغطت وجهها بكفيها أكثر وأكثر وقد بلغت حدود خوفها وسقط من ارتفاعه الشاهق فهتفت بانهيار:

- من أنت، ماذا تريدون مني، متى ينتهي هذا العذاب؟ متى ينتهي؟

ارتفعت شهقات بكائها بقوة وهي تكرر هتافها مرة بعد مرة حتى تحول الهتاف إلى رجاء خافت وكأنها وصلت للقاع ولم يعد هناك ما تصطدم به أكثر فصمتت تاركة صدى خفقات قلبها تتردد بين الجدران المحترقة.

- مالك.

أزاحت كفيها قليلًا عن عينيها مشدوهة تناظره عن قرب، فقال مُكررًا:

- أنا مالك.

همست شاحبة بنفس سؤال البارحة:

- ما أنت؟!

وأمام عينيها تاهت نظراته وصارت أشد من الليل القادم باتجاههما هامسًا:

- لا أعرف!



لم يكن يسير، كان يدهس الأرض دهسًا بكل الغضب الذي يعتمل بداخله وهو في طريقه إلى داره، يحدث نفسه مُتمتمًا بين فينة وأخرى، لن تغيب شمسك يا سلطان مهما حدث، من شدة غضبه لم يُلاحظ تلك المرأة وطفلها التي كانت تمر بالقرب منه. بمجرد أن رأته توقفت وانحنت تحمل طفلها وتحتضنه بقوة وخشية، صرخ الطفل فجأة فتوقف سلطان بغتة ملتفتًا إليه منتبهًا إليهما فاحتضنت الأم الولد بقوة أكبر وتسمرت قدماها فلم تقوَ على الحراك، تنظر له بتضرع وهي تفكر في وسيلة للاعتذار لأن بكاء ولدها قطع حديثه مع الأسياد!

لم يتحرك، ظل مثبتًا عينيه فوقهما بقوة حتى شعر بأنها تكاد تتهاوى من فرط خوفها منه وهي تُتمتم بالاعتذار الأجوف وقد امتلأت عيناها بالدموع وهي لا تعلم بأنه يقتات على هلعها هذا وبأنها تمده بالقوة والثقة التي يحتاجها، كُلما صغُرت تعاظم هو، يستمد منها الحياة بنظراته فقط بينما أصوات دفوف الدراويش تأتي من بعيد لتكسر حاجز الصمت الذي فرضه عليها دون كلمة.

- انصرفي ولا تخافي منه هكذا.

صوت يعرفه سلطان جيدًا يأتي من خلفه، وكأنه كان ينقصه ملاقاة جلال الدين أيضًا

استدار بكل بغضه وقد أُفلت غضبه من عقاله يناظره بعين ثعلب حاقد قُطع عليه ارتشاف ترياقه، دقيقة كاملة من الصمت المشحون بالكره، حرب النظرات سمحت للمرأة بالفرار لخطوات بطيئة للخلف قبل أن تُطلق ساقيها للرياح!

- يعجبك دومًا دور البطولة يا بن الراوي، تتقمصه ببراعة وتتحداني على الملأ.

قالها سلطان وهو يقترب ببطء شديد نحو جلال الدين قاطبًا ما بين عينيه، قابضًا على عصاه الغليظة ذات الرأس الكبير المستدير بلونه الذهبي اللامع الذي يكاد يختفي أسفل كف سلطان العريضة القابضة عليه وكأنه يعصره عصرًا وهو يتابع مستطردًا:

- يؤسفني أن أخبرك بأن إرادتي فقط هي السبب في بقائك حيًّا حتى الآن، فلا يغرك حلمي عليك أكثر من هذا!

ملأ جلال الدين رئتيه بالهواء الذي حبسه قليلًا قبل أن يُطلق صراحه بتمهل حارقًا المسافة القليلة المتبقية بينهما بخطوتين ثقيلتين وهو يرقب القسوة المُطلة من عيني غريمه الذي يواجهه بكل قسوة وغضب لا سابق لهما في كل معاركهما القديمة.

نادرًا ما يلقى سلطان في طريقه، مصادفة لا يُفضلها كلاهما، لقاءاتهما في السابق كانت لقاءت نظرات متحدية وفقط، سوى أول مقابلة بينهما أنذره سلطان فيها بغرض تخويفه بأنه ينتظر منه هفوة، هفوة واحدة وسيجعل شياطين الأرض كلها تتلبسه وتصنع منه مخبولَ البلدة، ومنذ ذلك الحين لم يلتقيا إلا بعينيهما من مسافات بعيدة فقط

أما الآن وبينما كان جلال الدين عائدًا من الغابة بعد أن تسلم رسالة عمه نصر الراوي، لم يلق سلطان العاصي الذي يعرفه، لقد كان شخصًا آخر، يشبه إلى حد كبير الخيل التي خرجت من الخدمة ويفكر أصحابها بأن يطلقوا عليها رصاصة الرحمة! حالته الغريبة تلك جعلته يتوقف ويصرف المرأة بعيدًا ويستمع إلى جملته الحاقدة المشتعلة بغضب أسود، بل ويرد قائلًا بنظرة متفحصة:

- يؤسفني أنا أيضًا أن أخبرك بأن الإرادة الوحيدة في بقائي حيًّا حتى اللحظة يا سلطان هي إرادة الله وحده.

زادت تقطيبة حاجبيه حتى خُيل إلى جلال الدين بأن المسافة الفاصلة بين عينيه قد مُحيت تمامًا من ملامحه، كان يعلم أن سلطان غاضبٌ حاقدٌ، وأن شيئًا يزيده غلًا في هذه اللحظة، ربما جافته أسياده أو تمردوا عليه مُجددًا كما حدث يوم الحصاد.

دس كفيه في جيبي سرواله الأزرق الباهت وهو يتابع بنبرة نزل سقعيها على مسامع سلطان فجمدته:

- سمعتُ بأن حاكمك جافاك وكذلك أسيادك، ما السبب يا تُرى؟ هل وجدوا غيرك أم أن الحاجة إليك قد انتفت بعد أن مكنت لهم في قلوب ضعفاء العقول؟

أذاب اشتعاله الداخلي جليد كلمات جلال الدين ورفع سبابته تهديدًا وعيناه تبرقان بألسنة من لهب هامسًا بفحيح مُنذر بالخطر:

- أنا لا تنتفي الحاجة إليّ أبدًا، ما دام هناك حاكم، ما دام هناك جن وشياطين، ما دامت هناك بلدة، دائمًا وأبدًا سيكون هناك ساحر، سيبقى دومًا سلطان صخر العاصي كما هو، أما أنت يا جلال الدين، فستنتهي، وسيأتي خلفك الكثير يغرهم ما غرك لفترة أحددها أنا ثم .. سينتهون مثلك تمامًا.

صمت للحظات علت فيها أصوات الدفوف البعيدة القادمة من ساحة القصر ثم قبض كفه بقوة قبل أن يفتحها فجأة ويلوح بها أمام عيني جلال الدين متابعًا:

- سينتهون.. كما ستنتهي قريبًا، ستكونون جميعًا كالفراغ الساكن راحة يدي الآن.

دون أن يُحرك ساكنًا، ولا حتى طرفة عين أجابه جلال الدين بثقة:

- قل لن يصيبنا إلا ما كتب اللّه لنا.

شعر سلطان بلوح ثلجي ينزلق عبر عموده الفقري ولكنه حافظ على ثباته وضغط أسنانه قابضًا كفه مرة أخرى وقد أظلمت عيناه قائلًا:

- سنرى يا ابن الراوي.

زمَّ جلال الدين شفتيه بقوة قبل أن يُجيب بنفس نبرته التي حافظ عليها متخمة بالتحدي والثقة:

- سنرى يا ابن العاصي!

❋ ❋ ❋

صهاريج من الوجد والاشتياق تصهره في سنوات مضت بينما يقطع الغابة عرضًا بكد ممسكًا بمرفق عابد الغاضب يسنده حتى لا ينزلق في أحد أكوام أوراق الشجر الذابلة هنا وهناك في طريقهما نحو قبيلتهما، قبيلة الراوة، اليوم أتاه رسول من عمه نصر الراوي يخبره بضرورة الحضور، عشرٌ تولت تطحنه بين رحاها وهو يحاول ويحاول إلا أنهم يرفضون حتى لقاءه، وعندما جازف وطرق باب عمه قبل ثلاث سنوات سحبه بجفاء نحو صحن البيت الكبير ولم يسمح بالدخول، زجره وطرده دون أن يسمع منه وتركه مغادرًا كـ يوسف آخر رُمي به في غياهب الجُب مذمومًا مدحورًا، وبدلاً من أن يغادر بئره الخاص مكث هناك جالسًا على تلك المصطبة الإسمنتية بصحن الدار منتظرًا أن يأكله الذئب حقًا، رافضًا نداءات كرامته بالرحيل العاجل وعدم العودة، وها هو يحنث الوعد ويعود بنفس الشغف والشوق.

- تعلم بأني ما جئت إلا بإصرار منك يا جلال الدين، رغمًا عني أعود بقدمي إلى من طردونا ومزقوا شملنا ونحن في أشد الحاجة إليهم، لا أعلم سر تشبثك هذا لتأتي إليهم بمجرد رسالة لا تتعدى الكلمتين، وإن كان الأمر هو زوجتك فلقد نصحتك من قبل بأن تُطلقها، هي حتى ليست زوجتك بشكل حقيقي إنه مجرد عقد لا أكثر!

لم يتوقف ولم يرد، لقد سمع هذا الحديث الغاضب كثيرًا من قبل، هو في هذه اللحظة يشعر بالطفو فوق كل شيء، يتأمل كثيرًا في العودة إلى رحاب القبيلة والعائلة بكل تعنتهم وقوانينهم الجائرة، يدور في سمائه الخاصة فلا يملك سوى تلك النبضات الثائرة التي تدفعه نحوهم بكل ما أوتي من حب!

حُب!، غمره الحنين بينما اللقب الذي يُلقبها به يغزو عقله ويحتل خفقاته معلنًا، ابنة عمه، بل ابنة أبيها بحق كما يُحب عمه بأن يناديها، عند اللحظة الفاصلة رفضت الخروج معه، كما رفضت أن يُطلقها، كانت في العشرين من عمرها ولكنها كانت ثابتة كالرجال وهي تكتب له رسالتها الأخيرة التي تودّعه بها قائلة «واعلم يا بن العم أنني قد أخبرت أبي برفضي للطلاق كما أراد الجميع، كما أخبرك الآن برفضي لأن أترك قبيلتي كما تريد أنت، لن أسمح لرأس أبي أن تذل بين القوم، ولن أحطم قلبك كذلك، سأظل هكذا عالقة بينكم حتى يحكم اللّه بيننا، والسلام».

- صمتك الدائم هذا يُقلقني يا جلال الدين.

نفض الذكريات القابعة بين أضلعه بتنهيدة قصيرة قبل أن يلتفت إليه وقد أثارت حفيظته وتعجبه في آن واحد نبرة عابد التي يشوبها التوتر الخفي، دائمًا ما يدهشه ذاك الخليط العجيب في مُعلمه من قوة وجرأة في مواجهة البلدة والحاكم وشياطين الساحر، إلى توتر وقلق أو حتى غضب لأتفه سبب كلما حاول جلال الدين التواصل مع قبيلتهما أو الذهاب إليهم، حتى الآن لم يجد حلًا لتلك الأُحجية.

- أُفكر فقط يا عمّاه، اللّه أعلم ماذا ينتظرنا، وطلبهم لسرعة حضوري لم يُمكّنني من استطلاع الأمر أولًا ممن أعرفهم هناك.

- لم يكن عليك الاستجابة لهم، ألا تملك بعضًا من كرامة أبيك؟

قذفها من فمه بغضب شديد ودون مواربة مما جعل خطوات جلال الدين تتوقف لبرهة ليسبقه عابد بخطوتين قبل أن يتوقف هو الآخر وقد أدرك صعوبة ما تفوه به للتو على رجل مثل صاحبه، فتنحنح وهو يستدير في مواجهته مستدركًا لخطئه:

- جلال الدين، تعلم أنك ولدي الذي لم أنجبه، ولي عليك حق الأبوة الكامل، هذا أولًا..

سكت لثانيتين يمنحه فرصة للفهم ثم تابع وقد استندت كفه بحركة غير إرادية يفعلها دائمًا فوق جراب خنجره المعلق بخاصرته:

- كان من الممكن أن أُصرَّ على رفضي المجيء معك، ولكن في النهاية لم أكن لأتركك تواجههم وحدك، وهذا ما يقلقني ويغضبني في الوقت نفسه، لأنك لو تعرضت لخطر فلن أستطيع حمايتك بمفردي.

صمت آخر حام بينهما لم يقطعه سوى حفيف شيء ما مر بسرعة كبيرة من خلفهما فالتفت كلاهما فاصطدمت أعينهما بالفراغ، لم يكن هناك إلا الأشجار الضخمة الجافة الأغصان.

وفجأة اصطدم بالأرض طائرٌ على بُعد خطوات منهما دون حَراك، تغضن جبين جلال الدين وهو يضيق ما بين عينيه ويقترب بحذر من الزرياب النافق ويميل بجذعه نحوه بإشفاق، وقبل أن يمد يده نحوه ليستطلعه علت صيحات مرتفعة غير متناغمة لطيورٍ أخرى قادمة تملك نفس زرقة لون أجنحة النافق هناك ونفس التصميم الجسدي الذي يشبه الببغاء إلى حد كبير، وبدأت الطيور تتجمع في حلقة حول فقيدهم فيما يُشبه الجنازة بينما تعلو صيحاتهم أكثر فأكثر، اقترب عابد وأمسك بمرفقه وهو يجذبه بخفة بعيدًا ليستكملوا مسيرتهما وهو يقول بغموض:

- يبدو أن بعض الطيور تقيم المآتم لموتاها، حتى وإن كانت هي التي قتلته!

❋ ❋ ❋

وكأنهما عبرا إلى جهة أخرى من العالم، تلك الجهة البيضاء من البلدة التي تخلو من السحرة، جل ما بها يغلب عليه لون السحاب، الجدران والمباني والدور التي تتباعد احترامًا للخصوصية على شكل نصف دائرة وتتناثر فوق جدرانها الزخارف الزرقاء من جميع الجهات، الأسقف مرتفعة بلا قِباب، يكسو سقفها الجريد والسعف المتدلي على الجوانب والمُعلق بها مجسمات زرقاء كثيرة بحجم كف اليد، لا يخلو منها دار ظنًا منهم بأنها تحفظهم من شرور الجانب الآخر من الغابة التي عبرها جلال الدين للتو هو ورفيقه.

قبض عابد لا إراديًا على خنجره بينما سبقه جلال الدين للتحرك بخطوات أقرب إلى الهرولة، سايره محاولًا اللحاق به حتى غاصا بين الدور ذات الطابقين مشيًا على الأقدام بينما الأنظارُ الدهِشةُ تتوجه نحوهما باستنكار وغرابة فتجاهلها جلال الدين ببؤس شديد ارتسم على وجهه، هو يدرك سببها تمامًا ويعذرهم ولكن هذا لا يمنع الغصة الثقيلة العالقة بحلقه وهو يهرب بعينيه نحو عابد متسائلًا:

- هل نفِدت قارورة الماء التي بحوزتك؟

جذب عابد القارورة المعلقة بحزامه ومنحه إياها وهو يبتسم ساخرًا ويقول:

- هيا خبّئ عينيك داخلها متصنعًا العطش حتى نصل إلى دار زعيمهم!

رفع القارورة ليشرب متجاهلًا حديث عابد الساخر في اللحظة التي مرت بهما عربة خشبية محملة عن آخرها بعلف رطب ويابس للحيوانات

ويجرها حِمار منهك يرتفع نهيقه وصاحبه يُوسعه ضربًا ويشتمه وهو ينظر إليهما نظرة جانبية كارهة.

أعاد إليه الماء وتنفس بعمق قبل أن تأخذه قدماه إلى وجهتهما المنشودة التي يحفظها جلال الدين عن ظهر قلب، دار عمه الذي انتقل إليها منذ شهور فقط والتي تتوسط الدور من حوله تمامًا بعد أن حفروا البئر الجديدة فأراد أن يكون بقربه.

وقفا أمام البوابة الخشبية العريضة التي لا تختلف عن بقية الأسوار المحيطة للدور من حولهما، فالجميع يستخدم شجر السنط للبوابات الرئيسية ويزخرفون من حولها بنفس الزخارف الزرقاء لأشكال هندسية متنوعة بلا حِرفية ولكنها مميزة ومتناسقة مع بعضها البعض حول الحواف.

دفع جلال الدين الباب الخارجي ببعض القوة ليمرّا من خلاله إلى الصحن الداخلي للدار والذي تشغله شجرة ضخمة مترامية الجذوع لتُظلل المساحة المتبقية من حولها بمعظمها، والبعض الآخر منها يميل فوق النوافذ العُليا للطابق الثاني يكاد يخترقها فيحجب الرؤية عنها وكأنها غير موجودة.

لم يستطع أن يمنع نفسه من إلقاء نظرة مطولة إلى تلك النوافذ البعيدة القريبة ليستمع إلى تمتمة عابد الساخرة التي رماه بها وهو يصطنع الجلوس على تلك المصطبة المرتفعة أسفل الجدار وبطول واجهته:

- سأنام هنا قليلًا حتى تنتهي.

بعبوس أعاد عينيه إلى الباب الداخلي الذي يقف أمام عتبته المرتفعة الآن ويستعد لطرقه وكأنها مهمة صعبة، شيء ما لفت نظره وجعل قبضته تتراخى إلى جانبه وهو يستدير نحو عابد ودهشة مفاجأة تغمر حروفه:

- هل كنت تعرف أن عمي استبدل داره القديمة بهذه التي نقف أمامها الآن؟!

- وكيف سأعرف؟

- دخلت معي إلى هنا دون أن تسألني عن تغير وجهتي وكأنك تعرف!

وقبل أن يحصل على الإجابة سمعا صوت صرير المزلاج وهو يتحرك من الداخل معلنًا عن مواجهة من نوع آخر ربما ستضج لها أركانه وتقلب حساباته رأسًا على عقب.

❁ ❁ ❁

هل رأيتَ الذئب يومًا، وإن يكن، فنصر الرواي أشد ضراوة منه ومكرًا، ولو تخلى عن طبعه الذي يجعله كقنبلة سريعة الانفجار لتغيرت أمور كثيرة، ولفطن لأمور أكثر!

دخل عابد بصحبة جلال الدين إلى غرفة الديوان التي يجتمع بها رجال القبيلة عادة للتباحث في شؤونها، أشارت لهما الفتاة النحيلة السمراء نحو الأرائك ليجلسا قبل أن تهرب سريعًا تُخفي وجهها أسفل وشاح أبيض منسدل حول شعرها المعقود بضفيرة طويلة للخلف، صاعدة نحو الدرج المجاور إلى حيث تقبع الغرف الخاصة لتخبر نساء الدار بحضورهما، وكأنها كانت في مهمة مستحيلة نفذتها على أكمل وجه وفي طريقها لتقديم التقارير!

في حضرة عمه نصر الرواي كبير العائلة جلس جلال الدين متشابك الأصابع مجاهدًا لأنْ يخفي توتره الذي ازداد بعد المقابلة الجافة التي لقيها وقد رفض عمُّه أن يتقرب منه ليقبل كتفه كما هي عاداتهم مع الكِبار.

اكتفى نصر بأن يشير إليه ليعاود الجلوس في مواجهته فوق الأريكة الخشبية المنجدة بالقطن التي تتوشح مقاعدها بنسيج الصوف الثقيل الذي تتداخل فيه تدرجات اللون الأزرق مع الأحمر الشاحب، وعلى يمينه يسكن جسد عابد متحفزًا يُعد نفسه لمواجهة كلامية ربما تنتهي بقتله!

راقبه جلال الدين وهو يتوسط أريكة كبيرة مقابلة لهما، وكعادته عندما يجلس يجمع طرفي ثوبه الأبيض الذي لا تشوبه ألوان أخرى حول كتفيه بينما يقبض على عصاه الغليظة، إنها عصا جدّه التي تنازل عنها والده شمس الدين ومنحها لأخيه نصر متنازلًا له عن مشيخة القبيلة قبل أن يصطحب ولده ويرحل!

تفصل بين الأريكتين طاولة خشبية متوسطة الاستدارة يتماشى لونها الطبيعي مع أطباق الخُوص المعلقة على الجدران من كل جانب والشعاليب المدلاة من السقف حيث الودع والصدف المعلق بها كنوع من أنواع الزينة المتعارف عليها لديهم.

الماضي يشحذ بقلمه فوق جبين نصر خطوطًا من الذكريات لا تنتهي، فالماضي ربما يختبئ لكنه لا يرحل أبدًا، ما يزال ينظر إلى وجه ابن أخيه ويرى فيه أشعة شمس الرواي تُشع بين ملامحه ولغة جسده بل وملابسه أيضًا!

طُرق الباب ودخلت الفتاة النحيفة مجددًا تحمل بالكاد صحنًا كبيرًا نحاسيًا زاخرًا بالتمر والخبز المحمص وإناء الشاي المغلي الذي يتوسط مجموعة من الأكواب الزجاجية الصغيرة، وكما فعلتْ من قبل، وضعتْ الصينية وخرجت هاربة نحو باب الديوان، لكنها لم تصعد الدرج هذه المرة بل التصقت بالباب من الخارج تستمع لما يجري كما أمرتها سيدة الدار، خديجة نصر الراوي.

- ضيّف نفسك يا ابن أخي أنت ومن معك.

رفع عابد طرف عينيه نحو نصر الذي قال جملته بكبرياء وهو يناظر « عابد» بنظرة جامدة يلوح بها الكره بسيفه حاد النصل، فبادله النظر بثبات وتحفزت حواسه، برغم كل شيء، صداقته لشمس الراوي، تضحياته التي قدمها واحدة بعد الأخرى، لن يرتفع أبدًا إلى أكثر من خادم لشمس الدين وابنه في نظر القبيلة، مهما فعل فسيظلون يحتقرونه وينظُرون نحوه بدونية، حتى عندما جاهر بالعداء وبكسر قوانين القبيلة، لم يترقّ حتى إلى مرتبة العدو، ظل كما هو تابع، مجرد تابع لقرارات شمس وابنه من بعده.

- بشرني يا عمي.

قالها جلال الدين متلطفًا ليكسر حدة النظرات المتبادلة بينهما، ونجح في ذلك عندما التفت نصر نحوه بنفس نظراته الجامدة التي لانت قليلًا بمجرد أن وقعت فوق نظراته الزاجية ثم ملابسه التي تعود لأبيه الذي بدأ التمرد من عنده عندما قرر أن يتزوج من خارج القبيلة ويرتدي ملابس أهل المدينة .. وقال بنبرة لا يعرف هو نفسه كيف جمع فيها بين الفخر والسخرية:

- جئتني مرتديًا ملابس أبيك، لم أعهدك ممن يختبئون خلف آبائهم!

استقام ظهره فجأة وكأن ذِكر أبيه شد من أزره، وعاين ملابسه بنظرة عابثة قبل أن تعود نظراته لعمه مجددًا وهو يجيب بتلقائية صادقة:

- تعلم يا عمي أنني لا أرتدي سوى نوعية هذه الملابس، وتعلم أيضًا أنها لم تعد تصنع كما كل شيء في بلدتنا ولذلك اضطررت إلى اللجوء لخزانة أبي كلما.. كبِرت!

سحابة من الضياع غيَّمت فوق رأسه فلم يعد يدري ماذا يقول بينما كفَّاه حاولتا التعبير عمَّا يشعر به من وحدة وهو يتابع ما بدأه:

- لقد كبِرت يا عمي، كما ترى، انتصف عقدي الثالث و أوشكت على الجنون..

- لهذا استدعيتك.

مقاطعة عمه لم تفعل سوى أن زادت ضخ المزيد من الدم في أوردته ومال للأمام مستندًا إلى ركبتيه متحفزًا في انتظار ماهو آت، قبل أن يتنحنح نصر بقوة يجلي حنجرته بلا داع ويطرق الأرض بعصاه لمرتين ثم يقول بتروٍّ:

- هي أيضًا قد كبرت، وكما انتصف عقدك الثالث أوشكت هي أن تضع قدميها على أول سلمة فيه، وبالتأكيد أنت لا يرضيك أن تظل ابنة عمك معلقة هكذا لسنوات في عصمتك.

- اسمح لي بالعودة واستكمال مراسم زواجنا إذن.

- بل ستطلقها والآن، لقد منحت كلمتي لمن يستحقها.

انسحبت الأحرف بصحبة الهواء من الجلسة تاركة للأعين الحديث، نهض جلال الدين وقد تقبَّضت يداه حتى برزت أوردته بوضوح، بينما ظلت نظرات نصر الجامد مكانه مسلطة فوق ذاك الذي يقف بمواجهته محتقن الوجه يضغط أضراسه حتى سُمع صريرها ومقطب الجبين حتى خُيل للعم عابد بأنه سمع صوت غليان ما، توحشت ملامحه وهو يقطع الصمت متسائلًا:

- مَن هذا الذي تجرأ وأرادها لنفسه؟

ضرب نصر العصا أرضًا بقوة وهو ينهض ليناظره بنفس الخطورة ويجيب متحديًا:

- ليس لك من الأمر شيء يا ابن أخي، ستطلقها رغمًا عنك، أنا لا أعود في كلمتي أبدًا وأنت تعلم.

نهض عابد وقد أصابت توقعاته، نصر الرواي لم ولن يتغير أبدًا، سيظل متجبرًا متسلطًا ويستحق هو وقبيلته كل ما حدث في الماضي.

- لماذا تفعل هذا بنا، لماذا؟!

وبرغم تلك المقولة الجريحة إلا أن حرب النظرات لم تنته، شرارات الغضب تطوف من حولهما تُنذر بالاشتعال، تحولت غرفة الدَيوان إلى ساحة معركة، ليس بها سوى قتيل واحد سقط عندما قال نصر بنبرته الحادة:

- لو كنت تريدها كما تدعي لكنت استجبت لقوانين القبيلة بعد وفاة أبيك، كان بإمكانك وقتها أن تعود، ويعود كل شيء إلى طبيعته، لكنك عنيد مثله تمامًا، رأسك كالحجر!

- أتريدني أن أقف وسط الساحة لأقر بالندم، وأمسح وجهي في ترابها طالبًا الغفران لأبي، اقرأ وثيقة تدين شمس الراوي وأشعل النار في قبره!، ألا يكفيكم أنه مات حزينًا طريدًا في الخامسة والأربعين من عمره!

طرف نصر بعينيه للحظة، لحظة واحدة كانت كفيلة بأن تُهدئ من شراسة نظرات جلال الدين نحوه، إنها برغم هوانها تعني الكثير، الكثير جدًّا، ونصر يفهم ولذلك علا صوته بتشنج محاولًا التغطية على لحظة التأثر العابرة تلك هاتفًا:

- إنها قوانينُنا التي تربينا عليها، دستورنا الذي يحكمنا وينظم الحياة بيننا ويحمينا، ليست من صنعي وليس بالضرورة أن أوافق عليها، لكن تنفيذها واجبي ووالدك كان يعلم هذا لذلك تنازل لي عن مشيخة القبيلة.

كانت جبهاتهما تتقارب كلما ألقى أحدهما ما بجعبته من كلمات قاسية حادة نحو الآخر، وكأنهما قد انعزلا عن الواقع من حولهما في بالون يطوف بهما وحدهما، إلا أن قدميهما لامستا الأرض أخيرًا حينما وضع عابد كفه على كتف جلال الدين مقاطعًا كل ذلك الفيض من الغضب المتبادل بينهما قائلًا بهدوء:

- هيا بنا يا ولدي، أمامنا رحلة طويلة للعودة.

التفت كلاهما نحوه بحدة كما لو كانا قد نسيا وجوده معهما في نفس الغرفة، لكنه أخطأ، وعلم ذلك عندما اندفع نصر باتجاهه دون أن يعير بالًا للطاولة التي دفعها ليصل إليه فسقطت على الفور، انسكب إناء الشاي وتحطمت الأكواب في دويّ مرتفع وتدحرج بعضُ التمور أسفل الأريكة، بينما أمسك نصر بتلابيب عابد يرجه رجًّا وقد فاقه طولًا وضخامة صارخًا به محتقرًا له:

- أيها اللعين، أنت من تقويه علينا كما كنت تفعل مع أخي، لولاك أنت لعاد إلينا منذ زمن وتجنبنا كل هذا الصراع.

انتقل جلال الدين فجأة إلى الدفاع بعد أن كان مهاجمًا من الطراز الأول، حاول تخليص ملابس عابد من بين قبضة عمه وهو يبادله الهتاف:

- اتركه يا عمي، أرجوك، ليس له دخل فيما بيننا.

عاد نصر يصرخ في وجه عابد مجددًا، يقذف الكلمات من فمه قذفًا موجهًا حديثه إلى ابن أخيه الذي يجاهد للفصل بينهما:

- إنه كل ما بيننا، لا أحد يفهم دناءته سواي.

جذب عابد ملابسه بحدة بمساعدة حثيثة من جلال الدين وابتعد للخلف هاتفًا وهو يرفع سبابته محذرًا وقد تلون وجهه بدماء الإهانة التي ذَبح بها نصر كرامته للتو:

- أنا لن أرد الإهانة كرامة لشمس الدين، ولأنني ما أزال أحترم غرفة الديوان التي تربيت بها تحت أقدام الراوي الكبير..

ثم التفت يوجه غضبه نحو رفيقه متابعًا:

- لقد حذرتك، وربما يكون هذا درسًا قاسيًا لتتعلم أن تستمع إليّ فيما بعد.

بعد مغادرته كالصاعقة تاركًا صدى أنفاسهما المتسارعة من شدة الانفعال يعلو ويهبط كنغمة خاصة يعزفانها وحدهما بلا انقطاع ومن دون حضور سوى تلك التي تتخذ موقعًا استراتيجيًّا بجوار الدَّرج، قلبُها يقصف بدوي مكتوم وهي تستمع لما يدور بالداخل بصمت وبجسد عليل ارتفعت حرارته لتوازي ذاك الاشتعال الدائر بالغرفة، وبخاصة والدها الذي يطرق عصاه بالأرض يستشيط غضبًا:

- لا ينقصنا سوى الخدم ليتطاولوا علينا ويغادروا دون إذن وبلا أدب!

أغمض جلال الدين عينيه متألما، الشعور بالخيبة يقتله وينحر الأمل الذي حضر به متمنيًا أن تسير السفن مع رياح أكثر هدوءًا نحو شاطئ حلم دومًا بمرفئه!

- بالإذن.

قالها بتعب وهو يستدير ينوي المغادرة فأوقفته نبرة عمه الهازئة:

- هل ستلحق بموكب خادمك؟

توقف مطرقًا ودون أن يستدير قال وقد أُنهكت روحه تمامًا:

- بل أغادر لأعود، وسأظل أغادر وأعود حتى ترضى.

- أستطيع أن أحبسك هنا، وفي غرفة الخزين كالدجاج حتى تُنفذ ما آمرك به، أم تظن بأنني لن أقدر عليك يا ابن أخي؟

مع كل كلمة كان نصر يقترب منه، نبرته لا توحي بتهديد، بل بخطة تم إعدادها مسبقًا، ولمعة الفهم التي أطلت من عيني جلال الدين جعلته يتأهب لردة فعله، إلا أن تلك اللمعة تبعتها ابتسامة شغوف عبثت بثغره وصبغت عليه هيئة مراهق قديم افتقده بينما يرفع رأسه نحو عمه قائلًا:

- سأسلم نفسي إليك بلا مقاومة، فحبسي أسفل غرفة نومها منتهى أمنياتي!

لم تستمع إلى هتاف والدها بالداخل ردًّا على وقاحته تلك، كانت تبتسم بدهشة هامسة لنفسها:

- الوقح!

***

كانت تلقي نظرة نحو باب غرفة الأسياد ما بين لقمة وأخرى تضعها في فم أولادها، اليوم الثالث على اختفائه بداخلها ولم يخرج بعد، العلامة الوحيدة التي تجعلها تعرف بأنه على قيد الحياة هو صوت تكة الباب التي كانت تسمعها ليلًا عندما كان يفتحه ليسحب صحن الطعام ثم يغلقه بخفوت لا يخفى عليها، الأطفال اعتادوا على اختفاء والدهم بين فينة وأخرى فلم يعودوا في حاجة للسؤال عنه، النهار كله ينتهي في اللعب خارج البيت حول البئر مع بقية الأطفال ثم يعودون للنوم في آخره، كانت قلقة متوجسة ولا تفعل سوى أن تنتظر.

وفي الليل، وبعد أن اطمأنت إلى استغراق أطفالها في النوم، أغلقت بابهم، ودلفت إلى غرفتها لتطفئ بعض الشموع الكبيرة وتترك أخرى ثم تُمسك بمقبض مرآتها الدائرية لتنظر إلى كحل عينيها، تصرفات روتينية تفعلها دون تفكير، فعقلها منشغل تمامًا بينما أذناها تلتقطان كل شاردة وواردة هنا وهناك.

وضعت المرآة وخرجت إلى بهو البيت بتردد وهي تفكر في طرق بابه، ظلت تقطع البهو ذهابًا وإيابًا ممسكة بخصرها، وطرفُ جلبابها الأحمر يدور معها متخبطًا بساقيها بينما الأفكار أكثر تخبطًا وتتصارع بعقلها حتى توقفت أخيرًا وقد قررت أن تطرق بابه لمرة واحدة فقط، تحركت ببطء حتى وقفت هناك وعندما رفعت قبضتها المضمومة سمعت صرخة خشنة تأتي من الداخل، تبعها صوته متضاعفًا كأنه خارج من مكبر للصوت وهو يشتم ويسب.

تراجعت ليلى للخلف بخطوات سريعة ثم استدارت لتغادر ولكن صوت فتح الباب أوقفها للحظة قبل أن تدور على عقبيها بلهفة تعاينه، بدت

منها شهقة وخطوة كبيرة للخلف عندما رأت حالته التي خرج بها، لقد اعتادت هيئته التي يفتح الباب بها كل مرة، إلا أن هذه المرة مختلفة، وكأنه خرج من معركة للتو، وكأن عينيه صُبغتا بالأحمر القاني مهدل اليدين يجر عباءته من خلفه، شعره مشعث وبشرته كالحة كما لم ترها من قبل:

- ماذا حلَّ بك؟!

همست بها بوجل، فلم يجبها، اكتفى بتحريك رأسه بلا شيء، تاركًا عباءته تسقط أرضًا سائرًا كالمُنَوَّم في اتجاه الحمام، مر بها فاقشعر بدنها رغمًا عنها وأشاحت بوجهها بعيدًا في تقزز من رائحته.

ألقى عليها نظرة لا مبالية بينما يسير في طريقه، ظلت تتابعه بعينيها في دهشة، كان كل مرة يخرج بهيئة مقاربة إلا أنه كان أكثر تجبرًا وكأنه كرة مشتعلة من النار تهدد بحرق كل من يقترب منها، هذه المرة مختلفة وكأنه مخذول!!

تبعته بحركة رتيبة وقبل أن تلحق به سمعت الباب يُطرق بطرقات سريعة فأسرعت نحوه لتفتحه حتى لا يستيقظ الأطفال، أطلت عليها امرأة مذعورة باكية حتى النخاع، لتنكب على يديها تقبلها هاتفة بصوت بُحّ من كثرة البكاء والعويل:

- أنجديني يا زوجة سيدنا، بناتي أبحث عنهنَّ منذ الصباح ولا أثر لهنّ حتى الآن .

بالكاد فهمت ليلى ما تقوله المرأة؛ فعقلها مشتت في اتجاهات عدة، إلا أنها أجابتها وهي تحاول لململة أفكارها المبعثرة هنا وهناك:

- أم عمار، سيدنا في الخلوة، أخفضي صوتك؛ فالأولاد نيام.

لم تترك أم عمار يدها بل انهالت عليها أكثر تقبيلًا ، بينما ليلى تحاول سحب يدها بتقزز وهي تنهرها بغيظ مكتوم بينما الأخرى لا تتوقف عن النحيب متوسلة:

- أرجوك، يا تاج رأسنا ، ارحميني وأدخليني إلى سيدنا فهو وحده مَن يستطيع إيجادهنّ، أخشى أن يكنّ قد ضِعْنَ في الغابة، لقد بحثت عنهنَّ في كل مكان، لا أمل لي سواكما.

دفعتها ليلى ببعض العنف لتتخلص من تشبثها بها ، صارخة بوجهها:

- ابتعدي عني.

تراجعت أم عمار للخلف خطوة على أثر الدفعة ثم انهارت على ركبتيها أمام عتبة الباب قابضة على طرف وشاحها الأحمر القاني وهي تنحني للأمام بذُل راجية:

- أتوسل إليكِ، أدخليني، أريد بناتي وسأفعل ما تأمرينني به، قلبي سيتوقف منَ شدة الخوف عليهن.

أتبعت كلماتها بنشيج طويل وشهقات أطول، بينما ليلى تختلس النظر نحو الرواق المؤدي إلى الحمام ثم تعود بعينيها إلى أم عمار ثانية وهي تضغط أسنانها ، تنحني بجذعها نحوها وهي تمسك بكلتا كتفيها لتخبرها بما جعلها تتصرف في الحال دون أن تنبس بكلمة واحدة .

❋ ❋ ❋

اندس سلطان في الفراش بجانبها تاركا كلتا يديه مستلقيتين بجواره باسترخاء يناظر سقف الغرفة دون أن يقوى على إغماض عينيه، تحدقتا رغمًا عنه في نقطة مجهولة ممتدة من ظل الشموع الكبيرة المصفوفة على الجانبين وهو يهمس بتعب:

- لم يخبروني!

التفتت نحوه برأسها لتتأكد من أنه كان يحدثها وتسأله بهمس:

- بماذا ؟!

وبرغم من أنه لا يريد البوح، إلا أنه تحرك لسانه بما يعتمل بداخله:

- يفرضون أحكامًا جديدة، إن لم أفعلها فلن أعرف شيئًا مما أريد.

عادت تبادله الهمس مجددًا:

- ماذا تريد أن تعرف ؟!

- الكثير.

- مثل ماذا ؟!

أرسل تنهيدة طويلة شاعرًا بقواه تخار، يحارب قوة مجهولة لم يجابهها من قبل، أطبق جفنيه على أشواك تنغزه وبمخيلته طريق طويل مظلم ينتهي بأحدهم تخفيه الظلال فلا يكاد يتبينه .

التفتت ليلى تستلقي على جانبها باتجاهه متوسدة يدها، اقتربت منه ببطء هامسة في أذنه مكررة سؤالها:

- مثل ماذا ؟!

تحرك لسانه ثانية وسؤالها يجذبه من الطريق المظلم ليتكلم بما يموج به صدره في حضرتها التي تشبه حضرة الأسياد .. أجابها بخفوت:

- الحاكم يقصيني، أعرف هذا جيدًا منذ عصر يوم الحصاد وهو لا يستطيع فعل ذلك إلا إذا كان يختبئ خلف قوة أخرى أكبر مني، أريد أن أعرف، لكنهم لا يخبرونني من هو، لا يوجد أمامي سوى أن أستجيب لشروطهم.

رفعت يدها الحرة ولمست بها كتفه برقة وقد أطل الحنان من عينيها تجدد همسها بنبرة قلقة:

- لا تفعل، أخاف عليك يا أبا الأولاد.

هدأت أنفاسه وانسابت بانتظام وقد سقط فجأة في نوم عميق حرم منه لثلاثة أيام كاملة .

❋ ❋ ❋

نهار اليوم التالي لم تفتح عينيها مرتعبة كما كانت تفعل في سابقه، بل متوترة حذرة تبحث عنه بالحجرة الكبيرة حولها، لقد تركها ليلًا وقد استطاع أن ينقل إليها حيرته، فبعد أن كان سؤالها الأبدي أين أنا، أضافت إليه سؤالًا آخر.. من هو؟!

الأزمة تتضاءل تدريجيًّا عند مشاركتها مع آخرين، وتخفُّ وطأتها عندما يظهر من هو أكبر منها، فإن كانت على يقين بأنها شؤم وغير مرغوب بها فهناك من لا يعلم ماهيته من الأساس، وإن كانت مسجونة في قصر يعج بالأشباح ليومين، فهناك آخر سجن فيه لسنوات !!

ألم يخبرها بأنه رآها وهي ابنة السنوات العشر عندما كانت ضائعة عند سور القصر المتهدم !

التساؤلات تحل مكانها علامات استفهام أخرى أكبر منها، ينحسر الخوف مع مدها وجزرها وقد اكتملت بلا إجابة واحدة.

صحن تفاح آخر مستقر عند طرف الفراش الأرضي، زجاجة من الماء، وسؤال جديد يطرق عقلها وهي تتمعن به .. لماذا دائمًا تفاح، هل لهذا علاقة بقصة شجرة التفاح المخيفة التي نبتت وحدها دون رعاية بعد الحريق؟ هل تتغذى منذ يومين على ثمارها الملعونة كما كانت أمها ونساء البلدة ينعتنها ؟!

نفضت رأسها سريعًا وهي تحدق في الصحن بتوجس وتعيد ضرب قدميها من جديد، ما تزال بلا حراك لولا بعض الوَخز بها لظنت أنها فاقدة للحياة، بعزيمة وليدة اعتمدت على يديها تحرك جسدها وتزحف بحرص حتى لا يصدر عنها صوت تتلفت بالأرجاء حتى وصلت إلى باب

الغرفة، اكتفت بأن تبقي جسدها بالداخل وعبرت برأسها محاولة اختراق الضباب المخيم على الرواق يمينها، تمعنت النظر فيه .. طويل جدًّا وكأنه لا ينتهي، الجدران أكثر رمادية مما هي عليه بالداخل، وتلك الصورة الكبيرة جدًّا المعلقة على الجدار المقابل لغرفتها مائلة نحو اليمين وكأن أحدهم كان يدفعها في أثناء هروبه نحو الدَرج، زجاجها متحطم وإطارها المذهب متفحم كبقية الطاولات الصغيرة الموجودة بأسفل الجدار، يبدو أن الطابق الأعلى لم تأكله النار بشكل كامل، لم تستطع نظراتها اكتشاف المزيد، مجرد جدران ممتدة تسكن العناكب زواياها، أرضياتها كالغرفة التي كانت بها للتو مكسوة بسجاد متفحم هش .

وبرغم الضوء القادم من نافذة الغرفة إلا أنه لم يستطع أن ينال من الظلام سوى أجزاء بسيطة من الدرج الملتف نحو الأسفل المقابل لها من جهة اليسار.

زحفت قليلًا للخارج وقد بدأت ضربات قلبها تعلو أكثر فأكثر، أصبح جسدها بالكامل متجهًا بخطى حثيثة نحو الدرج، حتى اقتربت من حافته، وبتلصص مدت رأسها بين أعمدة سوره المخروطي الشكل، بدا لها البهو بعيدًا جدًا فلم تتبين سوى الباب العريض الرئيسي للقصر والتي تهالكت أجزاء من ألواحه لتمر الأشعة من خلالها متناثرة على مساحة البهو الكبير لتضفي عليه مظهرًا مخيفًا أكثر مما هو عليه في الحقيقة .

وبينما تتقاذفها المخاوف سمعت صريرًا لباب آخر آت من منتصف الرواق تقريبًا، خطف الصرير نبضات قلبها وهربت الدماء من عروقها كاتمة شهقاتها، تتحرك سريعًا وبرعب عائدة إلى الغرفة مجددًا وأخذت تنهت من فرط الانفعال والحركة السريعة حتى دلفت إليها مستندة بظهرها إلى الحائط المجاور للباب، شهقاتها المكتومة تشق الصمت المرعب بصحبة الصرير المزعج القادم من الرواق وتهمس لنفسها لتهدئ قفزات قلبها المجنونة:

- ربما الهواء يدفع الباب، لا تخافي هكذا، اهدئي .. اهدئي

اختفى الصرير رويدًا رويدًا حتى توقف فلم يتبق سوى أنفاسها المسروقة التي استعادتها للتو وبدأت تدفع جسدها مجددًا إلى حيث مخبئها خلف السرير وعندما استقرت هناك تكومت على نفسها بانتظار ما سيحدث.

مر الوقت بطيئًا عليها بينما عقلها يعمل بلا توقف يستعيد مرة بعد مرة تفاصيل ما رأته بالخارج، تحدثها نفسها بالهرب وقد اكتشفت أن باب القصر قريب لا يفصلها عنه سوى نزول الدرج فقط.

- تشجعي يا سلام، ماذا سيصيبك أكثر مما أصابك ؟!. ازحفي ببطء إلى الأسفل ومنه إلى الخارج ثم يحلها الحلّال فيما بعد.

استعادت ذاكرتها فجأة تلك الصورة الكبيرة التي رأتها على الجدار المغبر

صورة لعائلة يبدو عليها الفخامة والغنى، يظهر ذلك من نوعية ملابسهم التي لم يعد أحد يرتديها، والحلى الذي تتزين بها المرأة الجميلة الجالسة بجوار رجل أشهب له شارب كبير ولحية يخفيان نصف وجهه تقريبًا، نظراته حادة، يقف خلفهم أربعة من الذكور في مرحلة الشباب لهم نفس النظرة الحادة، بينما المرأة تحمل على قدميها فتاة صغيرة ربما في العاشرة من عمرها أو أقل ترتدي فستانًا ورديًا وكذلك الأطواق الكثيرة التي ترفع به شعرها القصير، حتى الصغيرة تشبه الرجل الأشهب مثل بقية الذكور في الخلف، ولها نفس النظرة الحادة والوجه العريض، إلا أن المرأة وحدها التي لم تكن تنظر إلى من يلتقط الصورة، وإنما نظراتها مصوبة فوق الطفلة في زهو وحب وتعلق شديد للغاية وكأن الدنيا كلها انحصرت عندها هي فقط، حجر الزاوية الوردي الذي به تكتمل الصورة المثالية للعائلة .

لم تأكل أي شيء منذ الصباح، توقفت الدنيا بها عند التفكير في كيفية الهرب وتفاصيل الصورة الغريبة، حتى جَنّ عليها الليل وزادت وتيرة الخوف ثانية وفعل عقلها ما يجيده آخذًا إياها في رحلة غيبتها عن الواقع الذي تخشاه، لم تعلم كم غفت إلا أنها استيقظت ولم تكن الشمس قد طلعت بعد، والليل الطويل لم ينتهِ بينما ضوء القمر يشي بوجود أحدهم معها في الغرفة.

- لم تأكلي!

تحرك رأسها تلقائيًا تجاه الصوت تسحب معه شهقة ضعيفة توقف عن حدود رؤيته، على نفس هيئته السابقة لم يتغير به شيء، مستندًا إلى حافة الباب مُرسلًا كلتا يديه إلى جواره، نظراته المستكشفة لم تتغير، ما تغير هو نظرتها هي، باتت تستكشفه كما يفعل وتراقب تفاصيله، بل وتجمع أوجه الشبه بينه وبين من شاهدتهم بالصورة الكبيرة، لكن الضوء الخافت لم يساعدها كثيرًا.. همست بحذر:

- أريد الخروج من هنا.

مال برأسه وهو يقطب جبينه وطرأ على نظراته الدهشة ويمشي ملتفًا حول السرير ببطء حتى وقف قبالتها قائلًا:

- إلى أين؟!

اغرورقت عيناها بالدموع وقد أثار سؤاله أوجاعها الحقيقية وهي تجيب بنظرات تائهة متفرقة هنا وهناك:

- إلى أي مكان!

تحرك ثانية نحو فُرشها الأرضي يطأه بقدميه فندت منها شهقة أخرى بينما تبتعد ملتصقة بأرجل السرير ولكنه لم يأبه بذعرها، جلس

إلى جوارها مستندًا إلى الحائط نفسه ممدًا قدميه فوق الفُرش إلى جوار قدميها ينظر أمامه بملامح جامدة ثم قال:

- هنا أفضل من أي مكان.

ابتلعت ريقها برهبة من قربه واقشعر جلدها وهي تكتشف الشبه الكبير بينه وبين الرجل الأشهب بالصورة قائلة بنبرة خفيضة:

- ماذا تعني؟!

زم شفتيه ورفع كتفيه ثم أنزلهما ثم قال بأريحية وكأنه يتحدث عن الطقس:

- أعني أنكِ بأمان.. ما دمتِ بعيدة عن جنس البشر.

شعرت بجذور خصل شعرها تقف كالمصعوقة، ولوح من الجليد يمر عبر عمودها الفقري وهي تحدق فيه بفهم ضرب أرجاءها بمقتل وقد أوحت لها كلماته بأنه ليس بشريًا، بل ويكره جنس البشر.

❁ ❁ ❁

ليومين متتاليين حبيسًا لا يخدمه سوى الصبية الصغيرة التي تدلف إلى حجرة التخزين لتعبأ في صحن عميق بعض البذور والحبوب المُخزنة في صوامع الغِلال الفخارية والمجهزة بفتحات أسفلها دون الحاجة إلى استخدام فتحَاتها العلوية، وما يسقط منها تلتقطه الدجاجات كوجبة شهية، وبعد ساعة أو أقل تأتيه بالطعام والماء، غير مسموح له بالذهاب إلى دورة المياة إلا لمرة واحدة ليلًا في حضرة عمه الذي ينتظره في الخارج على مسافة منه بعيدة يراقبه بتحذير ووجه قاس وهو يُلقي عليه الأمر اليومي المتكرر بالحزم نفسه وكأنها المرة الأولى:

- طلِّقها وعُد من حيث أتيت.

فترُد عليه نفس الابتسامة العالقة بثغره دومًا لم يختلط بها سوى بعض الملل وهو يكرر نفس الإجابة:

- لقد أحببت الدجاجات ولا أريد فراقها!

فيُشير عمه بيده إلى الفتاة لتعيده إلى حيث حبيبته وتغلق الباب خلفه بالقفل الحديدي الكبير.

إنها نزهة بالنسبة له وليس محبسًا على الإطلاق، يختلي بنفسه ليصلي ثم يمارس شعائره المعتاده، وعندما يفرض الصمت سطوته وتهدأ الأصوات في الخارج، يُنصت بانتشاء وهو يستمع إلى صوت خطواتها في غرفتها العلوية ويبتسم!

تتمشى بخفها المنزليّ داخل الغرفة ذهابًا وإيابًا بهدوء وبطء لأوقات لا يريد عدّها، تتوقف، وتسيرلخطوات أخرى، ثم تعود إلى المنتصف، يعلم بأنها تتواصل معه، تحدثه وتؤنس وحدته فيفترش الخيش الذي

ينام فوقه واضعًا كلتا ذراعيه أسفل رأسه وينظر للسقف، يلثم الحروف لثمًا فيُدغدغُها لتهرب من بين شفتيه راقصة على أطرافها ضاحكة منه وعليه!:

- ليتك تُجيدين حبي كما تُجيدين تعذيبي.

أغمض عينيه لعدة ساعات قبل أن يوقظه نقر الدجاج لساقه، الديك الوحيد يصيح وهو يدور بينها نافشًا لريشه البنيّ المائل للأحمر وكأنه قد ضاق ذرعًا من وجود ذكر غيره في نفس القفص!

نهض بكسل وهو يشعر بألم في عموده الفقري وفقرات عنقه التي أدارها بحركة سريعة فأصدرت طقطقة أراحته بعض الشيء بينما يجلس متربعًا وبعين نصف مفتوحة يراقب دوران الديك بين دجاجاته قبل أن يتكلم مازحًا يحدث رفيقه بينما ينهض ليقف متأوهًا:

- لا تكن غيورًا هكذا يا رفيق؛ فأنا قلبي مشغول!

اقترب لينظر للأعلى من خلال الطاقة العلوية المستديرة التي تسمح بتجدد الهواء داخل الحجرة كما تسمح له برؤية السماء بزاوية منها، دقق النظر ليتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر بصعوبة من تلك الطاقة المفتوحة الصغيرة، ثم التقطت مسامعه دقتين آتيتين من سقف الغرفة، تتوقف لثانيتين، ثم تدق مرة أخرى، كررتها لثلاثة مرات فعلم أنها تخبره أن ركعتي الفجر قد آن أوانهما، شفرة لم يتفقا عليها يومًا، كل ما تفعله هي أنها فقط تجتهد .. وهو يفهم! لغة لا تجيدها الكثير من الحروف والمناقشات والخطط!

كما كان الحال قبل أن يتزوجا، لم يُصرح لها يومًا عن مشاعره، ولم تمنحه ما يجعله يتأكد من تبادلها، إلا أنه ذهب ليكلم أباها وهو على يقين من موافقتها! لم يكن بينهما شيء، لكن بين قلبيهما الكثير!

لساعة ونصف جالسًا بعد ركتي الصبح يرفع وجهه للسماء يتمتم بأذكاره ويراقب طلوع الشمس موليًا ظهره للباب، لم يلتفت حتى وهو يسمع صوت تحرك القفل من الخارج، تسلل السأم إليه وذاكرته تُعيد له نفس المشهد كل يوم لنفس الفتاة المضطربة التي تأتيه في مهمة مستحيلة لجمع الحبوب ثم إطعامه.

- صباح الخير.

استدار ناهضًا عندما ألقت صباحها متفاجئًا بحضورها المباغت:

- خديجة!

استندت بظهرها إلى الباب الذي أغلقته بعد دخولها فورًا وعقدت ذراعيها متكتفة وتواجه نظراته المتعجبة بنظراتها القوية الواثقة، لم تمنحه الكثير من اللحظات ليستوعب وجودها غير المتوقع معه بل قالت على الفورمتعجلة:

- هيا لتخرج من هنا.

عقد حاجبيه وقد بدأ يستعيد تركيزه مجددًا لثوانٍ قبل أن تشق فمه ابتسامة عبثية وهو يُعاين تفاصيلها بإمعان من أسفل لأعلى بجلبابها الأبيض الفضفاض الذي ترتدي فوقه الجرجار وهو ثوب أبيض شفاف بنفس لون بياض جلبابها إلا إنه أكثر طولا منه حتى يكاد يمس الأرض ويحتك بها، بينما الوشاح الأبيض كذلك يدور كاستدارة القمر حول جذعها وينتهي فوق رأسها فيخفي شعرها المعقود بإحكام خلف رأسها فلا يُظهر منه شيئًا، أنفها الشامخ المرفوع يتحداه وملامحها التي تحاول أن تصبغها بالجمود وهي تواجهه بعينيها اللتين تحددهما بخيط رفيع جدًا من الكحل يستفزه ليكتشفه، ساكنًا فوق رموشها لا يكاد يُفارق وكأنه جزء لا يتجزأ من خيوط سوادهما الطويل.

- هل هذا ثوب أمكِ؟

ضحكت ساخرة وهي تبادله المشاكسة بالقول:

- كما ترتدي أنت ملابس أبيك!

تأوه باسطًا كفه فوق قلبه فحركت رأسها وزمت شفتيها مدعية الحنق محافظةً على نبرتها القوية الخفيضة قائلة:

- لا وقت لحركاتك تلك، يجب أن تخرج الآن.

وكأن الابتسامة قد نُحتت فوق فمه، اقترب منها حتى وصل إلى حافة الباب المُغلق مستندًا هناك مستكينا مُدعيًا كعادته للبراءة، يلومها متسائلًا:

- لماذا لم تأتي في موعدنا كما وعدتني؟

تخلى ظهرها عن الباب واستبدلته بجانبها لتواجهه وترد بحنق حقيقي هذه المرة:

- أنا لم أخلف وعدي معك، طوال السنوات الماضية كنت آتي إليك في كل موعد بلا تأخير، والغابة تشهد يا جلال؛ فلا ترمِني بتلك التهمة زورًا وعدوانًا.

حك شعيرات ذقنه النابتة بتسلية، إنه يعشق تلك الطاقة والعناد التي تشع منها عندما يستفزها ويسند إليها فعلًا ليس من شيمها، خديجة كلمتها كالسيف على رقبتها مثل الرجال تمامًا كما تحب أن يصفها الجميع، هي تعلم بأنه يثير حنقها قاصدًا وبرغم من ذلك تستجيب وتفور دماؤها الحرة في أوردتها على الفور لتنفي جميع التهم، ربما ذلك له علاقة بالوراثة!

- اهدأي يا حُب.

تخصرت وهي تزفر متمتمةً بالاستغفار مغمضة عينيها، وتلصق ظهرها بالباب ثانية، دقيقة واحدة معه أصابتها بالإنهاك، فكيف لو جمعتهما دارٌ واحدة، هل سيحرقونها؟!

- ألا تشعر بالخطر مما قاله لك أبي في الديوان؟

نبرتها المتشنجة جعلته يترك الحافة ومعها ذاك المراهق الذي كان حاضرًا بقوة بينهما منذ لحظة واحدة، وقف متصلبًا ينظر إليها بتركيز وعقله يستدعي تلميحات نصر الراوي عن رجل آخر يردها زوجة، وتساءل:

- إذن لم يكن مجرد كلامٍ في الهواء! هل أخبرك عمي من هو، هل تعرفينه؟

ما تزال تغمض عينيها، فقط حركت يديها لتعقدهما خلف ظهرها هامسة:

- لم يخبرني، لكن منذ أيام ومسامعي تلتقط ما يدور حولنا في الديوان، القبيلة كلها تتكلم، يقولون بأنني قد كبِرت وما هي إلا أيام وأعبر إلى عامي الحادي والثلاثون ولم يعد أمامي فرص كبيرة لأنجب أحفادًا لعائلة الراوي، تعلم يا ابن عمي وضعنا الصعب منذ قتل إخوتي وشباب القبيلة عام الفتنة، الإنجاب لم يعد رفاهية أو مطلبًا أسريًّا يفكر به زوج وزوجة، الإنجاب بات فرضية حينها، وأنا ابنة شيخ القبيلة والوحيدة والعيون كلها تتجه نحوي، هذه الأحاديث ضربت أبي في مقتل وجعلته يتخبط في قراراته ورجال العائلة يجتمعون عليه ويطالبونه بحل أمرنا.

عندما طال صمته فتحت عينيها لتلتقي بنظراته المتهمة لها والمتسلطة عليها تجلدها وتتهمها ضمنيًا، فعقدت حاجبيها تتفرس فيه قائلة بنبرة متشنجة منفعلة:

- للمرة الثانية تتهمني بالرجوع في كلمتي، أنا أُطلعك على ما يجري حتى لا تظلم أبي وليس معناه أنني موافقة على ما يريدونه!

خرجت الكلمات منه ميتة لا روح فيها وهو يقول:

- لماذا جئت الآن؟

أوجعها صوته الفاتر وسؤاله أكثر مما فعل اتهامه، ذاك الوجع حرك الأنثى بها والتي تختبئ في عقل رجل يطالبها دومًا بالتصرف بالحكمة لأنها ابنة شيخ القبيلة ويجب أن تكون على قدر المسؤولية لا مجرد فتاة تحركها المشاعر، حررت إحدى يديها السكانة خلف ظهرها ولمست بها ذراعه وهي تطرف بعينيها لأسفل قائلة:

- جئت لأُخرجك من هنا قبل عودة أبي.

اللمسة حطت على قلبه مثل فراشة ضائعة، ناعمة بسيطة ومؤثرة، قادرة على فك عقدة حاجبيه وتركهما مرتاحين بلا تشنج، جاذبة تحركه رغمًا عنه خطوة نحوها، سحابة تغطي عقله وتجعله يقول بتملك:

- ستأتين معي، هذه المرة لن أغادر وحدي.

ابتسمت بتفهم وقد بدأ هدير عقل الرجل بداخلها يعمل من جديد:

- لم يهن عليّ أبي وهو في عز قوته وعنفوانه وقهره لك ولي، فهل يهون عليّ الآن وقد كبِر وبدأ يتخبط ويحارب طواحين الهواء لأجلنا!

رفع حاجبيه ونطق بفهم لكلماتها الأخيرة التي أشعلت مصباحًا كان مطفأ في عقله فجأة:

- هل عمي هو من طلب منكِ أن تهربي؟!

لم تجبه، حررت يدها الأخرى وعدلت به وشاحها المثبت برأسها، تلك الحركة التي تخبره بها دومًا بأنها لا تريد الإجابة أو الرد حتى لا تكذب، فابتسم بخفة وقد طغت الدهشة على صوته وهو يقول:

- كيف لم أفكر منذ دخولك إليّ، عمي هو من أرسلك..

قاطعته على الفور تمنحه كل الإجابات التي يبحث عنها:

- لقد وعدهم أن يتخذ معك اللازم حتى لو اضطر لحبسك وتعذيبك.

ندت عنه ضحكة صغيرة خافتة وهو يتابع بالنيابة عنها ما ترفض هي الإفصاح عنه:

- فحبسني في غرفة التخزين وعذبني بنقر الدجاج ليكون قد وفّى بكلمته معهم!

لفت الخيوط المنسدلة من طرف وشاحها حول سبابتها تتلاعب بها وتناظره بلؤم ساخرة:

- بينما لعبت أنت دور السجين المغلوب على أمره، رجال عائلة الراوي يعرفون كيف يلعبون مع بعضهم البعض بلا اتفاق مسبق.

- ونساؤهم كذلك يا حُب.

رَفعتْ نظرَاتها إليه بفخر يتناوب على ابتسامتها مع الخجل كلما حدثها هكذا، وكأنها كل ما يملك، لا يحيد عنها بنظراته، وكأنما هي من علَّمته النظر! كما علَّمته كيف يحتمي بدفء لقاءاتهما المتكررة من الغربة التي تضرب بصقيعها أرجاءه، ولأجل ذلك تحمَّل في بُعدها وَصبًا ولقي ما لقي من الفراق نصَبًا، لم تخشَ عليه من السِحر وكأنما تغار على سِحرها أن يكون إلا الأعلى!

❋ ❋ ❋

لم يكن لديه الكثير من الوقت لينفذ أمر عمه غير المباشر ويرحل قبل أن يعود إلى الدار، إلا أنه لم يشأ أن يذهب دون رؤية جدته لأبيه، ومنحته خديجة خمسة دقائق معها قبل أن يغادر مصاحبة إياه إلى غرفتها التي تشبه جميع غرف الدار لكنها مميزة بعبق الماضي، هكذا شعَر وهو يتنفس بعمق رائحة يديها ويقبلهما بلهفة واشتياق، بينما هي تميل باتجاهه مستلقية على سريرها وقد أقعدها المرض منذ أن حطت بقدميها على أرض تلك البلدة بعد تهجير قبيلتها إليها، انتزعوها من بلادها عَنوة بأمر من المحكمة ومنحوهم أرضًا بديلة على ضفاف داو .

عندما رفضوا الحُكم في البداية وحاربوا بكل الطرق الممكنة ليحتفظوا ببلدتهم الأم اتهموهم بالخيانة وعدم الحرص على مصلحة الدولة، فباطن أرضهم تحوي الكنوز بينما البيوت والمزارع تُعيق فرق البحث والتنقيب ولا بد من هدمها والتخلص منها، وبعد سنوات العَنت، جاء تنفيذ حكم المحكمة بمنتهى السرعة والقسوة، وأرسلوهم عبر البواخر إلى داو بصكوك ملكية تعوضهم عن أرضهم، إلا أنهم اكتشفوا عند مجيئهم أن تلك الصكوك لا تثبت سوى حيازة أراض مملوكة بالفعل أبًا عن جد لآخرين من علية سكان داو الأصليين، ووجدوا أنفسهم محاصرين في العراء بين الماء والصحراء وأهالي البلدة الذين ينظرون إليهم كغزاة محتلين! فشلت كل المفاوضات بينما علا صوت السلاح بأنواعه.

- اشتقت إليكِ يا حاجة وسيلة.

مال نحوها يساعدها على احتضان رأسه فلثمته وهي تجيبه بصوت خفيض مرتعش من أثر المرض:

- لمَ غبت عنا يا شمس يا ولدي!

رفع رأسه بهدوء يتبادل النظرات مع خديجة التي تجلس على طرف الفراش والتي مدت يدها في الحين تمسد بها على قدم جدتها وتصحح لها بابتسامة عارفة بحالتها المرضية:

- إنه جلال الدين يا جدة، ابن عمي شمس.

تمعنت الحاجة وسيلة بعينين مغضنتين في ملامحه الفتية وهي تمرر راحة يدها فوق صفحة وجهه مُرددة وراءها:

- جلال الدين ابن شمس، لقد كبرت يا ولد!

ضحك بخفة وهو يعاود لثم كفها بقلب محترق صار يئن وقد اجتمع الحنين عليه ليذيبه كلية عن آخره ويصهر المقاومة في دقاته، تلكما اليدين التي تتفقد ملامحه محاولة تذكرها كانت هي نفسها من تحممه وتُلبسه بنفسها ملابس العيد ليخرج بصحبة أبيه ورجال القبيلة للصلاة بينما هو طفل لم يتعدَّ السادسة وأمه الراحلة تقف بعيدًا متذمرة لنزع حقها في تحميم ولدها وتجهيزه للاحتفال، لا تزال رائحة الحنة الحمراء تغمر باطن كفها الممتلئ بالخطوط المتعرجة، ويكاد يجزم أن قدمها كذلك تتلون بالحناء، إنها تحب الحناء مثلما يعشق هو خديجة!

- هل أنت قادم لأجل جلسة الصُلح ؟

أظلمت النظرة في عينيه فجأة وقد دفع سؤالها ذاكرته للخلف دفعة قوية أسقطته بالضربة القاضية جعلته يتأوه للذكرى الحاضرة بينهم التي تفرض سطوتها على عقول ثلاثتهم وقلوبهم، تعزلهم عمن حولهم بينما تسترسل الجدة في هذرها الفاقد للزمن متابعة بحنين بالغ:

- قال أبوك: إن جلسة الصلح على ضمانته الشخصية، وبأنه متأكد من نتيجتها، أنا صدقته وكذلك جدك ولكن عمك ورجال القبيلة

رفضوا بشدة وقالوا بأن أهل تلك البلدة أهل سوء ولا كلمة لهم وبأنها خدعة، لم يشأ جدك أن يخذل شمس ووافق على عقد الجلسة ومرر كلمته على رقاب الجميع.

اُحتُجزت عيناها بعيدًا عنهما نحو تلك الصورة المؤطرة الكبيرة المعلقة على الحائط بمواجهة فراشها والتي تضم زوجها وبجواره كلٌّ من ولديه شمس ونصر ومن خلفهما أحفادها بمراحل أعمارهم المختلفة، يرتدون جميعًا الزي الرسمي للقبيلة بلونه الأبيض المميز، فهمست تُحدث سُكان الإطار وتسألهم:

- بشروني، هل وقعتم على اتفاقية الصُلح؟

رفعت خديجة يدها تمسح دمعة عابرة طفت رغمًا عنها وسالت على ليونة وجنتها تحفرها بعذاب، وقالت بابتسامة لا تصل إلى عينيها:

- ارتاحي الآن يا جدة واسمحي لحفيدك بأن يذهب فلقد تأخر للغاية

نطقت كلمتها الأخيرة وهي تنظر له بأن يتعجل، فارتكز على ركبته لينهض ولكن وسيلة عاجلته متسائلة:

- يذهب إلى أين؟ ألا يزال يدرس في المدينة؟!

عاد يستريح على كفه مستندًا إليه بينما يتناول كفها باليد الأخرى وقد دب الوهن في جسده فقال بتنهيدة متعبة:

- لم يعد أحد يذهب للمدينة يا جدة، الناسُ هناك عطشى بعد جفاف مياههم، ويعيشون على المياه الجوفية، نفدت معظم مصادر الطاقة لديهم والمتبقي منها يذهب لعِلية القوم، وَباتت الإلكترونيات لا قيمة لها الآن، ..

نظرة خديجة الحادة أوقفته كقطار ضغط سائقه المكابح فجأة، لقد تكلم زيادة عن اللازم وصار يحكي حكايات لا شأن للحاجّة وسيلة بها، تنحنح يبتلع الحروف المتبقية في حلقه ثم استطرد معتذرًا:

- لقد صدعت رأسك الجميل جدتي، فاسمحي لي بالانصراف.

تأمتله لبرهة بحنانها الطاغي قبل أن تُغمض عينيها باسترخاء هامسة:

- ليتنا نعود إلى بلدتنا الأولى، حيث الشجر والضفاف

انتظمت أنفاسها وأرخت كفها في كفه فانحنى يقبلها برقة قبل أن ينهض بهدوء، أشارت خديجة له بأن يتبعها ولكنه سبقها مستوقفًا إياها أمام المرآة التي تنتصف الغرفة:

- ألن تُغيري رأيك بعد؟

تنهدت بيأس وهي تلتف نحو المرآة تناظر انعكاس صورتها بتمعن لتحادثه فيها:

- لم أفعلها وأنا شابة صغيرة!

ارتكز بذقنه إلى رأسها من الخلف ممسكًا بكلتا ذراعيها وهو يبادلها النظر بالمرآة:

- لم تكبري بعد

- للمرآة رأي آخر!

- منذ متى والمرآة تشوش عقل سيد الرجالة!

ندت عنها ضحكة خافتة لها لحن يشبه الأنين بينما تعلق على مزاحه هامسة:

- الكلام الدائر حولي يؤلمني وكأنني عانس عجوز يشفقون عليها ويتهمونها في نفس الوقت حتى بدأت أنظر لنفسي في المرآة وأرى علامات عجز لا أعلم هل هي حقيقة أم صنع خيالي الذي بات خصبًا هذه الأيام!

ترك كتفيها وقمة رأسها وانحنى يستند بذقنه أعلى كتفها ويضمها إليه دون أن يترك عينيها في المرآة قائلًا:

- بينما تجتهدين في مراقبة آثار السنين على وجهك وجسدك أتأملُ أنا تلك التاء المربوطة في نهاية اسمك وأسأل: هل قُيدت الأنوثة هناك فلم أعد أرى الأنثى إلا فيكِ يا حُبَ؟!

ثارت مشاعرها تاركة العنان لدموع الامتنان تنهمر، والتي لا تُفرّج عنها سوى ضمته تلك وكلماته التي لا تعرف من أين يستقيها، فائرة نبضاته الصاخبة، تشعر بها تضرب ظهرها لتخبرها بأنه هو أيضًا يعاني بصمت، عبّرت عما يدور بداخلها وقالت متسائلة:

- من أين لك بتلك الكلمات؟! لن أستطيع مجاراتك أبدًا.

راقبته يُغمض عينيه لوهلة ثم يفتحهما ليُناغشها بالقول:

- يكفي أن تحتويني بحلّة محشي!

ارتفعت ضحكاتها مع حاجبيها متعجبة من تنقل مشاعره من خانة إلى أخرى بتلك السرعة المدهشة وهي تستدير لتستكين بين ذراعيه هامسة:

- أنت لا تُطاق!

ارتسمت ابتسامة جانبية على ثغر الحاجة وسيلة وهي تراقبهما بنصف عين في الخفاء، يرُجها لحنُ حبهما المنقوص رجًا ويخوض زمام هدوئها فتصمت ليمتلئ جوفها بالحكايات!

❋ ❋ ❋

جبل داو

من قلب صراع وحشي بين أفكاره وأحلامه، خرج في عتمة ليلٍ لا يباريها سوى عتمة قلبه الذي توارى كل خير فيه خلف النِكات السوداء التي وسمته، يدور عقله في دوائر لا نهاية لها، يعمل كخليةَ نحل محاولاً إيجاد حل لتلك الكارثة التي حلت به، ماذا حدث له، منذ متى وهو يتردد هكذا، شرطهم يحتاج جرأة هو مُتخم بها فلماذا لا يفعل؟!

ربما الحريق الذي شب في بيت أبيه صخر وقضى عليه هو السبب؟ هل يخشى غدرهم! أم يخشى الصورة الذي سيصبح عليها لو منحوه ما يريد!

العويل لم ينته منذ الصباح، تجمعت نساء البلدة أمام داره يرجونه بأن يرأف بحال أَم عمار، فالمرأة آخر مرة شاهدوها بعقلها كانت تتجه إلى داره، وعندما عادت كانت كمجنونة فاقدة للسيطرة، تُمزِّق شعرها وتصرخ ولا تنطق إلا بالنداء على بنتيها المختفيتين طوال اليوم.

ليلى أخبرته بأن أم عمار حضرت في حالة غير طبيعية وتهذي فلم تفهم منها شيئًا وصرفتها على الفور، لأول مرة يخطو سلطان العاصي خطوات غير واثقة وهو يتجه إلى بيت المرأة، كيف سيعرف ما بها والأسياد يرفضون التعاون معه حتى ينفذ ما أمروه به، رأى نفسه على حقيقتها، مجرد رجل، بلا سطوة، بلا أسياد، بلا حاكم يسنده، فماذا

يكون؟ مجرد فرد من أهل البلدة يسمع ويطيع أو يُجر إلى المخفر في حالة معصية أوامر الكبار!

- أنجدنا يا سيدنا ابنتاي مختفيتان وزوجتي شقت ثيابها وخرجت إلى الغابة

هتف أبو عمار بتلك الكلمات ملتاعًا متعلقًا بطرف ثياب سلطان، جاثيًا متوسلًا بينما عمار يتكور على نفسه في ركن من أركان البيت يبكي بصمت يرتعش من الخوف، النساء يُحطن بهما بعيون متسعة منتظرة للحظة المعجزة التي ستحل على يد سيدهم في الحال ليكشف مكانها بهدوء ويذهب ليأتي بها، ولكن شيئًا لم يحدث، فقط تنحنح وسأل بجمود:

- ماذا حدث بالضبط؟

تلاقت الأعين بدهشة، شهقات خفيضة مبعثرة، همسات تدور بينهن تخبره أنهن غير مصدقات أن الذي يقف أمامهن الآن هو سلطان صخر العاصي الذي كان يعرف كل صغيرة وكبيرة تدور في حجرات نومهن، الآن يقف متسائلًا عما حدث بالضبط!

تغافل سلطان عن همساتهن المترامية إليه وهو يستمع إلى القصة التي يرويها الرجل بتلهف الذي ابتلع ريقه متعثرًا بينما يجمع شتات أفكاره ويحكي:

- اختفت البنات أثناء عودتهما بالماء، وبقينا نبحث عنهما في كل مكان ولم نجد لهما أي أثر، وذهبتُ أنا في اتجاه وذهبت هي لبيتك لتطلب مساعدتك، فما لبثت أن عادت تبكي وتصرخ ولا تتفوه بشيء، ومنذ قليل شقت ثيابها وخرجت كالمجانين تجري حتى اختفت داخل الغابة ولم أستطع اللحاق بها.

زم شفتيه حانقًا بينما يومئ برأسه مُكررًا بعصبية لم يستطع السيطرة عليها، سيجدها عاجلًا أم آجلًا لأجل هيبته المهددة لا أكثر.

استدار وهو ينتزع طرف ثيابه من بين يدي الرجل بعنف ليغادر ولكن الباب الموارب فُتح فجأة فشقهت النساء عاليًا وانتفض الباكي واقفًا بلوعَة وهو يرى اندفاع جسدين للداخل، أحدهما لزوجته الصارخة والآخر لجلال الدين ممسكًا بها بقوة يقيد معصميها من الخلف حتى تتوقف عن تمزيق شعرها المبعثر والعالق بأطرافه وريقات أشجار ذابلة ومصفرة ويتخلله الكثير من القش والتراب.

اندفع زوجها يتلقاها من بين يدي منقذها محاولًا السيطرة على جنونها هاتفًا:

- أين وجدتها يا مولانا؟!

التقط جلال الدين أنفاسه المتقطعة وهو ينفض قميصه الذي تجعد وانفصل عنه بعض أزراره وهو يجيب السؤال بسؤال هاتفًا بحنق:

- ماذا حدث لها يا أبا عمار، وكيف تتركونها في تلك الحالة الهِسّتيرية وحدها؟!!

اجتمعت النساء عليها يمسكن بها ويدفعونها تجاه إحدى الغرف بينما الرجل تهطل الدموع بغزارة من عينيه وهو يجيب بنظرات زائغة بين زوجته التي يختفي صراخها كلما أبعدوها للداخل وبين سلطان المتصلب بجمود وعلى بعد خطوتين ينتظر جلال الدين الإجابة، قص عليه سريعًا بأنفاس لاهثة ما حدث باختصار وراقب انعقاد جبينه وهو يتسائل من جديد عن الفتاتين، لتلتفت إحدى النساء نحوه وتجيبه متطوعة:

- لم نجدهما يا مولانا، أرجوك اعثر عليهما كما عثرت على أمهما، اشمل تلك العائلة المسكينة بعطفك وكراماتك .

لم ينتظر سلطان أكثر من هذا، ألقى بآخر حجر يمتلكه في بئر خوفهم العميق المتأصل فيهم لسنوات غابرة وهو يقول متغطرسًا:

- سأشرح لكم كل شيء عندما أعود، فلدي موعد أعلى قمة جبل داو

ولم يبق ليسمع رد غريمه، ولا رد المجتمعين في دار أبي عمار، بل اندفع يشق طريقه خارج البيت، هيبته في خطر، لا مجال للتراجع، حث الخطوات نحو جبل داو، ذاك الجبل الذي لا تنقطع منه أصوات نباح الكلاب ليلًا وحتى تشرق الشمس..

- سلطان!

ما الذي أتى به خلفه، هل يرغب بأن يلقى حتفه أسفل الجبل أم ماذا! توقف مستديرًا للخلف بعنف وقد استدارت معه كل شرارت الغضب التي تغلي بأوردته في تلك اللحظة:

- لماذا تتبعني يا بن الراوي؟

- أردت فقط أن أخبرك بأنني عثرت عليها في الغابة أثناء عودتي من الجانب الآخر، أي أنه لا دخل للكرامات في الموضوع، وقد أخبرت النساء بالداخل بهذا.

عصفت الرياح صانعة دوائر رملية صغيرة من حولهما، بينما سهجها يرتفع ليضرب وجهيهما ويصيبهما بالقشعريرة رغمًا عنهما وسلطان يجيبه ببرودة مشابه لسواد الليل من حوله:

- ليس من شأني يا بن الراوي.

استدار ثانية نحو الجبل فهتف جلال الدين من خلفه ساخرًا:

- ألا تخشى جبل داو!

لم يتوقف سلطان بل باعد بين خطواته، بينما لم يفهم جلال الدين نفسه وهو يلحق به، ربما تلك الحالة المزاجية الرائقة التي خرج بها من دار عمه «نصر» هي السبب، هي من منحته انتشاءً فما زال يبتسم كـ فتى غِرّ ضم حبيبته إليه لأول مرة، تتخلل شرايينه حماسة تدفعه ليحتضن كل من يصادفه ويصالح كل من يخاصمه ويعقد صفقات سلميّة مع أعدائه دون شروط، حالة من الطوف تأسره وتعرج به بكل سهولة فوق كل الموانع الزمنية والمكانية فيتلاشى بتناغم وكأنه لم يشُقَ يومًا!

هتف مجددًا دون أن يتوقف عن ملاحقته:

- أخبرَني والدي ذات مرة أن إبليس نفسه يسكن قمته، فهل لديك موعد غرامي معه!

قبض سلطان كفه بقوة صارخًا وقد بدأ يقفز متخطيًا الصخرة الأولى المنخفضة والعريضة جدًا منحنيًا قليلاً ليتوازن ويقف ثانية:

- نعم، وعند عودتي ستتمنى لو كنت أغلقت فمك الكريه هذا.

توقف جلال الدين أسفل الصخرة متابعًا حديثه الذي يشعر بأنه مدفوع ليستكمله وغالبًا سيوبخ نفسه عند الصباح عندما يستفيق من غيبوبته الشاعرية تلك:

- لا يزال أمامك فرصة للعودة من الآن يا عدوي العزيز!

بدأت قدماه تتعفر بالرمال صعودًا بينما يجمع عباءته من حوله ويقاوم الرياح الشديدة التي تدفعه للخلف وكأن للجبل حالة طقس مختلفة عن بقية البلدة متمتمًا بدهشة:

- هل ثَمِلَ ابن الراوي أم ماذا بالضبط؟!

قفز جلال الدين فوق الصخرة بسهولة وكأنما يعتلي أحد جياده وجمع كفيه حول فمه ويناديه بصوت مرتفع كمحاولة أخيرة:

- سلطان، إذا خِفت على نفسك تذكر السلاح الذي كنت أواجهك به في أول لقاءاتنا في الغابة!

استكمل سلطان رحلته للأعلى دون اكتراث له ولا لكلماته، جلال الدين فقد عقله حتمًا، أو ربما ذاكرته وسنوات العداء والكره بينهما، وكلما تغول أكثر كلما بدأت أصوات العواء تعلو، تتصارع أنفاسه وهو يذكر نفسه بالهدف الذي يسعى إليه ليهون على نفسه المشقة، لا بد من استعادة مكانته من جديد.

وشيئًا فشيئًا شعر برئتيه تتجمدان من شدة البرودة وتنميل يسري في جسده بلا هوادة، تراءت له خيالات لذئاب وكلاب حالكة السواد تحيط به من كلا الجانبين وكأنها فرقة حراسة خاصة!

تخرج الثعابين والحيات فجأة زاحفة بين قدميه فيتجلد ويتخطاها، يعلو فحيحها فيصم أذنيه ويستكمل طريقه، تظهر خفافيش وغربان تطير في الأفق قريبة من رأسه فيشغل نفسه بالتمتمة بالميثاق الذي يحفظه ولا بد من إلقائه الآن ليعرفوه، إنه تابعهم أبًا عن جد وبالتأكيد سيتركونه يعبر بينهم، الشيطان الذي يعاونه اشترط عليه أن يصعد الجبل ويدخل المغارة العميقة أعلاه، فهناك بيت المارد ومسكنه، وإذا كان يريد استعادة هيبته فلا بد وأن يذهب إليه في عرينه، ليجدد سجدة الطاعة والولاء منفذًا كل ما يأمره به، وعندها فقط سيتجدد ميثاقهم تلقائيًا بل وسيصير سحّارًا عليمًا لا قدرة لأحد على مواجهته!

كل عام مضى كان يجدد الميثاق في غرفة الأسياد مقدمًا لهم جسد فتاة الحصاد الغائبة عن الوعي موقعًا أسفله مستعينًا بقطرات يسيرة من دمائها، ثم يتركها لهم ويعود بعد عدة أيام ليأخذها جثةً فاقدة لكل

قطرة من دمائها ليدفنها في أعماق الغابة! فلماذا هذا العام بالذات يطلبون صعوده إلى ماردهم الأكبر بعد أن خدعوه واختاروا سلام؟!

قاوم كل دفعة قوية تتشبث به للأسفل، تحسس النسخة التي يحملها في جيب سرواله الواسع يطمئن بأنها ما تزال بحوزته، لقد فعلها من قبل ودون تردد وهو ينفذ أوامر والده صخر العاصي وهو يخطو به أول خطواته ليصبح ساحرًا ويعلمه قائلًا:

- خذ المصحف إلى الخلاء، ضعه أرضًا وقم بوطئه بقدمك ثم تبول فوقه واحفر بداخلك يقين بأن ما كتب فيه كذبٌ ومَن أنزل عليه كذابٌ.

لا ضير من أن يفعلها ثانية ليجدد ولاءه وطاعته ليرضيهم، نفدت طاقته وثقلت خطواته وعلا نبضه ولكنه وصل، وهذا يكفيه كل عناء.

فئران وذئاب وكلاب سوداء تدور حوله أمام المغارة، لا يفصله عن بابها سوى أن يتراجعوا ليفسحوا له المجال للدخول، نُباحُ الكلاب يتداخل مع العواء، بينما هو لا يتوقف عن الهمس لنفسه:

- تعرف بأنها ليست حقيقة، إنهم متجسدون فقط، أخرج الكتاب من جيبك واجثُ وادخل راكعًا.. ثم استمع إلى طلباته ونفذها

وبالفعل جثا مخرجًا نسخة المصحف من جيبه فخرجت ألسنة لهب من المغارة نحوه، لم يشعر بحرارتها بالرغم من قربها الشديد، وصوت كنفير البوق يتبعها انتفض له قلبه، ولأول مرة، يشعر سيد الخوف بالخوف على نفسه!

شعر بروحه تفارق جسده وخفت هدير ضخ الدم لجسده، بلا إرادة وجد أصابعه تنقبض على الكتاب بين يديه بينما صوت جلال الدين يصدح في عقله «إذا خفت على نفسك فتذكر السلاح الذي كنت أواجهك به دائمًا في أول لقاءاتنا في الغابة»

تلك المواجهة بينهما عندما كان يجلس هناك أسفل شجرة محترقة يابسة يعقد عزائمه وينفث فيها فوق صحن حديدي تشتغل فيه النار بقطع ثياب ملوثة ببقايا دماء، وفجأة اندفع أحدهم نحوه من بين الأشجار، وبقدمه دفع الصحن لينقلب رأسًا على عقب وهو يتلو آية الكرسي بنبرة شديدة قوية.

لم يكن سلطان قد أكمل قراءة طلاسمه بعد، تصاعد الغضب كشيطان يجري في دمه حتى قمة رأسه ليشعل ناره هناك، تشابكا بالأيدي ومع أول سقطة نشأت أول مشاعر بغض وكراهية تجاه بعضهما البعض.

أخرجه من شروده ذاك الذئب الأسود بحجم الأسد الذي ظهر من العدم منقضًا عليه ليعقره، لعابه اللزج يسيل كالمطر من بين أنيابه، فتجمدت الدماء في عروقه للحظة توقفت فيها الدنيا أمام عينيه تلوح له بنهاية بشعة ذهب إليها بقدميه!

❋ ❋ ❋

حمله على كتفه برفق وهو يصعد به الدرجات القليلة حيث الطابق الثاني، دخل الغرفة ووضعه بهدوء على فراشه ولكن الصبي تعلق برقبته بفزع بمجرد أن لامس جسده الفراش البارد، ربت جلال الدين على ظهر الصبي واستلقى بجواره هامسًا:

- لا تخف يا عمار سأظل بجوارك

ووضع يمناه على رأسه وظل يتلو عليه بعض الآيات حتى هدأ وغاص في النوم ثانية، دقائق طويلة مرت قبل أن ينهض من الفراش بخفة حتى لا يوقظه مغادرًا إلى الطابق الأسفل مكان إقامة عابد الدائمة، وبرغم حاجته الشديدة للراحة إلا أنه آثر أن يعود ليسترضيه!

الطابق الأسفل عبارة عن ردهة صغيرة ثم رواق طويل يؤدي إلى غرفة واحدة فقط ينام فيها ولا يكاد يفارقها إلا للضرورة.

كان ينتظره في الردهة وقد شاهده لحظة صعوده بالصبي مُلقى على كتفه، يقف في المنتصف عاقدًا كفيه خلف ظهره بشموخ يتناقض مع نظراته الجريحة وهو يستقبله بعتاب مباشر:

- توقعت أن لا تعود.

تقدم جلال الدين نحوه بابتسامة هادئة، لم يحتج إلى كثير من فطنة ليميز ضجيج العتب من بين همس الكلمات وقال:

- حتى ولو حدثت معجزة وتقبلوني بينهم من جديد ما كنت أبقى دونك.

ارتفع خده الأيسر بابتسامة هازئة مجيبًا:

- لا تعِد بما لا تملكه، في النهاية ما أنا إلا خادمكم بينما أنت ابن الراوي!

رفع جلال الدين حاجبيه بدهشة متجنبًا حديثًا قادمًا لو استرسل فيه عابد لانتهى إلى انزوائه في غرفته لمدة لا تقل عن أحد عشر يومًا، لم يدرك جلال الدين لماذا يختار عابد الأحد عشر يومًا تحديدًا لينقطع للعبادة وينعزل عن الناس ولكن هكذا اعتاد الأمر منذ وفاة والده، فلم يعد يسأل وقد ظن أنها عادة لا أكثر ولا أقل.

- ابن الراوي! ذكرتني بسلطان قبل قليل!

قالها ضاحكًا وهو يتقدم تجاه الأريكة الكبيرة التي تتوسط الردهة ولكن سؤال عابد أوقفه:

- كيف تصادفت مع سلطان في تلك الساعة المتأخرة؟!

تابع جلوسه بأريحية متسندًا إلى ظهر الأريكة وهو يرسل تنهيدة طويلة قبل أن يجيبه قائلًا بلا مبالاة:

- كنت في بيت عمار ووجدته هناك.

عقد عابد ما بين حاجبيه وهو يقترب منه مستفهمًا:

- لماذا ذهبت إلى هناك؟ ولمَ أحضرته معك؟!

مط شفتيه وهو ما يزال لم يغادر بعد حالته المزاجية الرائقة وبدأ يقص عليه ما حدث منذ وجد أم عمار تنبش في أرض الغابة تحفر فيها بأصابعها وتصرخ باكية، وعندما لم تستجب له اضطر إلى تقييد يديها لتتوقف وكاد أن يجرها جرًا إلى منزلها بينما هي تنتحب وتهذي وتحاول التملص منه لتعود ثانية.

كان عابد يستمع بتحفز شديد حتى وصل في الحكاية إلى خروجه خلف سلطان وملاحقته له عند الجبل، فلم ينتظر أن يستمع إلى الحوار الذي دار بينهما، بل صاح بغضب وقد فقد السيطرة على نفسه:

- لقد أهدرت كل ما فعلناه طوال السنوات السابقة، أنا أبذل كل جهدي لأبعدهم عنك وأعزلك عنهم بينما أنت تتطوع لإنقاذ امرأة منهم، بل أكثرهم كرهًا لك، ولم تكتف بهذا، بل تتبع ابن العاصي إلى الجبل وتُسديه النصائح المجانية!!

أطلت نظرات بالغة الدهشة من عينيِ جلال الدين بينما يعتدل في جلسته مستندًا بمرفقيه إلى ركبتيه متسائلًا:

- كيف عرفت بأنني نصحته بشيء؟!!

بقي عابد على وقفته وقد غامت نظراته خلف سُحبٍ غامضة لوهلة قبل أن يجيب:

- توقعت ذلك، فكلما ذهبت لمقابلة ابنة عمك عُدت في حالة ملائكية خاصة!

أطرق جلال الدين برأسه مُفكرًا وقد أضاء سؤال آخر بعقله كان منزويًا منذ ثلاثة أيام، فرفع رأسه وهو يُلقيه بدهشة أكبر من سابقتها:

- وكيف علمت بأن عمي قد غير داره إلى دار أخرى وسط دور القبيلة؟!

أجاب بسرعة وكأنه كان يتوقع السؤال:

- عندما غيرت الطريق توقعت أيضًا أن نصر قد اتخذ له دارًا أخرى.

زم شفتيه مُحاولًا إقناع عقله بكل الإجابات، الإرهاق الشديد يجعله يتجاوز كل العقبات في سبيل وصوله إلى سريره في أقرب وقت، وعندما

وصل إليه بعدها بدقيقتين فقط لم يحصل على الراحة التي ينشدها، بل وجد عمار متكومًا كعادته منذ رآه الليلة يبكي خائفًا، انضم إليه أسفل الغطاء وضمه ليهدأ متمتمًا:

- لا تخف يا بطل، كل شيء سيكون على ما يرام، والدتك ستكون بخير، وأختاك ستعودان قريبًا، تفاءل خيرًا.

لكنه لم يتوقف عن البكاء بل ارتعد صوته وقد علا صوت اصطكاك أسنانه وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة، ويحرك رأسه بـ لا !

ضم كتفيه بقلق شديد وهو يقرب أذنه من فمه ليستمع لما يتمتم به ولا يستطيع التوقف عنه:

- أختاي أخذتهما الأسياد بديلًا عن سلام!

❁ ❁ ❁

لملم الليل رداءه عن جبين الشمس فسطعت أول خيوطها الذهبية سانحة لأهل البلدة بالخروج وممارسة أعمالهم، طقوس يومية يسيرون في خلالها كالنيام، الكل يكدح في المساحات المزروعة المتفرقة في جوار بيته، يراعونها بمياة الآبار فتنبت لهم ما يطعمون به بطونهم، الكل يعمل ليسد رمقه بما تبقى من خيرات أرضه بعد دفع ضرائب الحماية للحاكم والنذور للأسياد كي لا يؤذوهم!

عقد راع للغنم حاجبيه وهو يقترب بحذر نحو السواد المتكوم أسفل الجبل، استخدم عصاته في رفع طرف العباءة الملقى على وجهه ففزع متراجعًا للخلف حتى تعثر ساقطًا فوق أحد أغنامه التي تفرقت على الفور وهي تُطلق نبيبها المتواصل باهتياج، جمع أغنامه في سرعة يحثها بعصاته، لا يفهم ماذا يحدث بل لا يريد أن يفهم، يكفيه الهرب فقط.

ضربت خيوط الضوء عينيه واخترق النبيب مسامعه فاستفاق من رقاده وبدأ يحرك أطرافه رويدًا رويدًا، نظر حوله بينما يحمي عينيه ويظلل فوقهما بيده، يشعر بكل أعضائه وقد تفرقت عن بعضها البعض، ألم شديد وصداع يفتك برأسه، تحامل على أوجاعه حتى استقام واقفًا لا يتوقف لحظة عن النظر حوله، لم يكن صاحب الأغنام قد اختفى بعد، ما زال ما تبقى من الغنم يهرع خوفًا من نباح كلبهم الذي من المفترض أن يكون حاميهم!

كتم تأوهاته محاولاً نفض الغبار من ملابسه، ثم اختيار سُبل غير مطروقة إلى حيث بيته، يسير مُنكس الرأس زائغ النظرات، لولا السواد الذي يتشح به لما عرفه الرجل الذي مر بجواره والذي تعجب من هيئته، هل هزل فجأة وقصُرت قامته أم هذا فقط بفعل إطراقه للأرض وانحناءة ظهره!

ليلى أيضًا رفعت حاجبيها دهشة وهي تستقبله عند دخوله المتواري، سألته بلهفة عن تغيبه وعن حالته تلك فسألها عن الأطفال!

ساعدته للوصول إلى سريره وهي تطمئنه بأنهم ما زالوا في مخادعهم بينما يُلقي بثقله كله عليها لتشتم رائحة الرمال في شعره المشعث وقد فقد عمامته كما فقد خُفه، أنّت مفاصله وهو يخلع العباءة بمساعدتها ويستلقي فوق فراشه متأوهًا، راقبت ملامحه الضائعة بينما يُغمض عينيه منفصلًا تمامًا عنها.

جلست بجواره على طرف الفراش وانحنت نحوه تمسح على شعره وتسأله بتصميم:

- أخبرني ماذا حدث لك!

شعَرت بأنفاسه تضطرب دون أن يفتح عينيه فأعادت سؤالها وهي تضع يدها على جبينه الذي بدأ يتعرق بشدة وترتفع حرارته فجأة، حرك شفتيه فلم تسمع ما يهمس به، انحنت بجذعها أكثر وقربت أذنها من فمه فسمعته يهمس بارتجاف:

- استخدمتُ سلاحك يا بن الراوي!

❋ ❋ ❋



ثلاث ليالٍ أخريات، يمُر الزمن في خلالها على قلبها فينتزع منه الخوف شيئًا فشيئًا ويملأ فراغاته بالاعتياد! كما اعتادت الظُلم والظلام؛ وطّنت كوامنها الدفينة على الأسر الجديد، فباتت تتعامل معه وتحد أسواره معلقة لافتات كُثر فوقها، سيأتي ليلًا ليُطعم وحدتها بكلمات لا تفهمها ولكن لا يهم، إذا أرادته أن يذهب فما عليها إلا أن تنام، تستيقظ مع الشروق فتجد صحن الثمرات ينتظرها ويستلقي على حافة فراشها فوق الأرض.

صباح أمس استقبلها خبر منعش لحواسها كما التفاح، عاد بعض من الشعور إلى ساقيها فاستطاعت أن تحركهما بنزر يسير من الألم .. جيد، سيساعد هذا على تطوير بحثها عن مخرج قريب، وإن لم تواتها الشجاعة بعد فما عليها سوى البحث عن دورة مياة !

ومنذ تلك اللحظة وهي تستند إلى الجدران كطفل يتعلم المشي لأول مرة ويكاد يفقد توازنه مع كل خطوة يخطوها بصعوبة، كانت النافذة أوّلَ ما وصلت إليه، ألقت بحملها كله فوق حافتها حتى أصبح نصف جسدها تقريبًا للخارج.

للوهلة الأولى كل شيء يحث حنجرتها على الصراخ، الحديقة الداخلية للقصر أحرقت كل تخيلاتها حتى الرماد، وكأنها صورة مقتطعة لحديقة غناء وملصقة بداخل غابة مرعبة لا يفصل بينهما سوى السور الداخلي المرتفع جدًا والمحيط بالحديقة والقصر!

من يعتني بالثمار وشجر التفاح، ومن ينظف حشائش الحديقة؟! دفعت ثقل جسدها ثانية لتهبط حيث تلامس أرجلها الحافية الأرض المغبرة الباردة، ببطء وهدوء عادت تستند إلى الجدران معتمدة على

ضوء الشمس، تنتقل ببصرها هنا وهناك، بالتأكيد هؤلاء القوم كان لديهم حمّام!

عند خروجها البطيء من الغرفة واجهتها الصورة الكبيرة مجددًا فغضت الطرف عنها وهي تعود خطوة للخلف تستند إلى إطار الباب وتتنفس بعمق دون أن تتوقف عن التمتمة لنفسها بأن تتشجع فالأمر لا يُحتمل، فجأة انعكس الضوء القادم من النافذة فلمع شيء ما ملاصق للمرآة الضخمة، ضيقت ما بين حاجبيها بتركيز وهي تسعى نحوه وتتلمس الجدار حتى وصلت إليه، رفعت حاجبيها دهشة بينما تُحدق في المقبض الذهبي، هناك باب صغير بجوار المرآة تختفي حدوده بين الغبار فيتناقض ذلك بشدة مع مقبضه اللامع، كيف لم تنتبه له من قبل؟!

هذا الصباح بدا كل شيء أكثر سهولة، قدماها تتحركان بشكل أفضل بالإضافة إلى الحمام الذي اكتشفته معها في الغرفة نفسها يحوي قارورة مياه كبيرة، لن تضطر للخروج ولديها نافذة وصحن تفاح وزجاجة تشرب منها، تشعر بنوع ما من الأمان في صحبته في أثناء الليل فماذا تريد بعد، أكثر من ذلك يعد طمعًا!

لقد كانت تعيش في كنف ساحر لديه غرفة تعج بالأشباح فهل تضجر الآن من الاحتماء في كنف أحدهم؟!

ثلاث ليالٍ فقط غيرتها وباتت تنتظر الليل بعد أن كانت تموت رعبًا منه، وأصبحت أسيرة للعادة، صرير الباب الذي تهتم بإغلاقه نهارًا ينبهها في جوف العتمة أن هناك زائرًا، لتتنابها أعراض وقتية تجعل مفاصلها تصطك ويشتد الخَدَر في ساقيها لتنزلق متكومة فوق الفراش، قبل أن تنسحب تلك الأعراض مغادرة بمجرد أن يطل بهيئته المريبة التي حفظتها فتستند لتنهض ملتصقة بأحد أعمد هيكل السرير أيهم أقرب لها، هل لا تزال تخافه أم تخاف أن يكون أحدًا غيره!

- أنتِ اليوم أفضل.

أومأت برأسها موافقة دون أن تجرؤَ لتفتح شفتيها، فاستطرد وهو يقترب من النافذة:

- حالة قدميكِ غريبة!

أرادت أن تجيب ولكن الكلمات حُشرت في حلقها فخرجت بنبرة خشنة متقطعة:

- أُصاب بالشلل.. عندما أخافُ.. بشدة!

لم تستطع تبين أثر كلماتها على وجهه وهو يمنحها ظهره مُعلقًا :

- وتُصابين بفقدان الوعي كذلك!

أومأت برأسها تؤيده وتنتظر السؤال التالي، مرت دقائق بينهما يتبادلان فيها صمتًا مشبعًا بكثير من الأفكار حتى قرر الالتفات وقد حسم نزاعاته قائلًا:

- أنتِ تشبهين بذور التفاح خاصتي، الحيرة تتملكني بشأنكِ، هل أُلقيكِ من النافذة، أم أمنحك لغيري ليدفنك!

ضمت كفيها إلى صدرها وانهالت عبراتها مذعورة لترجوه لكن الغصة تخنقها وتقطع الطريق على أحبالها الصوتية، ولأن الغصة دومًا ما تنجح في صراعها ذاك مع الكلمات.. لم تنطق سوى بالشهقات المتقطعة!

- هل ضايقتك؟!

سألها مندهشًا من حالتها تلك مُطلقًا سراح توسلاتها المختنقة في كفيها:

- أرجوك لا تلقني من النافذة ولا تُسلمني لمن يدفنني..

- كان لدي حقيبة ممتلئة بالبذور..

رفعت رأسها إليه بينما شهقات خافتة لا تزال عالقة بصدرها تزفر بها بتناغم متقطع رغمًا عنها وتستمع لمتابعته لحديثه الغامض وكأنما سيقص عليها حكاية:

- منحها لي جدي، كانت من النوع النادر..

شيء من الارتباك حل بملامحه وهو يحاول التذكر لوهلة قبل أن يحرك رأسه نافضًا الحيرة جانبًا مستكملًا:

- لا بأس، المهم أنها كانت مجموعة نادرة، طمِع بها أخي الأكبر، قيدني ليأخذها مني عنوة، صرخت أنادي أمي، فأقبلت تنظر في عيني مباشرة، وعندما اقتربت، انتزعت الحقيبة مني، ومنحتها لأخي قائلة «الفتيات لا يصلحن للزراعة»!

أرادت سلام أن تفتح فمها ولكن شفتيها أُطبقتا وشعرت بأنها ستبتلع لسانها فاستطرد مُنهيًا الحكاية:

- زحفت ليلًا على كلتا يدي وركبتي حتى وصلت إلى غرفة أخي، وسرقت الحقيبة، عدتُ إلى غرفتي وأنا على يقين أنه سيستردها مني عندما يستقيظ، فتحتُ الحقيبة وأفرغت البذور كلها من النافذة، ثم أرجعت الحقيبة مكانها أسفل فراش أخي، اكتشفوا أمري بعدها بعدة أشهر..عندما نبتت أسفل نافذتي!

أنهى عبارته ضاحكًا، ضحكة تجمع الألم بالمتعة وتخرج من قلبٍ واحدٍ مكلوم! قائلًا:

- أخشى أن أرعاكِ كما رعيت البذور فينكشف أمري وأُجلد من جديد!

ليست قصة، إنها أُحجيته الخاصة، لا بد من ذلك وإلا لما كانت تفتح فمها الآن ببلاهة وتحدق به وقد نسيت شهقاتها المسروقة، بينما عقلها يقفز إلى نقطة في الذاكرة ويفتح لها نافذة تُطل من خلفها الصورة المؤطرة على جدار الرواق .. حركت لسانها مشدوهة مأخوذة، مُسيرة تمد يدها نحو الباب تشير بسبابتها والتساؤل يمر من بين شفتيها مبهوتًا مثلها:

- هل كنت أنت الطفلة الصغيرة بالصورة في الخارج؟!!

طالت نظرته الجامدة نحوها، لم تحتج سلام إلى رد، كانت عيناه تنبض بالألم، بالخجل، خلف نظرته جبال شاهقة سارحة، تقف طفلة أعلاها، طفلة مارسوا عليها كل طقوس القهر! تصرخ مستنجدة بأمها «أنا مالك»، فيهبط على ظهرها سوط يلسعها ويشق جلدها ويسيل دمها حتى السفح مصاحبًا لنداء شرِس «أنتِ مليكة»!!

❋ ❋ ❋

نهارًا في غرفة الديوان، كانت الحرب الباردة على أشدها، كلمات متراشقة هنا وهناك، بينما الشيخ نصر الراوي لم يكن يملك سوى حائط الصد الذي ترتكن شيبته ومكانته خلفه، إلا أن الهجوم كاد يسحقه والأصوات ترتفع بتبرم مما دفع خديجة إلى أن ترفع وشاحها على رأسها وتهرول للأسفل حيث الجلبة، تاركة غرفة الحاجة وسيلة التي أنّت تناديها ألا تفعل!

تعلم بعدم أحقيتها الدخول إلى اجتماع شيوخ القبيلة، لكنها تجد صعوبة في ترويض الثورة بداخلها وهي تستمع إلى إهانة توجه إلى أبيها بينما هو بينهم لا يملك سوى عصاته ومكانته التي كانت يومًا ما، وصورة مرسومة باليد على قطعة قماش عرضية معلقة فوق أريكته قد ذابت خيوطها وأوشكت على السقوط!

- أنت تتلاعب بالقوانين يا نصر.

توقفت يدها التي كانت في طريقها لعصر المقبض، إنه صوت خاطر الذي يريدها زوجة له، خاطر بن آصف الذي يعلم الجميع مدى طمعه في منصب المشيخة لأبيه، وها هو يجد الفرصة الذهبية ليفعل، ويُري المجلس مدى قدرتهما وقوتهما لفرض سيطرتهما على شيخ القبيلة، بل ومناداته باسمه مجردًا وهو يتهمه بالتلاعب، وهذه إهانة يتحداه خاطر بأن يردها، وبمنزلة إعلان عن نزع الزعامة منه عنوة!

انتفخت أوردة نصر وقد نشب الغضب بصدره، جالسًا على طرف الأريكة مستندًا بكلتا يديه إلى عصاته الضخمة والشرر يقدح من نظراته وهو يواجه خاطر صائحًا:

- لو كررتها يا خاطر فسأطبق عليك قوانين القبيلة التي تتشدق بها الآن

ارتفعت الهمهمات الساخطة بين شيوخ المجلس بين مؤيد ومعارض، كل ما يحدث أمامهم هو بدعة من أمرهم، لم يتجرأ يومًا أحدهم على شيخ القبيلة ولكن لا يُعرف أيضًا للقبيلة شيخ كسر قوانين المجلس كما فعل نصر.

في المرة السابقة منحوه فرصة وهو وافق على ما اتخذوه من قرارات وأرسل إلى ابن أخيه ليجبره على طلاق ابنته أو موافقته على حرق قبر أبيه، وكان من المفترض أن يسجنه كما اتفقوا في حالة رفضه حتى يخضع لهم.

واليوم جمعهم خاطر ووالده من بيوتهم ليخبرهم بأن نصر تلاعب وقام بتهريب جلال الدين الذي لم يكن في سجنه المقرر من الأساس!

كان التوتر يسود بداية الجلسة غير المتوقعة حتى قرر خاطر بوضع يده في فم الأسد العجوز لينتزع أسنانه فتخفت هيبته بين الحضور، وبرغم فقد نصر لأنيابه لكنه ما زال قادرًا على الزئير!

نهض أحد الشيوخ في محاولة للتهدئة باسطًا كفه على صدره طالبًا للسماح:

- العذر إليك يا كبير الرواة، لا تؤاخذ خاطر فهو ابن عمومتنا وما زالت دماء الشباب تجري بأوردته فيندفع في الحديث بلا إرادة منه.

تنحنح الرجل ليجلي حنجرته وقد صوبت النظرات نحوه وهو يستكمل واضعًا النقاط فوق الحروف:

- نحن لا نجرؤ على التقليل منك ولكن أنت علمتنا يوم طردت فيه أخاك شمس من القبيلة أن القوانين فوق الجميع كبيرنا وصغيرنا ومن ثم جلال الدين ليس استثناء ولا حتى ابنتك.

تحولت الأبصار تلقائيًا نحو نصر بمجرد أن جلس الرجل وقد أنهى حديثه، خفتت الهمهمات وخفتت معها نبضات خديجة في الخارج وهي تنتظر كالبقية رد والدها الذي جاء كما توقعته تمامًا حينما قال باقتضاب:

- سأرسل له من جديد.

مزقت ضحكة خاطر الصمت المهيب الذي لفهم جميعًا للحظات قبل أن يعلق ساخرًا:

- وأين ستحبسه هذه المرة، في غرفة ابنتك؟!

وبدون تفكير اندفعت خديجة تفتح الباب بقوة ليضرب الحائط خلفه مقتحمة للغرفة، دخولها كان يشبه المفرقعات المندلعة في ليل ساكن ضجت

سماؤه فجأة بالألعاب النارية فالتفتت الرؤوس تجاهها وهي تتقدم بثبات لبؤة تنوي نهش فريستها الذي لم يكن سوى خاطر، تقترب منه مشيرة بسبابتها هاتفةً بتحذير أقرب إلى صفعة على وجهه :

- يبدو أن أعوامك الأربعين لم تعلمك شيئًا عن الأدب مع شيخ قبيلتك ولا مع ابنته التي من الممكن أن تتبرع وتعلمك بعضًا منه أمام الرجال!

آصف المتكوم كالثعلب النحيل بجوار ولده يعلم مدى تأثره بها، وبأنه لن يرد بما يؤذيها مهما وجهت له من لعنات، لذلك نهض لتظهر انحناءة ظهره الشديدة وجبينه العريض ونظر إليها بعينيه الغائرتين ونظراته اللئيمة الشامتة التي أفصحت عن ما سيقول قبل أن يتفوه به قائلًا بنبرته الرفيعة والحادة:

- يبدو أن العنوسة قد أكسبتك طبائع الرجال يا ابنة الشيوخ.

فتحت فمها لتكيل له ما بجوفها ولكن هتاف والدها باسمها أوقفها ونظراته التي تخترقها تأمرها بالانصراف في الحال وبأن حسابها سيأتي فيما بعد!

وبينما هي تتوعد خاطر بنظراتها وتدور على عقبيها لتخرج سمعت آصف يتنهد ويقول ببطء مدعيًا الشفقة على ما وصل إليه حال نصر:

- الأمور تنفلت من بين أصابعك يا نصر، في البداية أخوك ثم ابنه والآن ابنتك، لقد وضعت رجال القبيلة في موقف لا يُحسدوا عليه كالنقطة السوداء في تاريخها، ولمحو ذلك السواد عن جبين رجالنا لا بد من استدعاء القاضي لحل ذلك الزواج المشؤوم ..

أليس كذلك؟

قال كلمته الأخيرة وهو يوزع نظراته بين كبراء القبيلة الذين أومأوا بالموافقة فامتقع وجهها وتوقفت متجمدة مكانها وعندها قال نصر مبهوتًا:

- أتريدون تطليق ابنتي من زوجها رغمًا عنهما!!

ارتكن آصف إلى كتف ولده متصنعًا الإرهاق والتعب وهو يقول معقبًا بنبرته نفسها الحادة كالشفرات:

- ليس نحن وأنت تعرف جيدًا يا نصر .. إنها أحكام القبيلة .. فما دامت ابنتك لا تزال في بيتك معقود عليها فقط فمن حق القاضي أن يفرق بينهما ويزوجها لآخر في اليوم نفسه، ولحفظ ماء وجه القبيلة وافق ولدي على الزواج منها لأجل إنقاذنا فقط من العار الذي ألحقته بنا!

حكمه وضع كلمة النهاية لتلك الجلسة التي حملت خطايا لم تعرفها قبيلتهم منذ نشأت وحتى اللحظة، نهض الشيوخ للمغادرة بداخل كل منهم صراع لم يتم حسمه بعد.

تعمد خاطر الانصراف خلف الجميع تاركًا عصا نصر تحمل كفيه وفوقهما جبينه المُتعب، صعد آصف العتبة المرتفعة بمساعدة ولده الذي التفت نحو خديجة التي لم تتحرك من مكانها بابتسامة أشعرتها بالاشمئزاز وتغضنت لها ملامحها وهي تهمس:

- يسرني أن أمحو تلك الابتسامة المقرفة عن وجهك المتعجرف هذا!

توقف آصف كما فعل خاطر الذي كان يرد عليها حانقًا:

- ومن سيفعل هذا، مروض الخيول خاصتك .. المختبئ كالفئران!

بادلته الابتسامة الساخرة مثبتة نظراتها لا تريد حتى أن ترمش وكأن نظراتها قد ماتت فوقه وهي تجيبه:

- زوجي أتركه للأمور الكبيرة، أما الأمور التافهة فأنا كفيلة بها!

تفلتت ضحكة من فم آصف وهو يلتفت نحوها قائلًا:

- لكِ لسان كالحية يا بنت الشيوخ .. سمهُ زعاف!

- يسعدني أن ألفه حول رقبة كل من يحاول التقليل من شأن شيخ القبيلة ليأخذ مكانه الذي لا يليق بالطامعين.

أفلتت منه ضحكة أخرى صغيرة ويحرك رأسه يمنة ويسرة ويحث ولده على الاقتراب منه لينصرفا، وبمجرد أن مر بعتبة الدار الخارجية وصارا وحدهما استند آصف إلى كتف ولده وهو يهمس في أذنه ضاحكًا:

- لولا أن زواجك منها ضروريٌّ لخِفت عليك من أن تبيت معها في غرفة واحدة.

❁ ❁ ❁

خطواتها الأولى أعلى السُلم كانت مرتجفة حد التمسك بسوره لعدم السقوط المخزي، كان يسبقها بدرجتين فقط قابضًا على شمعدان أثري تشتعل فيه شمعة واحدة بين خمس منطفئات، وهي تتبعه بصمت، تسير خلف ضوء النار مدركة لما قد يصيبها من احتراق، لا تعلم إلى أين سيأخذها، أخبرها منذ قليل أن عليه الترفيه عنها لذلك ستتبعه في جوله داخل القصر!

عشر درجات وبدأت تشعر بالدوار، السُلم الحلزوني يُشعرها بأنها تهبط إلى الجحيم في خلال أرجوحة خطرة الارتفاع، كل شيء يدور من حولها، دوران نيران الشمعة التي تسبقها في يده، حاولت تنظيم أنفاسها المختنقة بينما صدرها يضيق، هل كانت تفكر منذ عدة أيام في الزحف فوقه للهرب!

اقترب البهو للغاية مما جعلها تتوقف برهبة ملتفتة للأعلى ترفع رأسها وتنظر، هناك يرقد الجزء الأصغر من مخاوفها، أما الآن فهي متوجهة ربما لحتفها.

- تحركي!

عادت إليه وقد باغتتها كلمته المتعجبة من وقفتها تلك وأومأت موافقة محدقة بخوف، البهو لا يختلف كثيرًا، كما رأته بالضبط من بين أعمدة السور في الأعلى، كل ما زاد عليه أنه بات أشد رعبًا حيث كل شيء أخذ حجمه الحقيقي، في الليل لا قيمة لتلك الفراغات في الباب الكبير، الظُلمة لا تحتاج إلى التسلل من بينه كما يفعل ضوء النهار، لأنها تطغى، هي السائدة هنا والسائد هو الأقوى!

- إلى أين نتجه؟!

قالتها هامسة محدقة بكل ما حولها من جدران سوداء وأثاث متفحم، تكادُ تجزم أن الحريق بدأ من هنا، طاولة الطعام الكبيرة كماهي تحتجز جزءًا كبيرًا من الركن الشمالي للبهو، عبارة عن قطعة سوداء بيضاوية الشكل يعلو سطحها قطع أخرى مستديرة أكثر سوادًا تباين أحجامها بدت كأطباق وصحون، بينما المقاعد متباعدة منقلبة رأسًا على عقب، فجأة قفز فأر من فوقها فصرخت متراجعة للخلف:

- كانوا يتناولون عشاءهم الأخير!

شهقت وهي تستدير إليه مجددًا بعد أن كانت تتبع الفأر بعينيها والذي اختفى عند الباب بينما هو يتابع شاردًا عنها:

- دائمًا ما كان هناك مقاعد شاغرة!

تقلصت معدتها، تجمع يديها حولها لتحتضن جسدها المرتجف بينما هو يعود ليتحرك من جديد فتتبعه بساقين مرتعشتين، سار حتى وصل إلى أحد الأعمدة الكبيرة في الزاوية ليختفي خلفه هو وشعلته، فأسرعت خلف مصدر الضوء الوحيد لتلحق به ولتجد نفسها بداخل ممر قصير يؤدي إلى حجرة فسيحة من الوهلة الأولى للهياكل المحترقة للأجهزة التي كانت كهربائية يومًا ما أوحت لها بأن الحجرة لم تكن سوى مطبخ القصر!

كان لديهم في بيت أبيها بعضٌ منها مركونة بجوار التنور الذي يستخدمونه للطبخ والخبز والذي صار أكثر نفعًا منها بعد أن انقطعت الكهرباء بلا رجعة!

لا تعلم لماذا يأخذها إلى هناك ربما كانت ستسأله لو كان توقف قليلًا، لكنه تابع خطواته وهو يتجه نحو أحد الجدران بجوار حوض الغسيل،

وضع الشمعدان فوق الحوض واطمأن إلى ثباته قبل أن يستدير ويدفع الجدار جانبًا.

حدقت سلام في الجدار وهو يتحرك بصعوبة جانبًا ليظهر من خلفه سواد آخر وليل جديد، وليزيل عتمته تناول الشمعدان ثانية واخترق به ما خلف الجدار، سارت كالمنومة وكأنما يربطهما حبل غير مرئي فكشف ضوء الشمعة عن سُلم آخر، يتسع لشخص واحد ودرجاته تكاد تُعد على أصابع اليدين.

توقف هناك واستدار إليها فتجمدت مكانها وهي تراه يتفحص ملامحها بينما ضوء الشمعة ينعكس على ملامحه لتبدو أكثر شرودًا وهو يقول لها مبررًا:

- بالأمس، لعبتِ دور شهرزاد وقصصتِ عليّ حكايتك دون أن أطلب، ربما تهربين من السيف كما كانت تفعل.

زاغت نظراتها بحيرة حقيقية هامسة بدهشة:

- هل هي قريبتك؟!

يبدو أنه ابتسم لأنها لمحت وجنتيه ترتفعان لأعلى في وضع يشبه الابتسام قبل أن يستدير طالبًا منها أن تتبعه، تشبثت بالسور الخشبي بينما تهبط على مهل محاولة تقليل صوت الطقطقة الصادرة عن درجات السُلم.

رأته يتجه إلى منضدة مرتفعة وبدأ في إشعال كل الشموع واحدة تلو الأخرى، كل واحدة منها قادرة على سحب شهقة دهشة خافتة مختلفة عما قبلها، كلما زادت الإضاءة اكتشفت عالمه السري أكثر فأكثر.

تقف الآن متسعة العينين وسط قبو فسيح توفرت فيه كل أسباب السكن برغم كل صناديق المعدات التي تشغل ركنًا كاملًا به، نسخة مطابقة لغرفة النوم في الأعلى والتي لم تفارقها إلا منذ لحظات، السرير نفسه العريض والخزانة والمرآة، إلا أن الأثاث لم تمسسه نار وكأنه منفصل عن القصر وما حدث فيه من كارثة، برغم الغبار الطفيف الذي لا يُقارن بما هو في الأعلى إلا أن المكان يصلح للعيش والتخزين معًا، وبالطبع المبرد الكبير والتلفاز تم استخدامهما كمناضِد مغطاة بمفارش ذهبية، الشيء المختلف هنا هو الرائحة!

ذكرتها رائحة المكان من حولها بالطين الذي كانت تقوم بجمعه على ضفة النهر الجاف لتذهب به إلى أختها لبناء الأفران الطينية، مذ كانت صغيرة وهي تحب الطين ورائحته المختلطة برائحة خبز أمها وتجد فيه شيئًا يشبهها!

- اختاري.

جذبها صوته إلى حيث يقف أمام الخزانة الكبيرة المفتوحة ويشير للثياب المعلقة بداخلها، التفتت تجمع شعرها المبعثر وكأنما أشعرتها الثياب الأنثوية الكثيرة التي أمام ناظريها بأنها إحدى الإناث!

- أختار ماذا؟!

- ما يناسبكِ.

حركت رأسها نفيًا لا تعلم ما تنفي بالضبط إلا أن الأمر بدا جنونيًا إلى حد كبير، الثياب الأنثوية تشبه ما يرتديها هو الآن، كلها باللون الرماديّ الذي طُبعت عليه رسومات الطاووس بألوانه المتعددة بشكل متداخل، قياساتها جميعًا مختلفة ومعلقة بترتيب تصاعديّ من الأصغر للأكبر، لمستها بفضول، ليست معتادة على ملمس الحرير لذلك دغدغ

ملمسه حواسها المشتقاة لبعض من الرفاهية والنعومة قبل أن ينساب من بين أصابعها راحلًا هامسة بما يعتمل بصدرها:

- لست معتادة على ذلك النوع الفاخر من الأقمشة

- أنا لم أرده يومًا، وبرغم ذلك دفعت ثمن خيوطه واحدًا واحدًا!

- إذن لماذا ترتديه؟!

لم يجبها فشعرت بتفاهة سؤالها وارتفعت دماء الحرج إلى رأسها محاولة تبرير عبارتها بتعثر:

- آسفة.. أقصد أنت رجل فلماذا..

تبحث عن كلمة مناسبة ولا تجد، وفي ظل دوامة تعثرها لم تنتبه لارتفاع وجنته مجددًا وينحني برأسه فقط نحوها يسألها :

- هل تجدينني رجلًا؟

توقف تعثر لسانها في الحال وكادت تبتلعه بالكلية وهي تحدق به، وترتفع كتفاها بتلقائية تجيبه:

- نعم .. لكن هذه ..

تشير بعينيها إلى ثيابه وهي تتعثر في حروفها من جديد، لكنه لم يفهم، فقد ترجم عقله كلمة «لكن» بشكل مختلف عما كانت تقصده، ليصرخ بوجهها:

- لكن ماذا؟

بالنسبة لها لم يكن مجرد صراخ، كان كسمكة قرش تريد ابتلاعها وقد تغيرت تعابيره كلها وصارت قريبة إلى الإجرام، فتراجعت معتذرة برعب:

- آسفة .. آسفة.. آسفة

لكن غضبه قد أفلت من عقاله وتكسر ذاك الجليد الذي كان يحيط نفسه به منذ فتحت عينيها ووجدت نفسها في قصره للمرة الأولى، قبض على رسغها بقوة وجرها خلفه، صعد بها سُلم قبو حتى كادت تسقط عدة مرات ولكنه لم يكن بوعيه لينتبه حتى لوقوعها بالبهو فجذبها من جديد بقوة لتنهض، ألم رسغها يتصاعد مع صعودها السلم الحلزوني الملتف.

وأخيرًا دفعها بداخل محبسها الأول تاركًا يدها فسقطت أرضًا جالسة، أسندت ظهرها بيديها تدفع بقدميها لتتراجع بعيدًا عن تقدمه الشرس نحوها حتى التصق ظهرها بالجدار، وهي لا تزال تعتذر مرارًا وتحرك رأسها باكية تلهث بينما صدرها يعلو ويهبط بانفعال الخوف والجري معًا:

- لم أقصد .. أنا فتاة غبية.. لا أحسن الكلام.. سامحنى ولا تؤذني أرجوك..

وتيرة حركة صدره لم تكن بأقل منها، فإن كان ما يحركها الخوف، فالغضب هو من يشعله ويكاد الألم يفتك به، الشمعدان الذي يمسك به تنعكس ناره فوق وجهه وهو يقف أمامها بطوله الفارع ربما كان سيصيبها بنوبة قلبية وقد عاد إلى دوره في الحكاية للقيام بدور الوحش!

تركها الليلة كلها بعد أن غادر كالإعصار، ومع كل ساعة تمر، تعصر فيها عقلها لتجد الخطأ الذي ارتكبته دون أن تصل إلى أي شيء تدرك به سر تحوله المفاجيء والجنوني هذا، هو لم يكن أغرب ما حدث لها تلك الليلة، بل الأغرب منه أنها وبالرغم من كل ما عايشته من خوف ما زالت تحرك قدميها!

ربما لأن الخبر الجيد فيما حدث أن قوة إمساكه لها جعلتها توقن بأنه بشري مثلها كما آلمتها بالضبط، ولكن منذ متى والبشر يشعروننا بالاطمئنان، هل لأنه كشف لها عن مخبئه السري الذي جعلها تستوعب كيف لبشر أن ينجو من ذلك الاحتراق المهول الذي قضى على كل شيء؟ بالتأكيد ليست أسبابًا كافية، هناك أسباب أخرى لم تكتشفها بعد لتفسر ردة فعل قدميها!

- التفاح.

التفتت جهة الباب إلى حيث كان واقفًا هناك ممسكًا بصحن التفاح بين يديه، تفاجأت وألجمت وقفته تلك كل حواسها، إنها المرة الأولى التي يزورها فيها نهارًا، كانت كل زياراته لها ليلية، الآن تراه بشكل أوضح مع خيوط الشمس، الاختلاف لم يكن كبيرًا فقط قام بحلق شعره بالكامل!

اقترب منها بخطوات فاترة واضعًا الصحن بالقرب منها، ابتلعت ريقها خائفة من مجرد التفوه بكلمة شكر، لاحظ هو حركة حلقها صعودًا وهبوطًا فأشاح بوجهه قائلًا بنبرة خفيضة مختنقة بذنب الأمس:

- آسف.

- لا بأس!

كان ردها سريعًا جدًا مما جعله يعاود النظر إليها بإمعان، بينما هي تبادله النظر بالتحديق لا تدرك هل تملك وحدها بئرًا للتسرع احتكره لسانها وحده أم ماذا!

- هل تريدين الخروج من هنا ؟

- لم أعد واثقة.

قطب حاجبيه يتفحص التحرك السريع لبؤبؤ عينيها، بينما هي ترد وكأنها في سباق، لدرجة شعوره بلهاثها الخفيض يتبع كل جملة قاطعة تجيبه بها

- سأذهب لأعتني بشجيراتي

اعتدل جذعه واستدار ليغادر متابعًا:

- أهملتهم منذ قدومك!

اختفى عابرًا الباب للخارج فما كان منها إلا أن نهضت مسارعة نحو النافذة، تختبئ خلف أحد حوافها ترقب الشجرات المثمرة القريبة من النافذة، لحظات وظهر أمامها حاملًا قارورة كبيرة أنزلها عن كتفه قرب مساحة مستديرة تتوسط الشجر وبدأ يسقيها بروية، يبدو أنها بذور وليدة يقوم بسقايتها، تابعت حركة يده الرتيبة وعقلها يسترجع سؤاله الأخير، تعود إلى من، وإذا ذهبت فإلى أين؟ إنها لا تعرف معلومة واحدة عن القبيلة التي كانت ستتجه إليها، كل ما عرفته عبر سنوات عمرها بأنهم الأعداء الذين دارت بينهم وبين بلدتها حرب كبيرة مات على إثرها شباب كُثر، وأنهم يسكنون بعد حدود الغابة المُحرمة التي لا يعبرها أحدٌ سوى الساحر مطوع الأسياد ومولانا صاحب الكرامات التي تخشى ذكر اسمه أمام الأول.

جلال الدين بالنسبة لها أشد بطشًا من سلطان، ففي مجالس الفتيات كانت تستمع إلى همساتهن التي تدور حوله

ذات مساء قالت إحداهن بنظرة حالمة:

- رأيته صباحًا يروض أحد أحصنة الحاكم، إنه قوي للغاية ووسيم، كان يطير فوق الفرس لا يمسك اللجام أبدًا أبدًا تاركًا يديه في الهواء!

شهقت هي كما تعالت شهقات المراهقات وهن يستمعن إلى الفتاة المتكلمة التي امتلأت عيناها بالنشوة وهي ترى نفسها محور اهتمام بقية الفتيات فبالغت في تربع ساقيها وطوتهما أسفلها واستقام ظهرها بحماس هاتفة وهي تحرك كلتا يديها شارحة:

- نعم كان يطير، وليس على الفرس فقط، أمي أخبرتني بأنه يذهب إلى الكعبة كل مساء ويعود بعد ساعة ويقال بأنه يصعد إلى السماء أيضًا ويجلس في حضرة اللّه، ويستطيع أن يؤذي الساحر ولكن صلته الكبيرة باللّه تمنعه.

الفتيات كن يصدقن ويشعرن جميعًا بالقشعريرة، أما هي فلم تفعل سوى أن انسحبت من الجلسة وهي تشعر بالكره تجاهه أكثر من أي وقت سابق، لو كان يملك كل هذا، فلماذا لا يمنع ما يحدث يوم الحصاد، إذا كان يجلس في حضرة اللّه، فلماذا لا يطلب منه أن يُنزل علينا المطر ويسقي البلدة العطشى، إنه يخبئ الكرامات لنفسه على عكس سلطان الذي ينفع الناس بأسياده، رأيها هذا هو الشيء الوحيد الذي لم يسخر منها أحد بسببه وهي تتفوه به أمام جمع من النسوة في السوق كن يتبادلن أطراف الحديث عن هذا وذاك، عندها علمت بأنها ليست الوحيدة التي تفكر بـ جلال الدين بنفس الطريقة، وعلمت أيضًا أن الناس يشبهون إلى حد كبير نبات السرخس الذي كان والدها يزرعه في بيتهم ليستخدمه في علاج آلام مفاصله، وتغليه والدتها لعلاج معدتها، ودائمًا ما كان يشرح لها بأنه نبات يحب أن ينمو في أجواء ظلامية رطبة!

❋ ❋ ❋

ظلت سلام طيلة اليوم تترصده من النافذة وتراقب اعتناءه بكل ما هو متخفٍّ بعيدًا عن الأنظار، حتى أنها تجرأت وخرجت من غرفتها لتقف أعلى السُلم لتراقب عودته للقصر، ولكنها لم تستطع الملاحظة الجيدة إلا بما يجود به عليها ضوء الشمس المتسلل من بين فراغات الباب، لابد أنه يستخدم الباب الخلفي الذي شاهدته في الحجرة التي كانت مطبخًا يومًا ما.

شارف اليوم على الانتهاء ولم تتناول سوى ثمرة واحدة، دور المخبر السري يسليها كثيرًا وقد تبدد جُل الخوف من رأسها ليحل محله الفضول، غريزة الأنثى التي ولدت بها، حب الإغراق في التفاصيل!

إلا أن شجاعتها الوليدة تلك كانت تتقهقر دائمًا بعد الدرجة الثانية فوق السُلم، ثم تعود أدراجها من جديد حيث النافذة، ترك الحديقة منذ أكثر من ساعة، حل الغروب ولم يظهر حتى الآن، يبدو أنه ما يزال غاضبًا منها وبشدة.

صوت تحركات آتية من الرواق جذبها فالتفتت بحذر، حثت الخطى بهدوء حتى ألصقت ظهرها بالجدار المجاور لحافة الباب تتنصت، خطوات أقدام تقترب من غرفتها جعلتها تحبس أنفاسها، توقفت قرب الباب لحظة قبل أن تبتعد من جديد إلى السُلم، حركت رأسها الملتصق بالجدار وهي تُبعد شعرها لتفسح الطريق لعينيها بينما تشرئب برأسها فقط للخارج!

شاهدته يقف على نفس الدرجة التي كانت تتراجع عندها شجاعتها دومًا، لم يستغرق توقفه دقيقة قبل أن يستكمل رحلة هبوطه ثانية،

اطمأنت بأنه هو وليس أحدًا آخر ممن يسكنون مخيلتها المرتعبة على الدوام فسبق لسانها التفكير كعادتها لتناديه على الفور:

- مالك.

نبرتها وصلته كشخص يتشبث به بجذع، دون أن تعرف أنه هو من سيلتفت على الفور ليتشبث باسمه من فمها، التفاتته كانت سريعة مباغتة لدرجة أنها تراجعت كطفل قام بكسر تحفة ثمينة دون قصد، عندما تحرك نحوها بلهفة ارتبكت فلم تفهم بعد ردود فعله الغريبة تجاه كلماتها، لم تكن تعلم أنه لم يكن مجرد نداء، لقد كانت تعترف برجولته، بأنه مالك، وهذا كفيل بجعله يطير إليها ليلبي النداء:

- هل ناديتني؟

سؤال يرجو إجابة واحدة لتمنحه له سريعًا مجيبة:

- نعم.. آسفة لو..

- لا عليكِ.. اطلبي.

ما يزالان يقفان عند الباب، لم يدخل ولم تخرج إليه، مقاطعته لها متخمة بالاستعداد لأن يفني نفسه مقابل ذاك النداء الغالي:

- اعتذر لو أغضبتك بالأمس

- سامحيني على حماقتي بالأمس!

من قال إنه غضِب، لقد اشتعل وظل مشتعلًا حتى اطفأته بندائها، سكبت فوقه صك اعترافها به وذيلت طرفه بتوقيعها، الشخص الثاني في هذا العالم الذي ناداه باسمه، مالك وليس مليكة!

- كيف نجوت من الحريق؟!

سألته بينما تحدق به، لم تفهم سر محادثتهما الغريبة وغير المرتبة، الحوار بينهما يبدو كإبحار بلا بحّار، مجرد شراع مشقوق من المنتصف يمتد للعمق كلسانهما، لا تجبر نفسها على التوقف عن السؤال عما لا يعنيها والذي ربما يودي بها إلى تهلكة ما.

ولا يرد بأجوبة منطقية تفهمها، بل يطرح لها أحجية، مجرد رموز وعليها حلها إن كانت بالفضول الكافي لمعرفة الحكاية!

- ومن قال بأنني نجوت! ربما أنا شبح عالق بين الحياة والموت، أو مجرد وهم، أو كابوس تعيشينه منذ أيام!

❋ ❋ ❋

مُلقى على شاطئ البحر، جانب وجهه مدفون بين الرمال والقواقع، عارٍ تمامًا، وخزته السُحب بالندف المتساقط وخزَ الإبر، يفتح عينيه فيرى الأفق وقد امتد أمامه رماديًا، أطرافه تصرخ بالألم وصوته محتجز في حلقه، يحدق في تلك الموجة التي ترتفع وسط اليم كالجبل وتسير نحوه وكأنما لها أرجل تمشي بها، الهلع وحده ولا سواه جفناه معلقان بين السماء والبحر ليشعر فجأة بأنياب تنغرز في ظهره بينما يسحبه الموج إلى الغرق، تحركت إحدى يديه فتشبث بالرمال، لكنها انسلت من بين أصابعه، يختلط دمه المتدفق بالمياه ليتحول إلى الأحمر الدامي، يدفع الماء بيد واحدة ليطفو، مع كل دفعة يغرق أكثر حتى انهارت قواه مع كل شهقة يفتح لها فمه فتتدفق دماؤه إلى حلقه بغزارة، حتى امتلأت رئتاه بالدم واختنقت شهقات الموت في صدره، هدر البحر فجأة بزئير له نبرة مفهومة أرعدت ما تبقى من أنفاسه الأخيرة، تضج لها السماء والأرض «وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ»

ارتفعت آخر شهقاته التي استيقظ على إثرها بهزات قوية بينما ليلى تناديه:

- سلطان .. استيقظ!

نهض فزِعًا بينما العرق ينصب من جبينه صبًا حتى أغرق الفراش أسفل ظهره، يحدق بزوجته بجنون، خافقه يضرب بلا رحمة، عيناه تدوران في الغرفة بجنون، تناولت كوبًا من الماء بجوار الفراش ومدت يدها به ليشرب، فنظر إلى الماء بذهول قبل أن يرفع عينيه إليه ثانية بضياع حقيقي، وقبل أن تفتح فمها قفز من الفراش وكل خلية من جسده تنطق هلعًا ليسقط أرضًا بجوار السرير ساجدًا!

عُقد لسانها وهي تحرك رأسها نفيًا وتنظر إلى جسده المنتفض سجودًا بينما صوت بكائه يعلو ويهبط، شهقات تتبعها أخرى حتى خُيل لها بأنه تُزهق أنفاسه ويحتضر، لم تجرؤ على التفوه بحرف ولا أن تصدر صوتًا، خمس عشرة دقيقة كاملة قبل أن يعم الصمت من جديد، فتجرأت ناهضة نحوه، ركعت أمامه تحاول رفع رأسه عن الأرض، لكنها كانت أثقل مما تبدو، كانت تريد التأكد بأنه لا يزال حيًا، أخفضت رأسها نحوه ونادته هامسة بتوتر:

- سلطان!

لم يجبها فكررتها ثانية وثالثة حتى استجابت أطرافه وبدأ بالتحرك، ساعدته على رفع جبهته عن الأرض، حتى أجلسته على طرف الفراش وملامحه غارقة بين شلال من الدموع:

- ماذ يحدث معك يا أبا الأولاد!

دقائق مرت احتاجها ليلتقط أنفاسه المسروقة قبل أن يتمتم بحشرجة وعيناه تحرقانه كأشد مما يكون:

- لا أعلم..

مفصحة عن قلقها قالت مستفهمة:

- كيف لا تعلم، منذ أن جئت ذاك الصباح وأنت بحال غير الحال وتستيقظ صارخًا كل ليلة وكأنك كنت تنازع الموت، صارحني ماذا حل بك؟!

- لا شيء، عودي لنومك يا ليلى.

استند إلى حافة الفراش معتدلًا بتعب يرتدي خفه جالسًا قبل أن يدفع نفسه يجبرها على النهوض سحب عباءته المعلقة فوق المشجب وارتداها

كيفما اتفق بينما هي تراقب تحركاته الواهنة تزوي ما بين حاجبيها بعجب تسأله:

- أين ستذهب هذه الساعة؟

لم يرد، غادر البيت مغلقًا خلفه الباب دون أن يلتفت إليها، لقد تغير كثيرًا والإشاعات حوله تسري كالنار في الهشيم، تلتهمها الأعين في سوق البلدة، كل عين منهم تقذفها بكومة من علامات الاستفهام، لماذا لم يعد سيدنا يستقبل الحالات التي تذهب إليه؟ لماذا رفض النذور بالأمس؟! تسبح في بحور تتلقفها بين استفهام وتعجب بينما هي لا تملك إجابة تشفي صدورهم!

❋ ❋ ❋

كان قد استيقظ من نومه قبل ساعة ليؤدي ما اعتاد عليه كل ليلة، ممسكًا بنسخته التي لم تفارق بيته لسنوات، يقرأ وِرِدَهُ بعد أن أحيا الليل بعدة ركعات، عندما قطعت قراءته طرقات على الباب، أنصت قليلًا وعندما لم تتكرر ظن بأنه يُهيأ له! فعاد للقراءة ثانية، فتعود الطرقات من جديد، ترى من يأتيه في تلك العتمة، من المستحيل أن يكون عابدًا فلقد دخل خلوته حانقًا ولن يخرج منها قبل أيام!

في النهاية كان عليه النهوض ليرى، اشتد عوده واقفًا وهو يسحب بأصابعه سجادته المخصصة للصلاة، ووضع نسخة القرآن على المنضدة المرتفعة التي تجاور سريره البارد والخاوي حتى منه وتوجه تلقاء الباب.

- من؟

- سلطان!

هو نفسه لفظ اسمه متعجبًا، لو كان أحد أخبره بأنه سيذهب إلى جلال الدين ذات يوم بتلك الطريقة لكان سلط عليه كل أسياده دفعة واحدة، ربما ما يزال يحلُم، ربما لم يستقيظ بعد!

وبنفس الدهشة وربما أكثر نظر إليه جلال الدين عبر الباب المفتوح بينهما، أي شر أتى بك يا ابن العاصي في تلك الساعة!

- ماذا تريد؟

لفظها جلال الدين بهجوم مباغت متحفزًا في وقفته، لكن النظرات المشتتة القلقة في عيني غريمه أخبرته بأن زلزالًا ما قد ضرب البلدة فانقلبت رأسًا على عقب، لاشيء آخر سيأتي بـ سلطان إليه، وحتى في هذه الحالة فلن يأتي إليه إلا ليتأكد من موته فقط

- أدخلني لبعض الوقت فقط.

لم تعد تلك الشرارات الجنونية التي كانت تحيط كل لقاء بينهما موجودة، فأمامه الآن رجل مطرق شاحب الوجه زائغ النظرات!

أفسح له طريقًا للدخول دون أن يترك وقفته المتحفزة، دلف سلطان للداخل وبداخله يسأل «ما الذي أتى بي إلى هنا ؟!»، لم يعنه كثيرًا أن ينظر حوله، تنحى الفضول جانبًا أمام الإحساس الغريب الذي ينتابه ولا يستطيع أن يضع يده عليه.

- استرخِ يا بن الراوي.

خرجت عبارته مصاحبة لتنهيدة قصيرة يخفف بها أعباء مشاعره المختلطة متخذًا أول أريكة قابلته مجلسًا، تبعه جلال الدين بجلسته التي لا يقوم بها إلا عندما يكون غير مرتاح، يرتكز بساعده إلى يد المقعد بينما ساعده الآخر ينثني قليلًا ضامًا لقبضته واضعًا إياه فوق فخذه:

- هل تتخذ وضع اللكم هكذا دائمًا!

مررها جلال الدين فلم تصله كعبارة ساخرة أبدًا، الحروف تختبئ خلف مزاح ضائع، لا أول له ولا آخر فقال مباشرة:

- ما الذي أتى بك؟

- لا أعلم!

تفحصه جلال الدين وهو يرفع كتفيه ويخفضهما بينما أهدابه قد انتفخت حتى اختبأت خلفها عيناه المحمرتان بلون الدم وقد فقدتا كل بريق لهما حتى كادت تنطفئ تمامًا وهو يتمتم:

- أخشى أن أُصدق ما يدور عنك بين الناس!

- الناس يبالغون دائمًا.

- أيوجد احتمال أن تُخبرني الحقيقة بنفسك؟

- لماذا تهتم؟!

- ربما لأنك في بيتي قبل طلوع الفجر!

- لماذا قلت لي عند الجبل أن أستخدم سلاحك إن خفت على نفسي، لم فكرت في مساعدتي من الأساس؟!

استرخى جلال الدين في مقعده مستندًا إلى ظهره عاقدًا ساعديه فوق صدره، يبدو أن هذه الليلة العجيبة لن تنتهي، فهناك راع للغنم يحكي في الأسواق عن الساحر الذي وجده ملقى أسفل جبل داو، بينما الأولاد في المدرسة يحكون له عن أمهاتهم اللاتي يعدن من بيت الساحر وقد رفض استقبالهن أو قبول نذورهن كالمعتاد، في الأمر سر يثقل كاهل سلطان وربما لم يجد سواه ليأتي إليه ويحمله معه!

- لأكون صادقًا .. لو كنت في تلك الليلة قابلت شياطينك أنفسهم لكنت عرضت عليهم المساعدة! لكن وبعدٍ أن وصلني ما يُقال عنك منذ صبيحة اليوم التالي مباشرة وأنا أفكر بأنها لم تكن مصادفة ولا مجرد مزاج رائق منيّ، لقد كنت مدفوعًا بمشيئة أخرى أكبر مما ظننت حينها.

عم السكون للحظات والوجوم على وجه سلطان هو سيد الموقف، ثم نهض ببطء وكأنما اكتفى بما سمِع، ولكن جلال الدين هو الذي لم يكن قد اكتفى بعد، وقف قبالته يوقفه عن المغادرة متسائلًا بحذر:

- هل استخدمته؟!

أطرق سلطان ثانية ومشاهد أعلى الجبل تطارد ذكرياته حتى باتت تقفز من رأسه مرتعبة فتقلص وجهه وهو يشعر بحرارة جسده ترتفع قائلًا بخفوت:

- نعم.
- لا أُصدقك.

خرجت منه بحدة فرفع سلطان وجهه يناظره بدهشة متسائلًا:

- ولماذا؟!

بسط جلال الدين كفه على صدره بينما عدم التصديق يطل من عينيه بضراوة وهو يرد:

- لأنني حتى لو سلمت بأنك كنت تحفظها، فلن أُسلم بأن مجرد ترديدها يحفظك، الأمر في الإيمان الراسخ بكل حرف فيها يا بن العاصي، وليس في ترديد الكلمات.

غمامة قديمة يزيد عمرها عن عشر سنوات أظلت نظراته فحجبت عنه الرؤيا فقال وكأنما ينظر إلى زمن آخر وكأن جسده انتقل إلى مكان آخر ليستشعر كل ما شعر به وقتها هامسًا:

- ذات يوم .. كان رسوخها داخلي أقوى مما تظن يا بن الراوي .. وكل ما فعلته فوق الجبل أنني فقط تذكرته فملأني في لحظة خاطفة وأنا أتلوها فوجدتُ نفسي أسقط من فوق داو وأتدحرج وفقدتُ وعيي!

تمعن به جلال الدين وهو يراه مشتت النظرات يتكلم دون رغبة حقيقية في الإفصاح، هناك جانب ما من ساحر داو لم يعرفه عنه أحد، جانب لم يستطع السحر أن يمحوه بالكلية !!

فتح سلطان الباب ليغادر وبمجرد أن عبر من خلاله توقف مستديرًا نحو جلال الدين قائلًا بجدية:

- سأسدي إليك نصيحة بلا سبب كما فعلت معي، لا تثق بـ عابد!

❀ ❀ ❀



عندما عاد سلطان إلى بيته لم تكن ليلى تفعل سوى ذَرع الغرفة ذهابًا وإيابًا، كانت تنتظر دون أن تعرف ماذا تنتظر بالضبط، هل عودته أم كارثة تتوقعها!

تابعته بنظراتها وهو يُغلق الباب خلفه بهدوء قبل أن يتجه مباشرة نحو الرواق القصير المؤدي إلى غرفة الاستحمام مرورًا بالبهو، انتظرت في غرفة نومها تنظر من بين الباب وحافته حتى سمعت خطواته تغادر الرواق، دققت النظر أكثر لتجد رأسه يقطر ماء ممسكًا بمنشفة متوسطة الحجم يجفف ساعديه، خرجت بخفة تتبعه حتى دخل الغرفة التي لم تعد ملكية خاصة للأسياد، وفي محاولة أخيرة لتكذيب ما هو أوضح من ضوء الشمس، تلصصت عليه ملتصقة بالجدران تُلقي بصرها للداخل.

كان يقف في وسط الغرفة التي شهدت سجوده لشياطينه في طاعة تامة مقابل طاعتهم له، لكن هذه المرة كان يقف أمام المنشفة التي كان يجفف يده بها منذ لحظات وقد قام بفرشها على الأرض، مُسدلاً ذراعيه بجانبه قبل أن يرفعها بجوار أذنيه مُكبرًا، الله أكبر!

كتمت شهقتها بكفها وهي تتراجع خطوة مدهوشة، ماذا يفعل! ربما عيناها تخدعانها، تقدمت مجددًا لتنظر، كان لا يزال على وقفته نفسها كل ما زاد عليه أنه واضع يمينه فوق شماله على صدره.. ويبكي!

تراجعت من جديد مصعوقة، وظلت تتراجع بظهرها للخلف حتى ارتطمت بجدار البهو الذي يفصله عن غرفة النوم، أسرعت تدخلها وتغلق الباب جالسة على طرف الفراش، تهمس بعينين تنطقان بالغضب:

- مستحيل، ماذا أفعل الآن، ماذا أفعل..!

ظلت تكررها وهي تضرب ظاهر فخذيها بكفيها وتلطم خديها كاتمة صراخها الذي يموج به صدرها، صهاريج من النقمة والكره تصهر قلبها، فتطحن أسنانها بينما تنطق باشتعال وقد اتسعت عيناها أكثر تحدقان في الفراغ:

- لن أتركك تفعلها يا سلطان، وحق أبي الذي مات مقهورًا لن أتركك!

❁ ❁ ❁



- الضيفة لا تزال تنتظر الإذن بالدخول يا عظيم داو.

أشار الحاكم إشارة موافقة بكفه دون أن يرفعها عن حجره بكسل واضح، فأومأ الحارس برأسه مطيعًا وهو ينسحب من قاعة قصر الحاكم بظهره محافظًا على انحناء رأسه حتى أوشك أن يعبر الباب العريض، هنا استقام مستديرًا على عقبيه برشاقة مغادرًا.

لحظات وعبرت الضيفة من الباب نفسه للداخل متشحة بالسواد الذي يغطيها من رأسها وحتى أخمص قدميها، لا يظهر منها سوى عينيها المكحلتين تنظران إليه بقوة وثبات قائلة:

- انتظرت الإذن بالدخول كثيرًا.

- أمور الحكم يا جميلة.. اكشفي عن وجهك فلا أحد هنا غيرنا.

كشفت عن وجهها وهي تتلفت بعينيها بخفة في المكان قبل أن تعود إليه، يجلس على كرسيه العريض المذهب بجوار مدفأة الحطب الخامدة، فلم يحل الشتاء بعد، المقعد يشبه العرش إلى حد كبير، يبدو أنه يحب تلك الحقبة الزمنية ويود لو حكم في خلالها، يعشق أن يكون سلطانًا وتُسكره كلمة عظيم، يفضلها على اسمه، حتى على صفته كحاكم البلدة، فبالرغم من أنه حكم بالتزكية بعد أن كان وزيرًا له كلمته في حكم البلدة، إلا أن شيئًا ما بأعماقه وعلى مدار عشرين عامًا من حكمه يخبره دائمًا بأنه مجرد صعلوك، ذاك الشعور الذي يدفع عمره المتبقي مقابل أن ينتهي بداخله!

- ماذا عِندك يا ليلى؟

أسدلت ليلى وشاحها الذي كانت تخفي به وجهها وتنفست بعمق قبل أن تقول:

- سلطان حالته غريبة.

- وصلتني أخباره.

تناولت طرف وشاحها مستعدة للنهوض قائلة:

- إذن فلا داعي لوجودي هنا

اعتدل في مجلسه وهو يشير إليها آمرًا:

- لا تتحركي إلا بأمري.

لم تهتز نظراتها قيد أنملة وهي تستريح في جسلتها مستندة بظهرها إلى مقعدها المقابل له بينما عيناها مُعلقتان برقعة الشطرنج الموضوعة فوق الطاولة قبالته بعناية شديدة والأحجار المتناثرة فوقها وكأنه كان يلاعب أحدهم قبل دخولها.. وقالت:

- منذ صعوده إلى جبل داو وعودته للبيت صباحًا وهو في حالة لم أشاهده عليها من قبل.

أومأ لها برأسه لتتابع مسترسلة بشرود:

- لقد.. لقد فتح نافذة غرفة الأسياد وأعاد طلاءها!

ارتفعت ضحكات الحاكم وارتجت لها وجنتاه المترهلتان وهو يسألها بلعاب متدفق عن سرير الضحايا، بينما ليلى ترقبه بجمود، تتعامل معه شخصيًا منذ سنوات وتعرفه، هو لا يضحك هكذا إلا ويتبع ذلك استهانته بمن أمامه وإطلاق العبارات السخيفة، واستعراضه بمعلوماته.

ولم يخب ظنها، توقف فجأة كما ضحك فجأة قائلًا بصرامة كَسَتْ وجهه دفعة واحدة:

- ألم تريه يصلي أيضًا؟

امتقع وجهها وهي تحرك رأسها بـ لا، فداعب خاتمه الذهبي الساكن سبابته وهو يقول مفضيًا بما لديه:

- في كل الأحوال لم أعد أعتمد عليه، وسيأتي دوره آجلًا أم عاجلًا.

- متى لقد طال الأمر؟

خرجت من فمها بلهفة جعلته يبتسم ويرفع سبابته ليحذرها قائلًا:

- عظيم داو لا يُسأل عما يفعل يا ليلى!

زمت شفتيها بقوة وقد تغضن وجهها وانغلقت ملامحها الجميلة وهي تُعيد السؤال وتكرره بعقلها، إلى متى؟! .. إلى متى ستظل تهنأ بحياتك يا سلطان؟! متى سأرسلك لأبيك بيدي؟

- انصرفي الآن يا جميلة فلدي زوّار في الطريق، صحيح أن أحدًا لايستطيع فتح فمه بكلمة.. إلا أنني في النهاية رجل متزوج!

وعاد يطلق ضحكاته التي تكرهها ليلى وتشمئز منها دون أن تجرؤ على إظهار شعورها القميء هذا، فأومأت برأسها تلف الوشاح حول وجهها مجددًا منصرفة على عجل هامسة بداخلها:

- يا لسماجتك!

خرجت تتخفى خوفًا من أن يترصدها أحد ويعرف هويتها، هي ليست جبانة ولكن هناك مهمة لا بد من إنجازها، ثم بعد ذلك ستواجه الجميع بكُرهها الدفين لساحرهم، أو من كان ساحرهم حتى يوم قريب!

عادت إلى بيتها من عدة طرق متقاطعة حتى وصلت إليه من الخلف، وعندما دارت حوله وعبرت سور البيت المنخفض المحيط به من كلا الجانبين ومن الأمام، جرى نحوها أطفالها الأربع بعد أن تركوا جذوع النخيل التي كانوا يلعبون بها، فاستقبلتهم بين ذراعيها تمسح على ظهورهم بينما يشتكون إحساسهم بالجوع، ابتسمت لهم بحنان وهي تعدهم بوجبة كبيرة يحبونها، لهم ولأبيهم فهتف أحد الصغار:

- أبي ليس في الداخل لقد خرج للتو.

نظرت نحو الباب الأمامي ونهضت من بينهم وهي توزع قبلاتها على جبينهم، أسرعت نحو الباب فشاهدته ينعطف يمينًا نحو ساحة الحصاد!

❋ ❋ ❋

توقف في منتصفها تمامًا، يرقُب البِركة عن قرب، هنا كانت تلتف الفتيات ليختار أسياده منهن واحدة، هنا كان يستدعي الغراب بطلسم يردده حتى تتم الاستجابة، يحتشد الناس وفي أعينهم يتجلى الرعب الذي ينخر عظمهم دون أن يجرؤ أي والد منهم على سحب ابنته ليحميها، حتى بعد أن يختار الغراب حصاده التي تسقط فاقدة للوعي في الحال ويأمرهم سلطان بالانصراف وقد انتهت المراسم، ينصرفون في خنوع تاركين فتاتهم له.

- إذن فما سمِعته صحيح يا سيدنا!

لم يلتفت، إنه يعرف تلك النبرة المرتعشة على الدوام، بل وتحمل له الرياح رائحته التي تشبه رائحة البركة إلى حد كبير، اقترب عجوز البركة بظهره المنحني يرتكزعلى الجذع في يده، تحرك الرياح شعره الأشعث بينما هو يدور حول المياه العكرة ليصل إليه صائحًا:

- الأسياد لن يتركوك تفعلها هكذا ببساطة يا ابن صخر!

أجابه سلطان بجمود دون أن يكلف نفسه عناء الالتفات نحوه:

- ماذا سيفعلون؟

- لن تهنأ أبدًا بحياتك، لم أسمع بساحر تركهم فتركوه!

- أي أسياد تقصد يا عجوز البركة؟

صمت العجوز بينما التفت سلطان إليه لينظر إلى عينه الغائرة التي تحدق به محذرة وهو يهمس :

- كلاهما !

كلاهما، يالها من كلمة صغيرة تحوي جمعًا من الوحوش! دوامة تأخذه وترميه هنا وهناك بينما قلبه يضرب بقوة، لقد أتى ببدعة من أمره وفي وقت كان يحتاج إليهم بشدة، فبدلًا من أن يتشبث بهم ليحموه، أفلت يديه! نظرات العجوز تخبره بأنه يسقط نحو الأنياب مباشرة.. وكلاهما يستعد لقضمه!

- لماذا تحذرني، أليس من المفترض أن تكون الآن في خدمة سيدك الجديد!

استند العجوز بظهره إلى الشجرة مراقبًا للأفق البعيد والسحب التي كانت تحجب الضوء القوي لشمس الظهيرة تتكشف ببطء، أخفض عينيه ليضرب الأرض الترابية ضربتين بعصاته قبل أن يقول بنبرة كالنحيب:

- قبل أن يموت صخر بأيام، صارحني بحُلم يراوده لليال متتالية، ذلك الحلم كاد يفعل به ما تمر به أنت الآن، لكنه كان أقوى منك، عاش ومات وهو صخر العاصي!

انتبهت حواسه بشدة عندما جاء ذكر الحُلم على لسان العجوز فاستدار بجسده دَفعة واحدة مواجهًا العجوز، وقف أمامه يسأله متلهفًا:

- ماهو هذا الحلم الذي كان يراوده؟

بدا وكأن عينه قد غارت أكثر وأكثر حتى كادت تختفي وأشاح بوجهه كاذبًا:

- لم يقصه عليّ.

- كاذب.

قالها بنبرة كالفحيح بينما عيناه تبرقان، فضحِك عجوز البركة وبرزت أسنانه الصفراء من خلف شفتيه قبل أن يطَبقهما ثم يمسك بتلابيبه جاذبًا إياه بضعف، يداه ترتعشان بينما السخط هو من يحركه متحديًا سلطان بنبرة كالهسيس:

- بماذا تخيفني يا سيدنا، لم تعد تملك سوى يديك، لكن تستطيع العودة، تستطيع أن تقدم إليهم قربانًا لتجعلهم يصفحون عنك، هذه المرة سأساندك، سأصعد معك جبل داو، سأموت فداء أن تظل سيدنا حتى آخر رمق!

ليست المرة الأولى التي يسأل فيها سلطان نفسه، لماذا يُفني عجوز البركة نفسه دون أي مصلحة، إنه يعيش في كوخ ويجلس حول النار، يقص الحكايات المخيفة على الناس في الأسواق ويقوم بمهمته في جمع الفتيات حول النار كل حصاد، ليعود ثانية إلى كوخه، كالفأر يكتفي بقطع صغيرة من الطعام ولو كان عفنًا؟ إلا أنه لم يكن يتعب عقله في البحث عن جواب ما، أما الآن فلن يتركه حتى يعرف:

- لماذا تفعل كل هذا؟ لماذا لديك استعداد دائمًا لتقتل نفسك لقاء أن يبقى الوضع على ماهو عليه في البلدة، ماهي مصلحتك؟ تكلم يا عجوز من هو سيدك الحقيقي؟

الناظر إليهما من بعيد يظن بأن هناك شجارًا ما يدور، ممسكان بتلابيب بعضهما البعض، لوحة شعبية بالزيت لبرق ورعد يتباريان على إظهار قوتهما، بينما مَن يقترب يشعر بالنار الضاربة بينهما:

- الخوف.. أنا أخدم الخوف!

قالها بنبرة ممطوطة أثارت الرجفة في جسد سلطان وكأن مسًا كهربائيًا مر بين جسديهما فابتعد تاركًا إياه وهو يناظره متعجبًا وهو يكرر:

- الخوف؟!

فجأة ظهرت فتاة يافعة من بين أشجار حافة الغابة القريبة منهم، جذب ظهورها المفاجئ عيني سلطان مما جعله يلتفت نحوها فأشارت إليه بأن ينتظرها، ضيق ما بين حاجبيه وسار نحوها يتفحصها، فتاة قمحية عيناها بلون العسل، ترتدي جلبابًا فضفاضًا يضيق عند خصرها بحزام قماشي عريض، إنه يعرف تلك الملابس جيدًا، إنها تنتمي لقبيلة الراوي وحدها، يبدو أن الفتاة قطعت المسافة عابرة الغابة عرضيًا وحدها كما يبدو أنها تبحث عن أحدهم، سارت نحوه هي الأخرى بينما الحقيبة القماشية التي تحملها على ظهرها تثقل حركتها قليلًا فبدت خطواتها بطيئة، إلا أنها واصلت السير حتى توقفت أمامه رافعة كفيها تحمي عينيها من الشمس التي سطعت للتو متسائلة :

- من فضلك، هل تستطيع أن تصف لي كيف أذهب إلى مدرسة البلدة؟

تفحصها بفضول مجددًا، من يهمه المدرسة، الناس هنا تسأل عن الأسواق، عن السلع، عن الأسعار، أو حتى عن الساحر، لا أحد يهتم بالمدرسة سوى شخص واحد!

لمعت صورة غريمه في ذهنه فابتسم والخيوط تترابط بعقله منطقيًا، فقال محاولًا أن يمارس بعض السحر في حديثه:

- تريدين جلال الدين الرواي أليس كذلك؟

حدقت به بدهشة أرضته كثيرًا وهي تومئ مؤكدة:

- نعم.. كيف عرفت!

اتسعت ابتسامته مشيرًا إليها أن تتبعه واستدار يمشي أمامها وهو يهمس لنفسه:

- ألم يخبرك بأن في البلدة ساحرًا!

❋ ❋ ❋



الكلام المباح

في تلك الساعة تتجمع النساء حول الأفران في منازلهن بينما يرقد الرجال في ساعة القيلولة أسفل غصون أشجارهم، وقد اشتدت شمس الظهيرة، لم تتبادل معه الحديث طُوَال الطريق إلا أنه كان يصله همسها المتشنج الدائم بالحوقلة، تبدو مهمومة حزينة حتى صوتها يتألم، خطواتها متثاقلة لكنها جدية شديدة، لم يرَ امرأة تسير هكذا بخطوات واسعة تشبه خطوات الرجال، بينما هو يسلك بها طرقًا غير مأهولة.

يبدو أن العناد صفة موروثة متغلغلة في جينات تلك القبيلة!

- أظننا وصلنا.

نطقت بها خديجة وهي تقرأ بإمعان اسم البلدة يعقُب كلمة مدرسة كما يبدو مخطوطًا على لافتة متهالكة أعلى مبنى منخفض من طابقين فقط، واجهة الطابقين عامرة بالنوافذ المفتوحة للهواء والضوء.

ودون أن تلتفت إليه اتجهت مباشرة تتبع أصوات الفتية المتداخلة الآتية من الداخل حتى وصلت إلى إحدى نوافذ الطابق السفلي.

لم تكن تدري أن سلطان يتبعها، وبأنه اقترب هو الآخر من نافذة أخرى مجاورة للنافذة التي استندت عليها تنظر لما يدور.

رأته يجلس على رأس حلقة بينما الصبية يتحلقون من حوله، لم تكن هذه الصورة التي طالما تخيلتها خديجة عن المدرسة ولا عن طريقة تعليمه للصغار، كانت تظنها كمدرسة القبيلة في البلدة الأم، الأستاذ واقف أمام لوحة جدارية سوداء يخط فوقها ويقوم بالشرح، بينما التلامذة يجلسون ما بين نائم ومتثائب يفكرون في الشطائر التي يحملونها داخل حقائبهم وكيس الحلوى المجاور لها!

أما هذه المدرسة فهي مختلفة باختلاف مُعلمها، أو ربما باختلاف بلدتهم.

رأته خديجة يجلس متربعًا بينهم يحاول تهدئة مداخلاتهم المتشابكة، فريق منهم يهتف:

- فلنستكمل قصة الحصة الماضية، كنت تحكي لنا كيف اجتاح التتار بغداد والشام

ليهتف فريق آخر:

- لا لقد وعدنا الأستاذ بأن يحكي لنا قصة قبيلته لأجل عمار الذي كان يطلبها دومًا

الفريقان يتنازعان بينما عمار يجاور الأستاذ عن يمينه مطرقًا، منذ أن أعاد جلال الدين والدته إلى المنزل وهي لا تفارقه، تهذي ليل نهار، تحتضنه أحيانًا كآخر أمل لها يبقيها على قيد الحياة، وترسله أحيانًا أخرى لا تكاد تتعرف إليه، الذهول قابض على روحها مطل من أعماق عينيها، لاتفتر عن الهمس بـ أين ذهبتا؟!

بينما والده مازال يطرق الأبواب ذليلًا، كيف سيجدهما وقد ترك الساحر سحره، وجلال الدين يخبره بأن يردد أدعية لا يفقه منها شيئًا وهو يبحث عنهما، كيف ستجعله تلك الكلمات وحدها يعثر على ابنتيه،

لماذا لا يذهب إلى ربه ويسأله بدلًا من أن يقوم بتحفيظه تلك الكلمات، بل لماذا يتركهم اللّه ضائعين في الأرض، منهكين، مظلومين، هناك خلل ما بالتأكيد!

- أنت ستحكم بينهم جميعًا يا عمار، فأنا عينتك نائبي.

ضحك الصبية عندما قالها أستاذهم بجدية مضحكة موجهًا حديثه إلى عمار الذي تكلم بخفوت شارد:

- كما تشاء يا أستاذ.

عادت الجلبة من جديد تدب في الحلقة فقام بتهدئتهم ثانية بكلتا يديه حاسمًا:

- سننزل جميعًا على رغبة عمار.

سكت الفريقان أحدهما بحماس والآخر متبرمًا بينما جلال الدين يستند إلى كتف غلامه مبتدئًا كما عودهم دائمًا بالصلاة والسلام على النبي الخاتم قبل أن يشرع بالحديث بابتسامة تجاهد لتخفي خلفها ذكريات لو تجسدت أمامهم الآن لفزعوا منها وهو يشرع في استمالة قلوب الفريق المتبرم قائلًا:

- قال ابن خلدون: إن التاريخ كله يعيد نفسه، بينما أنا أظن بأنه لا يفعل إلا في بلادنا فقط! وكأن التتار والمغول قد أخذوا منا مصابيحنا وتركونا نتخبط في الظلام حتى يومنا هذا.

أرهف الصبية السمع وقد انفصلوا كلية عما حولهم وقد نجح في استجلاب حماسهم ومنحوه مشاعرهم قبل آذانهم، لو كان أحدهم نظر للأعلى عن يمينهم نحو النوافذ لكانوا استطاعوا رؤية خديجة تطل عليهم من نافذة وسلطان من أخرى، إلا أنهم كانوا مستغرقين للغاية كأستاذهم تمامًا:

- كانت قبيلتنا تعيش في بلدة كبلدتكم هذه، إلا أنها كانت على الضفاف مباشرة من جميع نواحيها، لم يكن لدينا الصحراء التي لديكم في النصف الثاني من البلدة، أعدادنا لم تكن كثيرة، نحن تقريبًا عائلة ضخمة كثيرة العدد، شيخنا هو كبيرنا الذي يأمر فيُطاع كـ جدي الراوي الكبير ومن بعده عمي نصر، ولنا قوانين خاصة كما لـ داو قوانين خاصة بها ..

قاطعه أحد الأولاد بفضول متسائلًا:

- ولماذا لم يحكم والدك يا أستاذ؟، وهل ستكون أنت الحاكم بعد عمك وتتركنا؟!

ابتسم نصف ابتسامة كنصف كل شيء في حياته تقريبًا، فحياته كلها أنصاف، لم يبلغ حد الكمال أبدًا، وقال بغصة تلوي حنجرته ليخرج صوته خشنًا:

- أنا مثل والدي رحمه الله، كنت أحب المدينة وأذهب إلى الجامعة فيها حتى انتهيت منها، ووالدي كان يعلم أن عمي هو الأفضل منه في إدارة شؤون القبيلة فترك له المشيخة عن طيب خاطر، كان خليطًا بين الزهد وحب الدنيا، لا أعلم كيف كان يوفق بين كلاهما!

- ها يا أستاذ ثم ماذا حدث؟

هتف بها أكبرهم وهو يتكئ بمرفقه على فخذه ويميل بجذعه للأمام بمبالغة رفع لها الأستاذ حاجبيه وهو يومئ له موافقًا ويقول:

- عندما بلغت الرابعة والعشرين من عمري ظهرت فجأة أخبار بأن بلدتنا بالكامل قد بُنيت فوق مقابر الفراعنة، وأن الدولة تعدّها كنزًا ثمينًا ولابد من استخراجها، واستلزم ذلك هدم الدور وتجريف الأراضي الزراعية، رفعنا القضايا وهاجمنا القوانين وقلَبنا الدنيا ولم نقعدها.. أو هكذا ظننا!

- ثم ؟

ارتفعت الهمهمات بهذين الحرفين اللذين يختبئ الماضي خلفهما، فاستكمل محاولًا أن تبدو نبرته حيادية:

- ثم أوقعونا في فخ تفضيل المصلحة الشخصية على مصلحة الوطن وبأننا عملاء وخارجون على القانون، وأصبحنا في اليوم التالي والسفن الضخمة التي تحمل آلات ومعدات الهدم تقف على ضفافنا، استطعنا أن نوقف المعدات، وذهب إليهم مجلس القبيلة فلم يرتضوا بالتفاهم سوى مع الشيخ آصف وحده، وبالفعل تحاور معهم وعاد إلينا بصكوك ملكية لأراضٍ أخرى وعلى الضفة أيضًا في بلدة تُدعى داو!

- هنا!

أومأ برأسه للفتى نفسه والذي على ما يبدو يقوم بدور محقق صحفي فيسمح لنفسه فقط بالمقاطعة، أما لو فعلها غيره فهو ينظر له شزرًا ليسكته!

- نعم هنا، وتحديدًا على الضفة المواجهة للقصر الذي تم حرقه فيما بعد!

اتسعت الأعين المحدقة به بينما خديجة في الخارج ترسل تنهيدة خافتة وهي تستمع إلى تاريخ تحفظه عن ظهر قلب، فلقد كانت في العشرين من عمرها وقت هبوطهم على ضفة داو وتتذكر جيدًا ذاك اليوم المحتدم وما حدث فيه:

- وجدنا هناك عدة دور مبنية بالفعل بالحجر الأبيض فقط ولا تصلح للاستخدام البشري، وبرغم ذلك اضطررنا إلى وضع أمتعتنا بها وتوزيع أنفسنا عليها لحين العودة إلى المحاكم من جديد، أما

أصحاب القصر من عائلة صقر القاسم حسبونا لصوصًا نسطوا على أراضيهم وبدأوا الحرب فورًا، فقد أرسلوا لنا تهديدًا صريحًا، إما ترك الأرض وإما أن يبيدونا جميعًا، فأرسلنا لهم نطلب مهلة لحين الفصل في القضية الجديدة التي أقمناها ليسمحوا لنا بالعودة لديارنا، وبالفعل منحونا سنة كاملة كنا نفترش فيها أروقة المحاكم.

- ثم؟

وصلت الهمسة الصغيرة المتسائلة إلى أُذن سلطان فتمتم بداخله واثقًا:

- ثم تفوز الأسياد مجددًا!

- لم يكن أمامنا بديل وبيننا نساء وأطفال وعجائز، أرسلنا إلى عائلة صقر بأننا مستعدون لأن نعمل لديهم في زراعة حديقتهم الشاسعة مقابل أن يسمحوا لنا بأن نؤجر أراضيهم التي نسكنها بالفعل، فرفضوا وهددونا بالذبح هذه المرة!

شهقة عمار الخافتة والذي غلب فضوله حالة الحزن التي كانت تعزله عنهم قطعت سيل الحكاية التي تقطر أحرفها دمًا وألمًا ورائحة موت لا تزال تزكم أنفه وبرغم ذلك تبسم له جلال الدين مربتًا على كتفه يسأله بحنو:

- لو أردت ننتقل إلى حكاية أخرى ..

حرك عمار رأسه رافضًا وقد اتسع بؤبؤ عينيه محدقًا بحماس مأخوذًا بما يسمع وقد توقف جلال الدين عن الحكاية في نقطة أشعلت فضولهم، خاصة وهم مطلعون على نهاية القصة مما يستمعون إليه في بيوتهم ممن حولهم ولكنهم لم يكونوا على دراية بسبب تلك النهاية المفجعة، أعمارهم ما بين الحادية عشرة والرابعة عشرة، أي أن أكبرهم وقت ذروة الأحداث

كان في الرابعة من عمره غير مدرك بطبيعة العالم المشتعل الذي انزلق إليه!

- أرجوك أكمل يا أستاذ نريد أن نعرف.

زوى ما بين عينيه وقد تركز نظره على نقطة فارغة تتوسط الحلقة في منتصفها تمامًا، نوع من التيه غلف بنبرته، وكأنما يحدث شخصًا خفيًا :

- لا أعرف لماذا كان واثقًا إلى تلك الدرجة بأنه قادرٌ على حل المعضلة، لم يفصح لأحد ولا حتى لي، لقد كنت أقربهم إليه!

يجب أن ينصرف الآن، ليس من الحكمة أن يستكمل تلك الوقفة الغريبة، ولكن غريزته تدفعه للبقاء، شيئًا ما يدفع سلطان لأن يرهف سمعه، ويخبره بأن سحابة ستمطر خطرًا أسود قادمة في الطريق، وبأن لديه مفتاح اللغز!

- عمن تتكلم يا أستاذ؟!

- عن والدي .. شمس الراوي الذي اختفى أحد عشر يومًا، ثم جاء إلى جدي يخبره بأن حاكم داو يأخذ صفنا ومتعاطف معنا وسيشرف بنفسه على جلسة صُلح يُبرم فيها عقد هدنة بيننا وبين عائلة القاسم.

- هل هو رجل صالح؟

خرج السؤال من فم صبي لم يعرف الشبع يومًا، كمن يبحث عن أي سبب يجعله يصدق أن في هذا العالم بعضًا من العدل، فإن كان الجوع مقابلًا للصلاح فلا بأس، لكن حتى تلك القشة لم يعثر عليها ليتعلق بها بينما الأستاذ يجيب بلا إجابة حقيقية:

- إن كنت تريد أن تعرف، فانظر في أحوال أهل البلدة، كيف يعيشون، كيف يأكلون، كيف يموتون!

أطرق الصبي مفكرًا بينما يحثه بقية الصبية على المتابعة فاستطرد راويًا:

- خرج أبي بموافقة جدي لملاقاة الحاكم في قصره وعاد بالفعل وقد وقّعوا هدنة تستمر على شرط أن لا نحدث فيهم ما يسوؤهم، وقّع مجلس القبيلة بجوار توقيع عائلة القاسم ويعلوهم ختم الحاكم .. سبعة أيام .. لسبعة أيام فقط، عشنا كما يعيش بقية الناس وظننا بأننا سننعم بحياتنا الجديدة وإن كان بها بعض الكد .. حتى إنني خطبت ابنة عمي وعقدت عليها أيضًا!

لم تستطع ابنة عمه منع ثغرها من أن يبتسم حنينًا وشوقًا لتلك الأيام السبعة وبخاصة الخامس منها، عندما باتت زوجته، واستمعت لأول مرة اعترافًا منه بأنه كان يناديها بينه وبين نفسه بـ «حُب»، اتسعت ابتسامتها وهي تتذكره عندما صمت متوقعًا أن تُدلي هي الأخرى باعتراف مشابه، إلا أنها عبست وهددته «سأشكو لأبي إن كررتها» ثم تركته مغادرة تدعي الغضب بينما هو ترتفع ضحكاته وتطارد خطواتها!

ضحكات رائقة لا تمت بصلة لتلك الضحكة الحزينة التي تفترت عنها شفتاه في تلك اللحظة وهو يقول مستدركًا بخفة محاولًا كسر ذاك الوجوم على وجوه الفتية:

- هل تصدقون بأنها شكتني لأمي لأنني غازلتها؟

تراقصت البسمات الشقية على ثغرهم بينما يتغامزون فيما بينهم وعلت ضحكاتهم قليلًا ببعض الدهشة، كيف يتخيلون معلمهم يغازل فتاة، بل وتشكوه الفتاة إلى أمه أيضًا!

كان يجاريهم في ضحكاتهم وهو يرفع كتفيه للأعلى مدعيًا الدهشة ملوحًا بيده يشتكي لهم:

- هل تصدقون كذلك أن أمي نهرتني وضربتني على رأسي صائحة بعد أن مصمصت شفتيها « اترك الفتاة لحالها يا خائب الرجا »!

استمرت الضحكات لدقائق حتى إنها ارتسمت لا إراديًا على وجه سلطان الذي يرقب خديجة من قريب.

لم يرَ يومًا مشهدًا عاطفيًا كذاك الذي يتجسد أمامه، لفتاة تكتم صوت ضحكاتها حتى ارتجت لها كتفاها بينما عيناها تهطلان بالدموع فتمسحهما بكلتا كفيها وتحرك رأسها بـ « لا فائدة »! أما عيناها فتحكيان قصة عشق أكبر من أن تبوح بها، فتكتمها خائفة من أن تفيض يومًا وينهدم الجسر يوم فيضان عارم!

- وماذا بعد الأيام السبعة؟

استعجل عمار السؤال وقد كان أول من تلاشت الضحكات عن فمه وكأن الأيام قد علمته باكرًا أن السعادة لا تدوم، وأن الفرحة دائمًا تأتي نحيلة سهلة الكسر والانزواء، خفتت الضحكات تدريجيًا وصمت جلال الدين حتى هدأوا تمامًا، يستجمع شجاعته قبل أن يقطع الطريق على شريان الغرام الذي نبض بعروقه لحضور سيرتها الطاغي، طالت لحظات سكونه قبل أن يتنحنح محاولًا انتقاء كلمات مناسبة، إلا أن كل الكلمات رغمًا عنه أو بإرادته ستخدش المرح المطل من أعينهم الآن لا محالة:

- فجر اليوم الثامن، وجدوا جثة صقر القاسم ملقاة في مسجدنا الصغير!

احتلت الهمهمات المأخوذة صدرة جلستهم تلك بينما هو يتمتم لينتهي مما لا يريد قوله باختصار:

- هاجموا دورنا بمعاول الهدم والبنادق فاضطررنا إلى الدفاع عن أنفسنا وحرمات بيوتنا وصارت مقتلة كبيرة .. وشب الحريق الهائل.

فرت دموع مرارة قديمة من عيني خديجة وهي ترى بعين ذاكرتها أخويها وهما غارقان في دمائهما على عتبة دارهم، طغى صراخ النساء على أصوات البنادق، والرجال تهرول يحملون كل ما يصلح سلاحًا، بينما هي تجري لا تعلم إلى أين، تبحث في الوجوه عن وجه أبيها فلا تجده وقد اختلطت الملامح وتموهت بالدماء.

المشاعل تُقذف من حولها هنا وهناك، هرعت مرتعبة ترتعش إلى دار عمها شمس فوجدت ما جعلها تسقط على ركبتيها وقد أدركت أن نهايتهم جميعًا باتت وشيكة، جثث لاحصر لها لأولاد عمومتها وعدد ليس بقليل من شباب القبيلة تحترق جثثهم في الأرجاء، الأجساد ملقاة بعضها فوق البعض متكومة فلا تكاد تتعرفهم، حواسها شُلت بالكامل بينما الصراخ من حولها يزداد والنيران تعلو للأفق.

لا يُعقل أن يكون كل هؤلاء الرجال من عائلة القاسم فقط، لابد أن شباب داو انضموا إليهم للثأر من الرواة، يدٌ قوية رفعتها عن الأرض فجأة منتشلة إياها من بين النيران المشتعلة ودفعت بها داخل الدار وأغلقت الباب عليها، لمحت ظهره وهو يندفع للخارج ثانية ويصرخ بها أن لاتخرج مهما حدث، اختل توازنها وسقطت أرضًا وصدرها يعلو ويهبط حتى كاد قلبها يتوقف، ما هذا الكابوس الذي تعيشه، أين نصر الراوي، هل لحق بإخوتها، هل باتت وحيدة تعارك مصيرًا مجهولاً؟

وانفتح الباب فجأة مجددًا لتتدفق من خلاله نسوة القبيلة، أحدهم يدفعهن من الخارج قبل أن يغلق الباب مجددًا.. الحاجة وسيلة!

تذكرت جدتها المقعدة وكأنها قد قفزت أمام عينيها دون إنذار فنهضت تحاول التملص من بين كومة النساء الصارخة الباكية المذعورة

حتى استطاعت أن تدخل الغرفة الجانبية، دفعت الباب الخشبي الثقيل فوجدتها ملقاة أرضًا تحاول دفع نفسها للخروج من الغرفة، احتضنتها بقوة وتشبثت بها كطوق نجاة، بينما الأخرى تهتف مذعورة تسألها عن ولديها شمس ونصر وأولادهما، وهي لا تملك إجابة، لاتملك سوى أجساد متفرقة لكل من تعرف، حتى جلال الدين الذي حملها للداخل بينماً الدماء تملأ مؤخرة رأسه باتت تشك بأنه لا يزال على قيد الحياة!

أشارت لها جدتها نحو النافذة بعينين زائعتين ووجه شاحب كالأموات هامسة:

- هند.

اتسعت عينا خديجة وعقلها يستوعب ببطء إشارت جدتها، نظرت نحو النافذة فوجدت الألواح الخشبية التي كانت تسده ممتلئة بالثقوب!

حاولت أن تنهض لتتوجه إلى حيث أشارت جدتها ولكنها تشبثت بكفها تعيدها بجوارها أرضًا هاتفة:

- لا تقفي !

أومأت برأسها مبهوتة وقوصت جسدها زاحفةً على يديها وركبتيها حتى التفت حول فراش جدتها نحو النافذة فاصطدمت عيناها بجسد هند الساكن أرضًا بينما الدماء تنزف من جانب رأسها، تابعت الزحف باتجاه رأسها لتمسكها من كتفيها وتهزها بقوة هاتفة:

- خالتي، انظري إليّ!

إلا أن هند ما زالت تحملق في سقف الغرفة وقد فارقت الحياة برصاصة اخترقت جانب رأسها بينما كانت تحاول النظر من بين الألواح لترى ما يحدث بالخارج، فما كانت منها إلا التفاتة واحدة تجاه سرير

الحاجة وسيلة لتخبرها بما تراه، وقد كانت آخر نظرة إليها حيث سقطت على الفور جثة هامدة أمام أعين وسيلة التي فزعت وتراجعت حتى سقطت من فوق الفراش قبل أن تدخل خديجة مباشرة.

- أنا خديجة يا خالة، أنا زوجة ولدك.

كانت منكبة فوق جثتها تهتف صارخة بلوعة وعقلها تنهار كل دفاعاته، وبدا لها كل شيء يتلاشى وتتباعد أصوات الطلقات والعراك في الخارج وتخبو!

❁ ❁ ❁

تحرك سلطان مبتعدًا بمجرد أن ارتفعت وتيرة بكاء الزائرة لتكشف عن نفسها، فاستدار فورًا مغادرًا بينما أذناه تلتقطان هتاف جلال الدين المتعجب باسم خديجة! علم بأنه رآها فآثر الاختفاء خلف الشجر المحيط بالمبنى، في اللحظة التي قفز فيها جلال الدين عابرًا حافة النافذة إليها كما يفعل مع سياج ساحة الترويض:

- ما الذي أتى بكِ يا خديجة، هل حدث شيء لعمي؟!

لم يستمع سلطان إلى ردها فقط لحظة صمت قبل أن يسمعه يسألها مجددًا:

- وكيف جئتِ وحدك إلى هنا؟

- يبدو أنك ذو شهرة واسعة بينهم!

تحدثت بنبرة مرتعشة ضائعة محاولة دس ضياعها في مزاح أثقل قلبه بالخوف عليها، حتى إنه لم ينتبه إلى ذاك الذي يستمع إلى حوارهم خلف الشجرة أو هؤلاء الصبية الذين يقفون من خلفه من الداخل يحاولون استراق النظر لتلك الضيفة التي لم يروها من قبل والتي تنهمر الدمعات

من عينيها بلا توقف مستندة إلى صدره بعجز لا تقوى على الحديث، زاغت نظراته هنا وهناك وفجأة استدار خلفه هاتفًا في تلامذته:

- اذهبوا الآن إلى بيوتكم يا شباب.

أطرقوا بخيبة أمل وقد بلغ فضولهم الذروة، انسحبوا وكل منهم يدفع الآخر حانقين حتى خرج آخرهم.

دفعها أمامه بلطف ليسير بها حيث الباب الرئيسي المؤدي إلى الفصول الداخلية ينظر بين الفينة والأخرى لتلك الدموع التي تحفر قلبه لا وجنتيها، انتظر سلطان حتى ابتعد الأولاد وحث الخطى خلفهما بحذر وخفة، نفسه تضبطه بالتنصت وتجلده محتقره، لكنه يغض الطرف فهو نفسه لايمتلك إجابة، يبدو أن معرفة ما يدور حوله لسنوات أصبح غريزة عنده كغريزة البقاء يسعى لإشباعها هاربًا من شبح الجهل الذي سيطر عليه في اللحظة التي لم يستطع فيها معرفة مكان بنتي أم عمار.

دومًا ما كان جلال الدين يثير فضوله وحنقه معًا، يعرف عنه الكثير ورغم ذلك يجد متعة في الإلمام بالمزيد، ألصق ظهره بالجدار وأرهف سمعه لما يدور بالداخل:

- تمالكي نفسك وأخبريني ماذا حدث، تكلمي يا خديجة!

- إنهم خلفي.

- من هم؟!

سألها بتشتت قابضًا على مرفقيها بعدم فهم محاولًا استيعاب كل ما يحدث دفعة واحدة فقالت:

- انعقد مجلس القبيلة بالأمس وأصدر قرارًا بشأن زواجنا.

يطالبها بالمزيد ليفهم بينما يضغط مرفقيها دون قصد وذلك الإحساس المألوف بالخطر يداهمه في عقر داره:

- لا أفهم، قصي عليّ ما حدث!

شعرت برأسها يدور وقد أُنهكت كل قواها في الطريق إليه، فترنحت بين يديه للحظة قبل أن يجذب لها أحد المقاعد دون أن يتركها، أجلسها ثم جذب مقعدًا آخر وجلس قُبالتها قريبًا منها، أحنى جذعه ممسكًا بكفيها بين يديه مستندًا بمرفقيه إلى ركبتيه بينما هي تحكي له تفاصيل ماحدث بالأمس.

عندما فوجئوا بمجلس القبيلة الذي يضم كبراءهم وعلى رأسهم الشيخ آصف الذى توهجت مقلتاه بالنصر المؤزر، يلجون إلى ساحة دارهم الخارجية ويوزعون أنفسهم متخذين المصاطب الحجرية المرتفعة مجلسًا لهم، يتوسطهم قاضي القبيلة المخول بالفصل بين النزاعات التي يكون شيخ القبيلة أحد طرفيها.

قبض نصر على مزلاج باب الدار من الداخل يستعد ليفتحه ويخرج في استقبالهم معلقًا عباءته فوق كتفيه، واضعًا ابنته نصب عينيه، وقبل أن يدفع المزلاج جانبًا لحقت به همسة تناجيه:

- أبي!

استدار نحوها بقلبه قبل جسده فأقبلت إليه بملامح شاحبة وعينين ضائعتين، صامتة لا تجرؤ على بثه لواعج قلبها، لكن نظراتها التي تسأله النصرة تكلمت عنها وقالت ما يكفي ليفهم، رفع كفه الحانية مربتًا على وجنتها وبنبرة غلفها الدفء سألها:

- سأسألك اليوم كما سألتك عندما جاء ليطلبك مني، هل تريدين ابن عمك؟

صمتت مفسحة الطريق لعينيها تتولى الإجابة عنها ثانية، إلا أنه كان راغبًا بشدة في سماع رغبتها فكرر سؤاله مجددًا، وبرغم إيماءاتها بالموافقة إلا أن لسانها كان له رأي آخر وهي تقول:

- أريد رضاك أكثر.

ابتسم وكأنما كان يتوقع كل كلمة نطقت بها وقال وقد أطل الحزم من عينيه:

- لكِ كلمتي، وتعرفين ما يعنيه ذلك.

تولى عنها متجهًا وهو يعرف أن الباب المغلق ما هو إلا فوهة للجحيم، ورغم ذلك سيعبره لأجلها.

تنحنح بصوت مرتفع بينما عصاه تسبقه عابرة الباب قبله نحوهم، نهضوا جميعًا إكبارًا له فحياهم واختار أن يجلس في مكان آخر غير الذي كانوا يفسحونه له في المنتصف، وهو المكان الطبيعي لزعيم القبيلة.

لقد اختار طرفًا جوار الباب، نظر بعضهم إلى بعض وكأنها إشارة منه بأنه يأخذ طرف ابنته، إلا أن ذلك لم يمنع من انعقاد الجلسة بكلمة افتتاحية من القاضي ثم تبعها بإخراج دفتر كبيرٍ ضخم أوراقه صفراء سميكة تشبه البرديات ووضعه جواره قبل أَن يلتفَت إلىَ نصير متسائلًا بصوته الخشن:

- أحكام القبيلة يا شيخها تحكم بالتفريق بين ابنتك خديجة وابن أخيك الهارب، فهل لديك أي اعتراض؟

علامات العمر التي تشق وجهه ويده المستندة إلى العصا لم تكن من فراغ، هذه ليست جلسة أعراف قبلية، لقد حضروا إليه بعد ما اتفقوا فيما بينهم على قرارٍ وموافقته عليه من عدمها ما هي إلا تحصيل حاصل، النظرة في عيني آصف تخبره بما سيحدث حالة رفضه!

وبما أنهم اتفقوا على قذفه في حقل من الألغام؛ فليجعل منه إذن حفلًا لا يُنسى من صنعه الخاص!

هز رأسه عدة مرات قبل أن يرفعها مُمررًا نظراته بينهم كمن يسوي الأرض استعدادًا لغرس البذور وقال بهدوء يُحسد عليه:

- الشرع هو من يعترض وليس أنا!

وكأن الجميع قد اتفق على تغضن أجفانهم في نفس اللحظة بينما كان آصف هو أول من نفض غبار اللغم عنه ونهض كالعنقاء من بين الرماد صائحًا:

- الشرع في المسجد يا شيخ نصر، أما هذه جلسة أحكام عرفية لها قوانين وضعها أسلافنا، أم تُراك قد كبرت وتناسيت؟!

الهتافات من حوله تؤيده تمامًا والقاضي يناظره برضا لا يخلو من السخط الموجه إلى نصر وحده، تلك الهتافات التي اختض لها جسد خديجة الساكنة أحضان جدتها، لتربت الأخيرة على ظهرها تهدئها، وتتشبث بها حتى لا تنهض هامسة في أذنها:

- اتركي أمرك لعلام الغيوب.

أما في الأسفل فقد انتظر نصر حتى هدأت الهتافات الساخطة من حوله ثم تكلم ثانية يرد على ما قاله آصف بنفس النبرة الهادئة:

- تُذكرني يا آصف بمن قالوا قديمًا «إِنَّا وَجَدْنَآ آبَآءَنَا على أُمَّةٍ وَإِنَّا على آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ».

نهض الرجال بغتة واحدًا تلو الآخر اقتداءً بـ آصف يرمقونه بغضب شديد وتبعهم القاضي صائحًا:

- لقد فاض الكيل يا نصر، أريد كلمة واحدة، إما أن تلتزم بقرار مجلس القبيلة وإما تترك المشيخة لمن لا يزال يستطيع إحكام قبضته عليها، وقبل أن تتكلم بما يثير غضبنا، بمجرد أن أجمعنا القرار أصبحت ابنتك مطلقة ولأنه لم يتم الدخول بها فهي ليست معتدة ولذلك سنزوجها في اليوم التالي مباشرة من خاطر ابن الشيخ آصف فهو أحق بها

ومن بين الجحيم ظهرت مقدمة أسنان نصر وهو يبتسم مازحًا بمرارة:

- ولأنه لم يتم الدخول بها فهي ليست معتدة؟! أتأخذون ببعض الكتاب وتتركون بعضًا؟.

اختض جسد خديجة مرة أخرى مع ارتفاع الأصوات الأشد سخطًا من سابقتها والتي اخترقت نافذة جدتها وفطرت قلبها وهي تتخيل والدها يجلس وحيدًا بين كل هؤلاء الغاضبين عليه بسببها.

أما الهتاف الأخير هو ما قضى عليها تمامًا، عندما وصلها صوت آصف الحاد هاتفًا «استعدي يا عروس؛ فغدًا زفافك على ولدي».

❋ ❋ ❋

دقائق طويلة مرت على انتهاء ذاك المجلس الهزلي الذي يشبه عرضًا مسرحيًا تم التدرب عليه مسبقًا، قبل أن تأتيهما طرقات واهنة على باب غرفة الجدة ليدخل بعدها نصر بملامح جامدة لا تنم عن شيء، جلس على طرف الفراش بجوارها فاعتدلت على الفور وقد أرسلتها جدتها، كلتاهما صامتتان تنتظران ماذا سيحدث عندما يفتح فمه ويبدأ بالحديث، وقد كانت لحظة فارقة بحق، ليست بالنسبة لـ خديجة فقط، بل ولـ نصر أيضًا، كان قد اتخذ قراره منذ الكلمة الأولى التي نطق بها قاضي المجلس وها قد حان الوقت لإعلامها به.. قال:

- اذهبي إلى زوجك.

كانت جملة تشبه المتفجرات بحق، نطق بها وصمت، يشد من أزر نفسه ليتحامل على ألمه، لقد فارقت المشيخة بيت الراوي الكبير على يده، فيالها من نقطة سوداء في تاريخه الحافل بالتضحيات.

سقطت خديجة على ركبتيها أمامه وترفع نظراتها له، في عمق عينيه ممسكة بكفيه وتحرك رأسها نفيًا وقد سكنت الدموع مقلتيها إلى الأبد قائلة بخفوت:

- لن تكون المرة التي أضحي بها لأجل كرامتك يا أبي، سأذهب إليه ولكن لأطلب الطلاق، هو وعدني بأنه لن يفعلها إلا إذا طلبتها منه بنفسي..

- لن تفعلي.

قالها قاطعة بحسم، بينما ألقُ الحزم والثقة في عينيه يبرق من خلف زجاجهما الشفاف قبل أن يأخذ بجانبي رأسها بين كفيه سامحًا لدموعها بأن تنسل من بين أصابعه مبحرة إلى كفه لتجتمع هناك واحدة تلو الأخرى.

تأمل عينيها لدقيقة كاملة ثم قال بجلد:

- لقد شاهدتك طوال سنوات تتعذبين، وأُرضي نفسي بمقولة ابنة أبيها! ولكن بداخلي كنت أعلم بأنني أذبحكما بسكين الأحكام العرفية، ولم يكن بيدي حيلة، اليوم يا ابنتي حان الوقت لأرد لك الصبر بالصبر والتضحية بأخرى.

تعلقت بصدر جلبابه تتشممه باكية ولسانها لا يفتر عن الإفصاح بما يموج في صدرها من لوعة الفراق، كانت تنتحب فعليًا تهمس بين طيات جلبابه:

- لن أتركك كما لم تتركني عند وفاة أمي وأنا صغيرة، لم تتزوج يا شيخ القبيلة، لن أتركك كما لم تتركني عندما سقطت من فوق الشجرة وركضت بي وقد كان جرحي صغيرًا حتى إنني كنت أضحك بين يديك وأنت تحملني وتدفع باب الطبيب بقدمك وتلكمه لأنه ترك مكانه بالوحدة الصحية، لن أتركك كما لم تتركني عندما سقطت في النهر وقفزت خلفي وأنت تعلم بأنني أجيد السباحة، حينما كانت الآباء يصفعون بناتهم ويضربونهن بينما كنت أنت من يسندني ويُجلسني بجواره في المجلس بفخر ويصفني بابنة أبيها، حينما كان الشيوخ يزوجون بناتهم رغمًا عنهن جئت أنت تسألني هل أوافق على ابن عمي أو تركله خارج الدار؟، حتى عندما ظننت أنك تذبحني كنت تداويني بحنانك، تعدني نظراتك بأن الفرج قريب..

كان الموقف أقوى من أن تهرب ذاكرة الحاجة وسيلة منها مجددًا، لم تشعر إلا بالدموع تغرق وجهها وهي تقطع نحيب خديجة قائلة بنبرة مكلومة:

- استمعي إلى كلام أبيك يا خديجة، لا تؤلميه يا حبيبتي أكثر مما هو يتألم.

ضمها إلى صدره وتركها تبكي حتى نضب دمعها واستكانت بين يديه وهي مازالت على جلستها مرتكزة على ركبتيها، رفع رأسها إليه من جديد فأخبرتها عيناه بأنه أكثر إصرارًا من ذي قبل ثم قال:

- الأمر أكبر مما تظنين يا ابنتي، سيأخذونك رغمًا عنك وعني وستجدين نفسك في حجرة نوم خاطر زوجة، هل تفهمين؟!

هربت الدماء من وجهها ولا تزال تحرك رأسها بالنفي مجددًا فتابع بنفس الجدية والقوة يهز رأسها لعلها تفهم:

- في كل الأحوال ستتركينني رغمًا عني، والعقل يقول بأن تتركيني إلى مَن آتمنه عليك، مَن لديه القدرة على أن يحميك بروحه.

أنهى كلمته الأخيرة وهو ينهض يمسك بها لتقف قبالته، مقلتاها كالدم وجفناها منتفخان من كثرة ما ذرفت من دموع فوق صدره مستطردًا:

- أبلغيه منيّ السلام، قولي له عمك منحك أمانته فخُذها حلالًا طيبًا ولا تفرط بها إلا على جثتك يا ابن الرجال.

- وعليك السلام يا عمي حفظك اللّه ورعاك يا كبيرنا.

نطق بها جلال الدين وهو ما زال على جلسته فوق المقعد المقابل لها، يستمع إلى كل ما تنطق به في وجل لما قدمه نصر من تضحية غالية.

هو يعلم أن ما أقدم عليه كان آخر الأبواب المطروقة، ولو كان أمامه جحر فأر لعافر فيه من أجل الحفاظ على ابنته في داره، لكنه محاصر!

ترك يديها فجأة ونهض بينما الدماء تجري في عروقه تدعوه إلى الذهاب إلى القبيلة ونصرة عمه حتى ولو أدى الأمر إلى تحطيم أنوف الجميع وأولهم آصف وولده.

- بماذا تفكر؟!

سألته بضعف ووهن كوردة تذبل بعد اقتلاعها من جذورها تموت أوراقها ولكنه لم يجبها، كان يفكر في طريقة لإنقاذ الموقف، إلا أن ما قالته بعد ذلك وهي تطرق برأسها جذبه من بين نيران الانتقام ليضعه على أرض الواقع وهي تقول:

- عندما خرجت من غرفة جدتي فجأة لاحظت أن الفتاة التي كانت تخدمنا تبتعد بسرعة نحو السُلم، حينها ناداها أبي فلم ترد، خرجت تعدو من الدار، فدفعني أبي نحو غرفتي لأجمع أغراضًا

قليلة وأسرع بإخراجي من الباب الخلفي الذي استعملته أنت حتى لا يلحظك أحد.

- كانت تتجسس!

سأل جلال الدين والإجابة جلية ﻓﻲ ذهنه بينما تعقب خديجة قائلة:

- وقتها فقط عرفنا كيف علم آصف بأن أبي قد سجنك ﻓﻲ غرفة التخزين، وأمرني أبي أن أعدو لأقطع الغابة لا أتوقف أبدًا حتى أصل إليك، وطلب مني أن أبلغك برسالة لم أفهمها!

انتبهت حواسه وهو يسألها عن فحوى الرسالة فقالت مرتبكة:

- يقول لك إن البَارود لم ينته كما تظن، إن واحدة منه تستطيع قتل أسد مهما كان شجاعًا، وأن تحذر الضبع الساكن بين جدرانك!

همسة ﻓﻲ أذن سلطان جعلته ينتفض وينظر حوله، ولكن لم يرَ أحدًا، لم يكن صوتًا كان كالوسوسة الخفية!

- كنا نأتي لك بالأخبار قبل أن تقوم من مقامك.

زاغت نظراته ﻓﻲ الأرجاء قبل أن يخرج جلال الدين فجأة من الحجرة يرتطم به:

- سلطان!!

هتف جلال الدين منزعجًا، قبل أن تشهق خديجة بدهشة متسائلة وتحدجه بنظراتها:

- الساحر؟! هو من جاء بي إليك!

- أعتقد بأن وقتك لا يسمح لتشكرني، فخلفكم مجلس قبيلة يطارد زوجتك!

نوع من الانتشاء كان يسيطر على سلطان وهو يلقي عبارته السابقة، ربما لأنها المرة الأولى التي يشعر فيها بأنه في موقف القوة أمام جلال الدين، أصبح يعلم عنه كل صغيرة وكبيرة، ويستطيع مساعدته فيما هو مقبل عليه، إلا أن جلال الدين لم يكن يملك رفاهية تحديه الآن، فذهنه ما زال مشتتًا متفرقًا في سُبل عِدة.

طبيعته تريد المواجهة والحرب والدفاع عن حقه في خديجة، والجانب المندفع منه يريد الوصول إلى عمه لنصرته وقد حوصر بمؤامرة خبيثة في داره، بينما قلقه عليها يفتك به.

العقل يدفعه إلى عدم المواجهة الآن، لابد أن يخفيها أولًا لتكون يداه حرتين في قتالهم دون أن يخشى عليها، والرسالة التي أرسلها له عمه تحتاج إلى أن يهدأ ليفك رموزها، لم يفهم منها سوى الجزء الأول فقط، أنهم لا يزالون يمتلكون أسلحة بخلاف السيوف، أما الضبع الذي تحدث عنه فهو إشارة إلى شيء لم يفهمه بعد، لو لم يكن ذا أهمية لما تكفل نصر عناء أن يخبره به!

كان يمسك برسغها وعلى وجهه شراسة تُظهر تخبط أفكاره، سيحدث قتال عظيم مجددًا تُزهق فيه الأنفس، لكن هذه المرة هو وحده، لا يمكن أن يفقدها كما فقد أمه يوم الفتنة برصاصة غادرة!

- سأُساعدك.

التقت نظراتهما بصمت، كل منهما يحاول قراءة الآخر:

- ولمَ تفعل؟

سؤاله خرج بلهاث يدل على خفقات متلاحقة وكأنه يبذل جهدًا مضاعفًا للسيطرة على غضبه، ليستطيع التفكير المنطقي، فأجابه سلطان على الفور:

- أنا في صفك.

لم تكن إجابة بقدر ما كانت عبارة تؤكد ما يطل من عينيه الآن، يريد أن يصدقه ولكن خوفه عليها يدعوه للتصرف بشكل منفرد، هكذا أفضل، حرك رأسه نفيًا وهو يتقدم بها ويمر بجوار سلطان ليتخطاه إلى الخارج وهو يقول:

- لست بحاجة لمساعدتك، سآخذها هي وعابد وأخفيهما بطريقتي.

- عابد هو أول من سيشي بمكانها!

قالها سلطان بسخرية حطمت المتبقي من أعصاب جلال الدين وجعلته يعود إليه ممسكًا بتلابيبه بيد، بينما اليد الأخرى ما زالت تقبض على رسغها فيجرها خلفه دون شعورٍ بما يفعل، لم ينتبه للشهقة التي ندت عنها وهو يهز سلطان بصرامة هاتفًا:

- إياك أن تتفوه بكلمة عنه.

ارتباكه في اتخاذ القرار المناسب أقلقها، لا تعلم شيئًا عن قصة توبة الساحر، كل ما تعلمه هو ما يقوله والدها دومًا عن عابد، وبأنه شخص غير موثوق به على الإطلاق، فقالت تقاطعهما وقد تسرب الخوف إلى قلبها:

- أظنه محقًا!

التفت نحوها بعنف غير موجه لها تحديدًا، لكن سلطان استطاع أن يجلب نظراته له ثانية وقد قرر أن يحدثه بالمنطق ويكف عن أسلوبه الساخر قائلًا:

- إنهم يريدونك وزوجتك، أنت محور غضبهم وهي محور بحثهم، وأظن أن «عابد» لا يهمهم في شيء، بالإضافة إلى أنه مختفٍ منذ عدة أيام من الأساس.

- إنه في خلوته.

أسرع سلطان في إخفاء الابتسامة الساخرة التي تريد القفز فوق فمه قائلًا وهو يحاول صبغ حديثه بالجدية والإقتناع :

- نعم، ربما .. المهم الآن أن تبتعد بها عن الأماكن التي من المحتمل وجودك بها .

بدا على وجهه أمارات التفهم لما يسمع، وتراصت الكلمات بذهنه ببعض المنطقية وهو يهمس متسائلًا بشرود:

- ماذا تقترح؟

نزع سلطان يده عن ملابسه التي يبدو أنه قد نسيها هناك وقال ببعض الرضا:

- هناك بيت آمن أعرفه، بيت عائلة زوجتي القديم، وهو مهجور منذ سنوات.

ضغطت خديجة على أصابع زوجها بيدها الحرة، وعندما رفع عينيه إليها أومأت له بأن يوافق، هو لا يملك البديل لذلك أغمض عينيه للحظة قبل أن يستدير إلى سلطان ثانية قائلًا بتحذير:

- لو كان فخًا فسأقتلك بيدي.

- أنا ميت في كل الأحوال يا بن الراوي، أو على الأقل سأفقد عقلي وأصبح مخبول البلدة!

انتهى سلطان من حديثه وسبقهم للخارج وهو لا يدري أن ما قاله للتو ربما يصبح حقيقة يومًا ما، أو ربما تفوه بما يخشاه!

سارا خلفه يتبعانه من طريق إلى آخر حتى اقترب بهما سلطان من بيت عائلة ليلى، أشار لهما بأن ينتظرا قليلًا حتى يتفقده، هو يثق بأن المكان خالٍ لا يطؤه أحد ولكنه فعل من باب الحذر، صفة من صفاته التي التصقت به بعد أن لقنته الدنيا درسًا لن ينساه، قبل الفتنة بعام واحد، وقبل أن يقرر الانضمام إلى والده وموافقته على تحمل إرثه المحرَّم!

دار نصف دورة حول البيت المكون من طابق واحد كمعظم بيوتات البلدة وهو يدقق النظر في النوافذ المغبرة التي نسجت العناكب حوافها وملأت فراغها عن آخره، إلا أن رائحة ما كانت تملأ المكان هي الأخرى بخلاف نسيج العناكب، رائحة عُشبة مقززة مألوفة يعرفها، كان يستخدمها في أعماله السفلية، نفَّاذة للغاية لدرجة أن رائحتها تبقى لأيام بعد الانتهاء منها!

عملت حاسة الشم لديه بينما يتشمم حول المنافذ ويتحرك بخفة حتى لا يُصَدر صوتًا، وجلال الدين وزوجته يرقبانه بدهشة وكأن الرجل قد فقد عقله بالفعل كما تنبأ منذ قليل!

وفجأة التفت نحوهم يدور على عقبيه وهو يقترب منهما ويشير لهما بأن يبتعدا على الفور، لحق به جلال الدين ممسكًا بساعده وقد بدا غضبه في الظهور، الأمر لا ينقصه ألغاز جديدة، فليتكلم أو يتركه هو يتصرف بمعرفته وصاح به:

- ماذا هناك؟ تكلم حالًا!

زاغت نظرات سلطان بين البيت وجلال الدين وهو يقول بخفوت وقد لمعت عيناه بنظرة ظافرة:

- المكان ليس آمنًا، أحدهم بالداخل، وغالبًا هو من كنتُ أبحث عنه!

❋ ❋ ❋

الكتابة هي أن تدفن سرك على مرأى ومسمع من الجميع، هذا ما فعلته سلام وهي تستخدم الغبار العالق فوق الأسطح لتنقش فوقه تفاصيل أيقوناتها، هي نفس الأيقونات اليومية لعالمها الصغير، ظلامُ واحتراق وأشجار ووحدة ومالك، وسماء تبدو لها أسحارًا ورؤى!

على ذلك الجدار كتبت أنها توقفت عن العد، فماذا يفيد العد إن كانت الأيام كلها متشابهة، ضوء وظلام يتتابعان على نافذتها، وعلى تلك المنضدة نقشت حروفًا غابة، ليتها بقيت مرعبة، وبقيت هي بعيدة لا تعلم على من تلتف ولا من بداخلها تُخفي، المعرفة تؤذي أحيانًا.

تجمع بذور التفاح الذي تأكله، والذي يتركه لها خارج باب محبسها المفضل، وتقوم بتشكيله على أرض الغرفة وترسم به كلمة مشؤومة.

حتى الأشباح لا تريدها، وإن كان يريد ألا يراها فهي ستختار العزلة على أن تفرض عليه صحبتها.

في آخر حديث لهما حدثها بالألغاز، كان كئيبًا وأراد إخافتها، لكنها لم تخف، انزوى شعور الخوف خلف الخيبة التي شعرت بها حينها، صمتت وتركته يغادر بلا توضيح، سكوت تضمن اتفاقًا غير مكتوب بأن تبتعد عنه، بعد أن كان سعيدًا متلهفًا وقد نادته باسمه، أين الخطأ؟ كيف تفهمه! كلهُ مبهم، بئر من الأسرار وهي تخشى الولوج إلى الأمكنة الضيقة العميقة.

بقاؤها ولو لفترة قصيرة في مكان صامت كهذا أشعل حاسة السمع لديها، باتت تترصد حفيف الشجر واستيقاظ العصافير.

ولكن مهلًا .. ما هذه الأصوات الغريبة والجلية للغاية؟، هناك من يتحرك في الأسفل!

انتفضت تتحرك نحو النافذة بفضول يعقبه حذر عندما استمعت إلى نبرات متداخلة، ميزت بينهما صوت امرأة، وصوت آخر مألوف، مألوف بطريقة مخيفة!

فجأة اندفع مالك نحوها وكأن أحدهم قد ألقاه فوقها، قبض على ذراعها وجرها خلفه قبل أن تُلقي نظرة للأسفل:

- ماذا يحدث؟

سألته ولكنه لم يتوقف، فحاولت أن تجاريه كي لا تسقط، لقد كان سريعًا للغاية وهو يهبط بها الدرج الحلزوني ويُسرع بها نحو حجرة الطبخ.

جذب الحائط ودفعها خلفه ثم تبعها قبل أن يستدير ويغلقه بإحكام ثم يتناول مفتاحًا كان موضوعًا على أحد صناديق المعدات بجوار الباب ويضع المفتاح في أحد زواياه، بعد التكة الخامسة توقفت سلام عن العد أو لم تعد تذكر هل وصلت للرقم الصحيح أو لا؟، حتى استقام أخيرًا وهو ينظر لها بأنفاس مسروقة هامسًا:

- لم يرونا، أليس كذلك؟!

نظرت له بدهشة وهي تلاحظ انتفاض جسده قائلة:

- أنت ترتعد!

هجم عليها مذعورًا كاتمًا أنفاسها فابتلع كفه شهقتها، ثم اقترب من أذنها قائلًا بهمس:

- لا ترفعي صوتك، سيسمعوننا.

تجمدت سلام مكانها وقد انتقلت انتفاضته إليها مُحدقة، يحتجزها بينه وبين الجدار خلفها يكممها بيده ولايزال يعبر عن ذعره بكلمات خفيضة:

- قليلًا فقط حتى يذهبوا، لا تخافي.

حركت رأسها يمينًا ويسارًا، تحارب كفه لتتنفس، لكنه كان في عالم آخر، حواسه كلها خارج الجدار، المرة الأولى التي يجرؤ فيها أحدهم على اقتحام حصونه، جمعت ما تبقى من قوتها ودفعته في صدره وهي تشهق بقوة وتعبئ رئتيها بالهواء، نظر لها مأخوذًا وهو يستوعب بأنه كاد يخنقها دون قصد.

ظلت منحنية تستند إلى ركبتيها وتتنفس بعمق حتى هدأت أنفاسها فاعتدلت تناظره وقد بدأت تفهم حالته تلك، إنه خائف وبشدة.

إذن ها نحن نعود للنظرية الأولى، أن الوحوش هي من تخشى البشر أحيانًا ولذلك تختبئ في الظلام! سلطان كان هو أول من يصدق تلك النظرية، ربما لأنه هو من كان ينقش الطلاسم ويطلق الأبخرة ويقدم القرابين ليستدعيهم لمساعدته، حتى لو كان كل هذا بناء على طلبهم، إلا أنه هو البشري الذي كان يجمع كل هذا ويستخدمه ليخرجهم من عالمهم ويأتي بهم إلى عالمه.

تفقد المكان حوله وهو يستمع لهمس خديجة الموجه نحوهما بتصميم:

- أنا متأكدة من أنني رأيت فتاة في النافذة!

بينما جلال الدين يشاركه التفقد ويبادلها القول الخافت:

- لا أحد هنا يا خديجة منذ سنوات ربما تتوهمين.

- أنا على يقين مما رأيت!

ارتفع حاجبا سلطان وقد لاحظ شرارات العناد المنطلقة منها نحو زوجها رافضة لأي احتمال آخر غير الذي شاهدته عيناها، ذكرته بـ ليلى في بداية زواجهما، كانت عنيدة رغم تصنعها الخضوع، هو يعلم بأنها كانت تتظاهر بذلك، ولكن رغبته في تشكيلها كما يريد طمست على عينيه، حتى إنه لم يستطيع التفرقة بين العناد والكره، وظن بأنه نجح بذلك عندما رحب للغاية بتواجد سلام معهما، وبدأت ليلى تلين وتتصرف كامرأة تحب زوجها كما يجب، وبينما كان يرى خضوعها وقد أصبح جليًا بلا مواربة أخيرًا، جاء يوم البشرى لتخبره بأنها تحمل طفلاً؛ وجد نفسه هو الذي يخضع لسحر عينيها ويستجيب لكل ما تطلبه، يكفي أن تثبُت عيناها الكحيلتان بعينيه وتطلب، ليجد نفسه يومئ بالموافقة، طفل خلف الآخر ثم أصبحت هي يده اليمنى في عمله، أو مديرة أعماله، تستقبل كل من له حاجة وتنظم عرضهم عليه في غرفة الأسياد، ولا بأس إن شاركته النذور!

عندما دخل بهما سلطان إلى الغابة ظن جلال الدين في البداية بأنه فخ، ولكنه خبير بدروبها، لذلك اتضح له بعد أول التفافة نحو قلب الغابة بأن سلطان لم يكن يسلك بهما طريقًا نحو القبيلة نفسها، بل كان يأخذهما نحو القصر المحترق.

وظل يفكر حتى اللحظة؛ كيف سيضعها بذلك المكان المهجور وحدها وينصرف؟، وعندما دلف من الباب الخلفي ووقف في المنتصف تمامًا انقبض قلبه وأصبح أكثر تصميمًا على عدم تركها وحيدة، سيعود بها وليحدث ما يحدث.

سأل جلال الدين بينما لايصدق بأنه يتبع سلطان حتى وصلا إلى هذه النقطة:

- لماذا لم ندخل من الباب الأمامي؟!

- أدخلتكما من الباب الخلفي حتى لا نضطر إلى كسر الألواح التي تُغلق الباب الأمامي فتلفت أنظار أول مارٍ من هنا!

كانوا قد وصلوا إلى أسفل السُلم الحلزوني الكبير، بينما كف خديجة لا تزال ساكنة بداخل قبضته وهي تشعر لأول مرة بكل هذا الخوف، ذاك القصر هو الذي علت نيرانه للأفق بعد المقتلة العظيمة التي ابتلعت شباب ورجال قبيلتها، الطاولة التي احترقت الأطباق فوقها توشي بعشاء كبير فاخر، هل اجتمعوا يأكلون بعد أن غسلوا أيديهم من دماء قبيلتها، أو تناولوا الطعام وأصابعهم تقطر دمًا سال كالأنهار على أرضهم، أي قلب يمتلك هؤلاء، أي نوع من الجنون يمارسون؟!

- أنا لن أترك زوجتي هنا وحدها فلا داعي لبقائنا أكثر.

استند سلطان إلى طرف سور الدرج حيث قبضته الكبيرة على شكل رأس أفعى بينما عيناه لا تزالان تنفضان المكان نفضا قائلًا:

- لن تكون وحدها، فالقصر مسكون بالفعل!

تنحنحت خديجة تدعي الصلابة بينما ابتسم جلال الدين لأول مرة منذ الظهيرة قائلًا:

- كل مكان وله عُمارهُ يا سلطان إن كان هذا ما تقصده!

- لم أكن أقصد العُمار، وزوجتك لم تكن تتوهم!

ثقته في النطق بها جعلت كليهما يناظرانه بدهشة، برغم الإضاءة الخافتة المتسللة من بين ألواح الباب والنوافذ العريضة لكن تعابيره كانت تؤكد كل حرف صرح به للتو.

نفض سلطان الغبار عن أكمام عباءته وهو يترك مقبض السور ويقول موضحًا:

- في الحقيقة لو الأمر بيدي لكنت راوغتك أكثر من هذا، فأنا أجد متعة شخصية في اللعب معك ولكنني مضطر لأن أنتهي من مهمتي هذه وأعود إلى همومي الشخصية.

صمت لحظة ثم أشار لهما بأن يتبعاه، عاد بهما إلى الممر الصغير الفاصل بين البهو الكبير وحجرة المطبخ، أوقفهما هناك بينما اقترب هو من جدار يعلوه فتحة تهوية تكاد تختفي حدودها أسفل الغبار وهتف بصوت مرتفع:

- ألم يحن الوقت بعد لتُظهر نفسك؟ لديك ضيوف لا يختلفون كثيرًا عن ضيفتك السمراء، جلال الدين وزوجته، آه .. نعم، أنت لا تعرف اسمه، على كل حال هو من كنت تتبعه دومًا وتتنصت على حديثه مع فتاة القبيلة، فهلّا تخرج لترحب بهما!

انتفض «مالك» في الداخل وهرول هابطًا السُلم الصغير المؤدي إلى القبو، هبطت سلام من خلفه وقد تيقنت من صوته، وبأن من رأته من النافذة كان سلطان بالفعل، إنه يعرف بمكانها، بل والأغرب بأنه يصحب جلال الدين عدوه اللدود، هل انقلبت الدنيا رأسًا على عقب في الأيام القليلة التي غابتها عن داو؟!

كانت ستسأله كيف عرف سلطان بوجوده هنا، ثم تذكرت بأنه ساحر البلدة وبالتأكيد يعرف كل ما يدور فيها، اقتربت منه وهي تراه يجلس على حافة الفراش العريض يرتعش بكل ما تحمل الكلمة من معنى، يضم كتفيه بذراعيه ينتفض محدقًا بالأرض فقط.

جلست بعيدة عنه تميل باتجاهه قليلًا بجذعها هامسة:

- هل تفاجأت بأنه يعرف وجودك؟!

صمت للحظات لا يفعل سوى تحريك رأسه نفيًا عدة مرات لا يكف عن التحديق هامسًا:

- لا.. لقد تقابلنا من قبل مرات قليلة لكننا.. لم نتحدث أبدًا !

- كيف؟!

اشتعل الفضول بداخلها متململة مكانها تنتظر تفاصيل أكثر لكنها لا تريد الضغط عليه، فحتى هذه اللحظة لم تفك بعد شفرات ردات فعله الغريبة بلا أسباب منطقية. ظلت تنظر إليه يضخ خافقها بقوة وتشتعل الدماء بأوردتها، تكاد عيناها الزرقاوان تُضيئان المكان من حولهما من فرط انفعالها قبل أن يقول بهمس متقطع:

- تلاقينا قبل الحريق .. لم نتكلم .. كنتُ في الثانية عشرة من عمري كنتُ أبكي وحيدًا في الحديقة، وكنتُ عاريًا ومصابًا .. كان يحمل حقيبة فأخرج منها عباءة قام بتغطيتي ووضع أمامي بعضًا من الخبز والجبن ثم انصرف .. تلاقينا ثانية بعد الحريق بعدة أشهر.. نظر بعضنا إلى بعض، وانصرف وكذلك فعلت.

- لماذا كنت عاريًا ومصابًا؟ وهل كنت تتبع جلال الدين بالفعل؟!

ترك كتفيه واضعًا كفيه على أذنيه قائلًا بارتعاش:

- اصمتي، أرجوكِ.

أصبح يُحرك جسده كله للخلف والأمام بحركة رتيبة منتفضًا ترتطم أسنانه كأنما يعيش صقيعٌ ما بداخله وحده، قبل أن يرتفع صوت سلطان مجددًا يصلهما عبر فتحة التهوية ويهتف بنبرة غلفها الود:

- لا يليق بك الاختباء يا فتى، نحن ضيوفك، ثم أنا أريد الاطمئنان على أخت زوجتي، ولن أخرج قبل ذلك.

- هل جُننت يا سلطان! إلى من تتكلم القصر ليس به أي فتيان!

- أنتظر بلهفة الدهشة التي ستظهر على وجهك عندما يتحرك هذا الجدار.

زفر جلال الدين بضيق، منذ متى وهو يسمح بالآخرين بالتلاعب به، وهذا الرجل تحديدًا، يبدو أن هيبة الساحر هي من كانت تخفي ذاك العبث الذي يتضح بأنه متأصل به، وما حدث هو أن زالت تلك الهيبة فانكشف على حقيقته، مجرد عابث!

ندت عن خديجة تنهيدة قصيرة وهي ترخي رأسها أسفل كتفه قائلة بإنهاك:

- جلال، أنا تعبت!

إنها لم تجلس للحظة منذ تسليمتها الأخيرة خلف زوجها بعد الانتهاء من صلاة الظهر. أربع ركعات لم تشهد مثلها من قبل، تكاد تجزم أن بعضًا من خصلاتها قد صُبغت بالأبيض بينما سلطان يقف أمامها على بُعد خمس خطوات بجوار زوجها الذي كان يؤمهم في الصلاة، تريد أن تختلي به بعيدًا عن صاحبهم لتسأله كيف استطاع أن يستكمل الصلاة بتركيز بينما سلطان بجواره يرتعد ويختض جسده ويئن أنينًا متقطعًا كمن يُضرب ضربات متفاوتة القوة.

وعندما انتهت الصلاة ارتمى أرضًا بينما جبينه يتصبب عرقًا وقد أصبح وجهه محتقنًا بالدم، وأخيرًا فتح عينيه ونظر لهما نظرات متألمة قبل أن يحاول النهوض متوجعًا يلهث، لم ينطق بحرف ردًا على التساؤلات التي وجهت إليه، فقط وقف مدعيًا الصلابة قائلًا «فلنذهب»!

ضمها إليه وهو يلف يده حول كتفها منحنيًا نحوها يسألها بنبرة خافتة:

- هل تودين العودة إلى بيتي؟

- بالتأكيد هناك غرف بالأعلى فلتأخذها إلى أي واحدة منها

حرك جلال الدين عينيه بسأم، إنه لجوج للغاية، يتدخل في كل شاردة وواردة يقولانها حتى ولو همسًا!

عبس في وجهه وقال متهكمًا وهو يشير إلى الجدار:

- ما رأيك لو ناديت الجدار وقلت افتح يا سمسم!

ما أن انتهى حتى تحرك الجدار فجأة فتراجعت خديجة ذهولًا للخلف جاذبة زوجها ليتراجع معها بينما الجدار يكشف عمن يقف خلفه رويدًا رويدًا حتى ظهرت لهم سلام!

كانت تحدق بهم بارتباك قبل أن تقول بخفوت مُعلقة على ما قاله جلال الدين للتو:

- كانت مصادفة فقط!

ظهر من خلف شعرها المشعث ضوء الشموع المشتعلة فباتت كساحرة شريرة تلمع عيناها زُرقة مرتبكة توزع نظراتها بين ثلاثتهم حتى استقرت عند سلطان في النهاية ثم نظرت خلفها وعادت تلتفت إليهم ثانية قائلة:

- لقد سقط أرضًا.. لا أعرف كيف أتصرف!

وبما أنه الوحيد الذي كان يعرف أكثر، فهو أول من تحرك ومر بجانبها بعد أن نحاها جانبًا.

هبط الدرجات القليلة فسقطت عيناه على مالك، تقدم منه منحنيًا نحوه يتحسس نبضه حتى عثر عليه، أرسل تنهيدة مسموعة قائلًا:

- ما يزال معنا.

كان يوجه حديثه إلى سلام أول من لحقت به جالسة على ركبتيها على الجانب الآخر من جسد مالك الملُقى أرضًا، قائلة:

- لقد كان يرتعش بقوة كلما تكلمت! ثم غطى أذنيه بكفيه قبل أن يسقط على الفور.

- يبدو أنه كان يُحسن معاملتك كما توقعت.

- هل كنت تعلم بمكاني؟

- منذ أن رأيتك تقفين في النافذة تراقبينه وتقضمين التفاح!

- لماذا تركتني؟

- أنت هنا بأمان أكثر من أي مكان آخر.

- وليلى!

- تظن بأنكِ تعيشين بين الرواة.

- ماهي قصته؟

- ألم يُخبرك؟!

حركت رأسها نفيًا، المرة الأولى التي تتجاذب معه أطراف الحديث برغم مكوثهما معًا في بيت واحد! للمرة الأولى تشعر بأنه إنسان مثلها أكثر مما ظنت ويقوم بأفعال البشر، يُسأل ويُجيب بأريحية مفرطة!

كانت تظن طوال تلك السنوات أن ليلى فقط هي التي تستطيع الاقتراب منه ثم يأتي أطفاله من بعدها، عندما وصلت لهذه النقطة سألته مجددًا:

- والأطفال، كيف هم؟

ألهب سؤالها فؤاده، إنه لا يكاد يعرف عنهم شيئًا أو يراهم سوى مرة واحدة في خلال اليوم، كان منشغلًا بأسياده فيما مضى، أما الآن فهو متشوق للعب دور الأب كما يجب أن يكون.

سيعود مهما منعوه، مهما أوجعوه ضربًا كما فعلوا ظهر اليوم وهو يصلي، سيصمد حتى ييأسوا منه ويتركوه، وربما هذا اليوم قريب جدًا!

- هلّا يشرح لي أحدكما ماذا يحدث هنا!

التفت كلاهما نحو جلال الدين الذي يعتلي منتصف الدرج القصير محاولًا فهم كل تلك الألغاز التي لا تنتهي!

نهض سلطان وهو يقول له بشيء من التوبيخ:

- هلّا تساعدنا أنت في رفعه إلى هذا السرير؟ على الأقل نخرج بشيء من عضلاتك تلك!

❋ ❋ ❋

جلس خمسة من شيوخ قبيلة الرواة قبالة الحاكم الذي يلزم مقعد المدفأة المنطفئة الكبير، وآصف يتوسطهم متحدثًا بصفته الجديدة، شيخ القبيلة بينما الحرس يحيط بالجلسة على شكل نصف دائرة، كل منهم يحمل سيفه على أهبة الاستعداد، بينما الحاكم يوزع نظراته بينهم بابتسامة كبيرة وقبل أن يهم آصف بالحديث أشار الحاكم للحرس الشخصي بالانصراف على الفور، تراجع آصف ثانية في مقعده ينتظر خروج آخر الحُراس ثم قال متعجلًا:

- لدينا عندكم أمانة يا زعيم داو.

دقق الحاكم النظر في عباءتهم المنتفخة دون أن يتخلى عن ابتسامته التي شارفت على أن تتحول إلى ضحكة ساخرة وأجاب ببطء:

- هل يصح أن تدخلوا مجلس الحُكم بالأسلحة النارية؟

تنحنح آصف وهو يتبادل النظرات مع الخمسة، وسؤال «كيف عرف؟» تضج به ملامحهم، فانطلقت ضحكاته الساخرة التي كان يمنعها لتزداد دهشتهم المختلطة بالغضب الخفي.

الأسلحة النارية أعظم أسرارهم، خمستهم فقط من مجلس القبيلة يعرف بها، ولا يوجد بينهم خائن فكيف عرف!

كانت انتفاضة آصف المبهوتة هي الإذن لهم بأن يلحقوا به ويحذوا حذوه، كل منهم يجمع عباءته وهم يستمعون له وهو يقول حانقًا:

- لم نحضر إليك لتسخر منا!

وكما ضحك فجأة اختفى كل مرح من وجهه فجأة أيضًا، وكأن ضحكاته لم تكن! ودون أن يتحرك قيد أنملة في مقعده الوثير قال ببطئه المعهود وهو يتأمل رقعة الشطرنج دون أن ينظر إليهم:

- وأنا لست خزنة لحفظ الأمانات يا آصف، وأظننا اتفقنا منذ سنوات بأن داو لا دخل لها في نزاعاتكم.

قال آصف بلؤم وهو يعرف ماذا يعني بكل حرف نطق به:

- لقد اتفقنا وقتها على تبادل المصالح.

ولكن الحاكم بادله بابتسامة أكثر خبثًا مجيبًا:

- ألم تنتهِ المصالح بعد يا آصف، أو لأنني لم أُبارك لك انتزاعك للمنصبِ الجديد.. يا شيخ القبيلة!

كان سجالًا يتبعه خمسة أزواج من العيون ذهابًا وإيابًا، يشعرون ببعض الفخر والقوة وكبيرهم يناطح الحاكم كلمة بكلمة، تلك القوة التي لا يشعر بها آصف نفسه في وقفته تلك وهو يهتف بعدم رضا:

- لا تبارك لي مادام هناك من يهدد بقائي فيه، بينما أنت تاركه يعبث بنا يا عظيم داو!

هو يدرك تمامًا بأنه يقف أمام شخص لا يستهان به.

ما جمعهما في الماضي يخبره بما هو قادر على فعله، يضحك ساخرًا وبداخله يوضّب لهم المصائد لتكون جاهزة لاصطيادهم عند خروجهم من عنده دون أن يُحرك ساكنًا، لكن الوضع حرج والوقت ليس في صفه.

تباطأت الكلمات وهي تخرج على لسان الحاكم بينما يرمقهم بدهاء:

- هو غير مؤذٍ على الإطلاق .. بالنسبة لي.

مطه للعبارة الأخيرة وما فهمه آصف منها جعله يزوي ما بين حاجبيه الكثيفين وهو يتساءل منفعلًا:

- لا أعلم لماذا تركته كل تلك السنوات، ألا تخاف أن يؤثر في الناس ويقلبهم ضدك؟ لقد تحدى ساحرك كثيرًا ولم يستطع الآخر أن يناله بسوء، ألا تخشى أن يجمع الرعية حوله وتصير له زعامة!

رفع الحاكم أحد حاجبيه وهو يميل برأسه قليلًا فاتحًا كفيه وكأن آصف نطق بشيء مُسلم به وقال مدعيًا الدهشة:

- وهل فعل؟!

تبادلوا النظرات من جديد قبل أن يتناول الحاكم السيخ الحديدي ويميل للأمام قليلًا ليعبث به في رماد قديم لحطب كان مشتعلًا يومًا ما، وهو يقول بنبرة متملكة حادة:

- جلال الدين ماهو إلا جرذ، يختبئ في جحره دومًا، يخرج لتناول الطعام ويعود إليه، لا همّ عنده إلا محاربة سلطان من جهة والحصول علي فتاته من جهة أخرى، ومادام تفكيره لا يتجاوز حظ نفسه فلماذا أعاديه؟!

صمت قليلًا قبل أن يشيح بيده بلا مبالاة متابعًا:

- لا بل حتى أنا أستفيد منه، إنه يقوم بترويض أحصنتي، وأصير أنا أول حاكم اهتم بالرياضة في زمن جفت فيه الماء ونفذت الطاقة، حقًا أنا حاكم عظيم.

اهتز جسده فاعتدل في مجلسه مستكملًا ضحكاته حتى احتقن وجهه من شدة الضحك مستمتعًا بملامحهم المتعجبة الغاضبة، حتى اندفع آصف هاتفًا بغضب:

- وهل سيبقى الوضع على ما هو عليه لو علم بأنك من قضى على شمس الراوي؟

ضيق الحاكم عينيه وهو يجيب بتمهل:

- وهل ستبقى أنت على قيد الحياة لو علم بأنك من استدرجته.. هه؟

عم السكون للحظات تلاقت فيها أعينهما طويلًا قبل أن يقول آصف بجمود:

- فليعرف، هناك أسلحة نارية في استقباله لم يكن يعلم عنها شيئًا.

- لقد أصبح يعرف!

حدق به آصف بعدم تصديق ولكن الحاكم أومأ برأسه باستمتاع مستطردًا:

- وصلته اليوم المعلومة مع ابنة عمه.

نطق بها الحاكم ليعود إلى هِستريا الضحك الشديد مجددًا وانخفضت الهمهمات المنزعجة المتعجبة بين الخمسة وهم يشيرون إلى آصف بضرورة الانصراف، فالجلسة لم تأت بنتيجة مرجوة، وما يحدث الآن هو أنه يستمتع على حسابهم لا أكثر ولن يفيدهم بشيء أكثر، أطرق آصف قليلًا وهو يتمتم بصوت مسموع:

- سنتصرف بطريقتنا، اسمح لنا بالانصراف.

أشار إليهم بالانصراف فتحركوا على الفور وقبل مغادرتهم علا صوت الحاكم يستوقف آصف مناديًا، فتوقف الرجل فجأة واستدار إليه ليسمعه وهو يشير إليه بسبابته محذرًا قائلًا:

- لا أريد أعمال عنف في البلدة، ولا أحب أن يشيع أمر الأسلحة النارية هنا، أهل داو مسالمون للغاية، لا يعرفون سوى جمع قوت يومهم، وأنا لا أريد إزعاجهم بمشاكلكم تلك، هل تفهم؟

أومأ آصف موافقًا قبل أن يشيح الحاكم بيده ليتابعوا طريقهم ثانية نحو باب قاعة الحكم مغادرين، وقد وصلتهم رسالته الضمنية وفهموا ما مقصدها جيدًا، إنه يطلق أيديهم في التصرف، ولكن دون أن يشعر أحدٌ بهم، فالسرية أهم من الفعل نفسه!

* * *

رجمًا بالغيب، واصلت سلام محاولاتها ربط القصص التي يحكيها سلطان للوصول للحلقة المفقودة التي أودت بـ خامسهم المُلقى فوق الفراش غائبًا عن الوعي إلى تلك الحالة التي أصبح عليها.

استطاعت في البداية أن تفهم من الحوار المتبادل بين ثلاثتهم حقيقة العلاقة الجديدة بينه وبين جلال الدين، وكيف تفاهما هكذا بين يوم وليلة، لقد ترك زوج أختها ممارسة السحر وتخلى عن منصبة كساحر داو، ويبدو أنه يساعد غريمه القديم للهروب من قوانين تسمع بها لأول مرة.

عيناها تتقلبان بينهما كمحقق يقوم بحل معضلة صعبة بتركيز شديد، زوجة جلال الدين يبدو عليها الإرهاق والحزن لكنها تقاوم، شامخة كملكة خلعها قومها بالقوة عن عرشها تتخذ الدرجة الأولى من السُلم الخشبي القصير مجلسًا لها تضم ركبتيها إلى صدرها، يعلوها بدرجتين جلال الدين الذي يجلس مُباعدًا بين ساقيه مُشرفًا عليها فبدا وكأنه يحميها بكلتا يديه وقدميه معًا، مُستندًا إلى فخذيه لا يتوقف عن التلويح بيده وهو يتحدث إلى سلطان ويسأله أسئلة متتابعة، بينما الآخر

يجيب بكل ما لديه من تفاصيل لمنحه الثقة التي يبحث عنها بين سطور تساؤلاته ويقص ما تتلهف هي لسماعه.

لذلك أنصتت جالسة بجوار سلطان على طرف الفراش الوحيد في المكان والمسجى مالك فوقه يحرك جفنيه، لم تشِ به وتخبرهم بأنه استفاق من غيبوبته رافضًا أن يفتح عينيه، تركته يسمع معها قصته من بين شفتي شخص آخر:

- كنتُ ربما في العاشرة أو أقل عندما حضرت ذات ليلة زوجة صقر القاسم إلى أبي لتطلب منه أن يكشف لها عن نوعية الجنين الذي تحمله، كانت امرأة كبيرة بالعمر، ما زلت أذكر نظراتها المُخيفة..

لاحظت سلام ارتعاش شفتي مالك واحتقان وجهه عندما نطق سلطان بعبارته الأخيرة، لكنها ظلت تحفظ سر سماعه لما يقال على بُعد شبرين فقط من أذنيه وعادت تُنصت من جديد، بينما سلطان يتابع ما بدأه:

- كانت أول امرأة تنظر بتلك الطريقة وهي تتحدث لصخر العاصي بجبروت جعل جسدي يقشعر منها وتأمره أمرًا مباشرًا بأن يجعل الجنين فتاة!

رفعت خديجة رأسها لأعلى تتبادل النظرات المتعجبة مع زوجها قبل أن يعودا إلى وجه محدثهم مجددًا والذي كان يستطرد قائلًا:

- بعدما انصرفت مباشرة ظل أبي يضحك لدقائق طويلة وهو ينظر لي بفكاهة، كلما أراد أن يتكلم عنها تعاوده نوبة الضحك، لدرجة أن العدوى أصابتني أنا الآخر وكنتُ أضحك كالأبله، وأخيرًا تمالك والدي بصعوبة وأخبرني بأنها زوجة أكبر أثرياء البلدة وبأنها امرأة مجنونة، فقدت اتزانها على إثر سوء معاملة زوجها لها ثم أولادها أنفسهم بعد أن كبروا وصاروا في عمر الشباب، وكأنها خادمة في

القصر وليست أمهم، هل تصدقون بأنهم كانوا يسجنونها أحيانًا في هذا المكان لعدة أشهر لأقل خطأ يصدرمنها!.

همست خديجة نيابة عن سلام التي كادت تنطق بنفس سؤالها للتو:

- ولماذا؟!

ليرفع سلطان كلا كتفيه بخفة ويخفضهما وقد زم شفتيه قبل أن يجيبها ببداهة:

- لا تندهشي هكذا ويظهر عليكِ الاستياء، عائلة القاسم مثلها مثل بعض العائلات فاحشة الثراء، يتخذون النساء مجرد رَحِم يحوي أطفالهم ثم يلفظونهن بعد ذلك كالخادمات، ولذلك يقع اختيارهم على الفتيات التي تكون من أُسرة متواضعة ليفعلوا بهن ما يحلو لهم، وصقر القاسم كان مشهورًا بالغلظة وقسوة القلب، فحديقتهم كان الناس في الأصل يخشون المرور بجوار حدودها قبل الاحتراق بكثير، لتصبح أسطورتهم الكبيرة بعد الاحتراق!

- معك حق، لقد رأيتهم وهم يطلقون علينا الرصاصات بجنون، لايفرقون بين رجل وامرأة، حتى البهائم لم تسلم من نيرانهم التي اشتعلت بها الدور.

قالتها بأسى وكل الماضي يعود بلهيبه، تتصاعد شراراته في ذاكرتها ثم تخمد تاركة دخانها المتصاعد هناك فور أن وضع كفه على كتفها من الخلف ويربت عليها قليلًا.

قاطعت سلام اللمسة العاطفية بلا مبالاة وكأن قصتهما لا تعنيها على الإطلاق لتحث سلطان على استكمال ما يهمها فقط وتسأله بنبرة مشحونة:

- تابع قصته أرجوك.

التفت ثلاثتهم إلى الاهتمام المنحوت فوق ملامحها وقد جذبتهم نبرتها المتوترة، دقق بها سلطان للحظة وهو يزوي ما بين عينيه قبل أن يلتفت ثانية مدعيًا التغافل عنها مستطردًا:

- سبعة أشهر كاملة لم تنقطع زوجة صقر القاسم عن زيارة أبي، تمنحه الكثير من العطايا وهي على يقين من أنه يستطيع أن يجعل جنينها فتاة، والأسوأ أنه قد أكد لها بأنه فتاة بالفعل، حتى انقطعت لشهرين أو أكثر قبل أن تطرق بابنا ذات ليلة قابلةُ البلدة المُسنة وتتوسل إلى أبي بأن يصحبها إلى زوجة صقر القاسم التي تنتظرها في الغرفة الصغيرة التي تعيش بها وفي حالة وضع متعسرة وترفض أي مساعدة من دون حضوره ليُشرف على ولادتها بنفسه ضمانًا بأن يكون المولود فتاة كما قال لها!

بشحنة مضاعفة همست سلام تقاطعه وهي تنظر بشرود بعيدًا و تتخيل لحظة الميلاد البشعة تلك، امرأة كبيرة بالعمر زوجها يتمتع بالثراء والإمكانات الكافية ليأخذها إلى مشفى كبير تلد به في أمان، وبدلًا من ذلك، تذهب إلى غرفة القابلة وترسلها إلى ساحر البلدة ليشرف على ولادتها المتعسرة!:

- امرأة مجنونة!

علق سلطان ببداهة على مقاطعتها:

- ذكرت من البداية هذه المعلومة!

رمشت سلام عدة مرات تحاول السيطرة على الثورة التي حدثت بداخلها وهي تتوقع أسوأ ما يمكن حدوثه، وبنظرة خلف ظهرها كفيلة

بأن تعرف أن الأسوأ لم تسمعه بعد، والذي عاد سلطان ليسرده دون تعليق على الحالة التي تغلف الفتاة التي لم يعرفها يومًا بشكل جيد:

- بالنسبة لرجل برتبة ساحر، لم يكن ضميره يؤنبه كثيرًا، بل كان مُسليًا لأقصى درجة وهناك من يظن به أن لديه قدرة على تغيير نوع جنين ما، عاد والدي إلى البيت بعد عدة ساعات وهو في الحالة التي كان عليها يوم جاءته للمرة الأولى، يضحك بشدة بلا توقف، ولم يخبرني ولم أهتم، ولكن بعد أن صرت ساعده الأيمن صار يحكي لي عن القصة وكأنها دعابة، وأخبرني بأنها كانت تنزف الكثير من الدماء ورغم ذلك تتشبث بتلابيبه وتحدق به وتصرخ «اجعلها فتاة» وهو كان يجذب طرف عباءته ويؤكد لها بأنها فتاة بالفعل، وعندما حانت اللحظة وتدخلت القابلة المتعرقة من شدة المجهود الذي تبذله معها لتساعدها، صرخ الطفل فور ولادته، اعتدلت المرأة وكأنها لم تكن تصرخ منذ لحظات، كانت مشعثة الشعر يتصبب منها العرق تقبض على رأس القابلة من الخلف بأصابعها الطويلة صارخة بها «أخبريني أنها فتاة، قولي بأنها فتاة»، وعندما استطاعت القابلة المسكينة أن تتفلت قليلًا من بين أصابعها التي تشبه الكلاليب ونظرت لصخر العاصي الذي أومأ لها موافقًا على الفور!

وضعت خديجة رأسها بين يديها مغمضة عينيها وهي تتوقع ما حدث، المرأة كانت في حالة جنونية فقالوا لها ما تريد سماعه، ولكن مهلًا، ألم تره بعد ذلك وهي تنظفه مثلًا؟!

- ألا يُمكن أن تختصر قليلًا؟

علم جلال الدين بأنه لم ينطق مجرد عبارة بل سحب فتيل قنبلة موقوتة حينما نهضت سلام فجأة موجهة له كل مأساة عاشتها يومًا، كل غضب وقهر مكبوت شعرت به منذ أن كانت طفلة يلمزونها بالشؤم، كل

يُتم شعرت به عند موت والديها، كل خوف نازعته في غرفة الأسياد، كل وحدة وتشتت ورعب وهي سجينة الغرفة أعلى القصر، صرخت به:

- إن لم تكن تهتم فاخرج إذن من بيته وابحث لك عن مأوى آخر، كنتُ أعلم حقيقتك هذه منذ زمن .. يا مولانا.

هتفت آخر كلماتها ساخرة بمرارة وقد بدأت الدموع في طريقها للقفز من مقلتيها وهي تستطرد بعنف وتقترب من السُلم نحوهما ملوحة بانهيار وشيك:

- منذ متى وأنت تهتم لأحد غيرك أنت ووالدك وصاحبكم ذاك الذي يقول عنك ما يجعلنا نخافك أكثر من الأسياد، كنت ترانا كل عام تأخذنا الأسياد واحدة تلو الأخرى في يوم الحصاد، وكنت تجلس في بيتك لا تحرك أصبعك لنجدتنا، لا بل تخرج بين أحصنة الحاكم تروضها له وتستمتع بينما إحدانا حبيسة غرفة ممتلأة بالجن والشياطين.

نهضت خديجة تقف متحفزة مع اقتراب سلام وكأنها ليست تلك المرهقة المتعبة منذ قليل مما جعل سلطان ينهض هو الآخر مقتربًا من سلام مادًا ذراعه حائلًا بينهما حتى لا تقترب أكثر، يأمرها بحزم:

- اجلسي مكانكِ يا سلام، أنت لا تعرفين تفاصيل كثيرة.

كان جلال الدين هو آخر من صدر عنه حركة بينهم، حركته كانت بطيئة مع ما يعتمل بداخله وهو يعيد خديجة إلى مكانها ثانيةً، بينما كلمات سلام تتشعب بأركانه ودموعها تضربه بقوة.

فتاة تصغره بأكثر من خمسة عشر عامًا سكبت فوق رأسه برميل ماء مثلج، جَمُدت أطرافُه فلم يقدر حتى على أن يحيد بنظراته عن وجهها الباكي، أزاحت الستار بدموعها عن حقيقته، ألم يكن حقًا البطل الذي

يهزم الأشرار دومًا؟ أم كان أحدهم دون أن يدري، يبدو أن البطولة حالة زائفة نعيشها حينما نريد أن نجنب أنفسنا الصراع الحقيقي!

ربت سلطان على رأس مالك وهو يعود ليجلس بجواره على الفراش مجددًا مقابلًا لجلسة سلام التي تحاول السيطرة على غضبها ويقول له:

- انهض يا فتى، فالحرب ستقوم بسببك!

لقد سمع مالك كل ما دار بينهم، لكنه يعيش حالته المشتتة الخاصة به، إنها المرة الأولى التي يزأر أحدٌ فيها دفاعًا عنه، وهو ممتنٌ جدًا لها، لقد حازت المركز الأول للمرة الثانية على التوالي!

في المرة الأولى نادته باسمه وفي المرة الثانية هاجمت شخصًا لأجله، كان هذا كفيلًا بأن يجعله يفتح عينيه ويحاول النهوض، هناك فريق يريد أن ينضم له، فريق مكون من شخص واحد، شخص ينهمر الأزرق من عينيه تعاطفًا معه، ويسيل في رحلة متقطعة عبر بشرته السمراء اللامعة.

فتح مالك عينيه ببطء فاصطدمت بدموعها المنسابة، من قال بأن الماء قد جف؟!

كيف يتركهم سلطان ويغادر وهم يتناحرون هكذا، كان يتعجل بأن يُصلح بينهم ويضع كلًا في خانته ككتاب مفتوح:

- لا أمتلك اليوم بطولة، انهض يا فتى!

إنه يتشبث بجمعهم من حوله!، لديه حربه الخاصة مع من يرونه من حيث لا يرونهم، وربما هذا ما يجعله يصبر على كل مشاحناتهم بينما يلعب هو دور المصلح الاجتماعي بمهارة.

ساعده سلطان على الجلوس مستقيمًا فوقفت سلام لتفسح له الطريق، توقفت بالجوار تناظره، بينما تشتّتت نظراته قبل أن تتوقف عند جلال

الدين لوهلة ثم تتجه نحو خديجة ليعود بعينيه إلى جلال الدين مجددًا، ثم يقوم بفرك كفيه توترًا لدقيقة كاملة ويقول بوعد وبنبرة منخفضة:

- سأحميها..

أرسلت خديجة تنهيدة طويلة وهي ترقب حالته المزرية، ملابسه النسائية، خفوت نظراته قبل نبرة صوته، إطراق عينيه قبل رأسه، لقد نشأ وقد تذوق فمه كل أنواع القهر الممكنة وغير الممكنة، فابتسمت له وأومأت بامتنان قائلة وكأنما تُحدث طفلًا وتحاول إرضاءه:

- شكرًا لأنك سمحت لي بالبقاء.

غض نظراته متحدثًا بنفس الانكسار وكأنه يرى نفسه وقد تعرى مجددًا أمامهم كما حدث منذ سنوات موجهً حديثه إلى سلطان:

- لم أشكرك يومها على العباءة والخبز، لقد سترت جسدي وأطعمتني بعد أن ضربني إخوتي ونهشتني كلاب أبي.

ندت الدموع في عيني خديجة بينما ارتعشت النظرة في عيني زوجها وهو ينهض ويعبر جوارها ليتخطاها، سار نحوه بتُؤَدَةٍ يتأمله بتمهل.

جلباب الطاووس الذي يرتديه مألوف له، لقد رآه من قبل ولكن لا يتذكر بالضبط، وصل إلى الفراش وتوقف قبالته قبل أن يجلس القرفصاء أمامه يسأله بروية:

- أذكر أنني رأيتك ولكن لا أعرف متى؟

شعَر بتململِ سلام في وقفتها ولكنه لم يعرها اهتمامًا، ظل مُدققًا بملامحه يُحاولِ التذكر بينما مالك يجيب ببطء:

- كنت أتلصص عليكما.

- أوووه.

تأوه سلطان ممازحًا وهو يزوي بين حاجبيه وينظر إلى جلال الدين بعبث ويوجه حديثه إلى مالك قائلًا:

- لا تحكِ تفاصيل فمعنا فتاة قاصر.

في وقت آخر كان سيوبخه، ولن تتورع خديجة في دفاعًا عن نفسها، ولكنه ما زال يُدقق في وجه مالك متجاهلاً ما ألقاه غريمه للتو.

غارقًا في لجة يم التهم التي رمته بها سلام منذ لحظات، مشاعره منفصلة تمامًا، وخديجة كانت تشعر به وتريد دفع تلك التهم عنه، لذلك صمتت حتى لا تشتته أكثر وهو يسأله مجددًا مشجعًا إياه على التعاطي معه:

- لماذا لم تحاول التواصل معي بأي طريقة؟

حرك مالك رأسه نفيًا عدة مرات حتى شعر جلال الدين بأنه لن يتوقف أبدًا حتى قال أخيرًا:

- في كل مرة كنت أتبعك وأتلصص عليكما وأستمع إلى ما تقولانه، فأدركت المشكلة التي تقعان بها، حكايتكما كانت تُسليني ومقابلاتكما كانت تشعرني بأنني لا أزال أحيا وأتنفس، أخرجتني من وراء سور القصر دون أن تدري وجعلتني شغوفًا بشيء ما، حتى وإن كانت عاطفة لا تخصني، ولن أعيشها يومًا، هزتني مشاعر قوية لم أفهمها وكأنني دخلت عالمًا سحريًا، وفهمت كيف يشعر الرجل تجاه فتاة أحبها، وكيف يعمل على حمايتها.

أومأ له جلال الدين برأسه وهو يهمس بنبر متهدجة مُشجعًا:

- أكمل..

- المرة الوحيدة التي التفتَّ فيها نحوي فجأة اختبأتُ سريعًا، لم أكن أريد أن ينفك هذا السحر، أو يعلم أحدٌ بوجودي.

- أريد أن أسمع حكايتك كاملة، ومنك أنت هذه المرة.

- بما أنكم قد وجدتم طريقة سلمية للتعايش وبما أنني أعرف القصة كلها بحكم مواهبي السابقة فسأعود إلى البلدة قبل الغروب، وسأوافيكم في الغد.

- الغروب؟!

هتف بها جلال الدين وهو ينهض واقفًا فحذت خديجة حذوه وهي لا تعرف ما حل به فجأة، نظر حوله نظرة تشمل أرجاء المكان قبل أن يقول بلوعة:

- لم نصلِ العصر حتى الآن، مالك، أين اتجاه القبلة هنا؟

راقبت سلام ارتفاع وجنتيه للمرة الـ.. ثالثة أو الرابعة، يبدو أنها ستتوقف عن عد ابتساماته، دون أن يشرح لها سابقًا استطاعت أن تفهم بأنها تظهر مرافقة لمناداته باسمه! وعندما تلاشت ابتسامته أشار إلى اتجاه أحد الأركان يرشده:

- من هنا.

- أوكنتَ تصلي؟!

ظهرت الحيرة في عينيه وهو يجيب جلال الدين بتلقائية وكأنه يسأل عن شيء بديهي:

- نعم! عندما كنت أخرج من القصر أثناء عمل المزارعين في الحديقة، كنت أراهم يصلون في هذا الاتجاه، وأيضًا كانت لي وأنا صغير مُعلمة تأتيني مرة في الأسبوع تعلمني الكتابة والقراءة تعلمت منها كيف أصلي قبل أن تنقطع عن زياراتي.

- جيد.. الآن نؤدي الفريضة، ثم نستمع لبقية القصة.

❋ ❋ ❋



كانت التجربة الأولى له، لأول مرة يعرف معنى أن يصلي جماعة، وربما لولا اختضاض جسد الواقف بجواره لكان ترك العنان لماء عينيه وخشوع قلبه، كان يبتسم، لا يصدق بأنه يصلي إلى جوار أحدهم! لكن سلطان كان يقطع عليه تأملاته بينما يرتج جسده مرات ومرات ويَئِنّ، لم يكن يفهم ماذا يحدث له!

جلال الدين الذي كان يقف إمامًا لهم كان متشوقًا لأن تجمعه بسلطان يومًا ما في صلاة جهرية ليصدح بالآيات التي تصرفهم عنه.

أما سلام فلقد كانت على وشك الالتصاق بخديجة مع كل حركة تصدر عن جسد زوج أختها، قلبها ينتفض مع كل انتفاضة له، انسل الوشاح الحريري الذي كانت تغطي به شعرها من حول عنقها فرفعته سريعًا ولا تصدق كيف تتحمل أن ترتدي وشاح أم مالك المجنونة.

ذاك الوشاح الذي سحبته خديجة بتلقائية من الخزانة الكبيرة المفتوحة في القبو ووضعته على رأسها، بعد أن همس زوجها في أذنها فسحبتها بعيدًا تعلمها كيف تتوضأ وكيف تصلي، لكنها أخبرتها بأنها مازالت تتذكر كيف كان يصلي والدها وهي لم تنس بعد حركات الصلاة برغم انقطاعها عنها بأوامر من سلطان الذي يفصلها عن عذابه بعض الأمتار!

تحامل سلطان على نفسه ونهض سريعًا يتصبب عرقًا فور أن انتهت الصلاة وهو يقول بلهاث متألم:

- لابد من عودتي الآن.

لحق به جلال الدين حتى خرجا من القبو السُفلي وقد كان المكان الوحيد النظيف الخالي من الرماد وآثار الحريق الذي يصلح للصلاة، أوقفه قبل أن يخرج من الباب الخلفي في حجرة الطبخ مناديًا.

استدار إليه سلطان ومازالت ملامحه محتقنة بالدماء فاقترب منه محاولاً إظهار بعض التعاطف:

- انتظر قليلًا، لماذا لا تقرأ آية الكرسي كما فعلت فوق الجبل، لماذا لا تحصن نفسك ليبتعدوا عنك؟!

مسح سلطان جبهته وهو يجيب بمشقة:

- بل أفعل.

- واليقين يملأ قلبك؟!

- نعم، ولكن لدي يقين أيضًا بأنني لن أفلت هكذا بسهولة من الجرائم التي ارتكبتها سابقًا، يداي يقطر منهما دماء ثماني فتيات وكثير من الكبائر لا يعلمها إلا الله، ولذلك فأنا لن أتصرف كغِر كما فعلت وأنا في العشرين وأختلي بنفسي لأبكي ذنوبي فقط، أنا تعلمت من درسي القديم، وبدأت بك.. ولن تكون الأخير، هناك زوجتي وأولادي.

وجد جلال الدين يده ترتفع لا إراديًا ويربت بها على كتفه مُشجعًا وقد ثبت لديه يقينًا بأن سلطان قد تاب بالفعل ويُكفرعن ماضيه، تلاشى من أمامه سلطان القديم كالضباب المنقشع، وحل بدلًا منه شخص آخر، صديق جديد يشعر معه بالألفة، ووجد نفسه يهمس له بخفوت وكأنه يخشى جرح مشاعره:

- يجب أن تغتسل وتنطق بالشهادة إن كنت لم تفعل حتى الآن.. وسأعلمك كيف تحصن نفسك منهم.

تحامل مرة أخرى على أوجاعه بينما ينظر إليه بدهشة، بين ليلة وضحاها جلال الدين يعامله بلطف، اليوم يحدث الكثير من العجائب، تقلبت فيه الكثير من القلوب كما تتقلب الأبصار!

- لقد فعلتها بعد أن سقطت من الجبل متدحرجًا، وأفعلها كل يوم لأحاول أن أنظف نفسي مما كنت أغوص فيه من الوحل، منذ أن رأيته يحترق ويناديني!

قطب جلال الدين بين حاجبيه وهو يسأله بفضول بينما لم يتجاوزا الباب بعد:

- من هو؟!

زاغت نظراته فجأة وشعر بالاختناق وقد تقلص وجهه وهو يُجيب بالنبرة الخافتة التي يتبادلان بها أطراف الحديث:

- والدي، عندما فقدتُ وعيي أسفل الجبل حلُمت به، رأيته يُسحب بكلاليب من نحاس ساخن، الكلاليب تنغرز بلحمه حتى العظم، يُجر فوق أشواك تنزع جلده وهو يصرخ بشدة وينظر إلي ويمد يده متسغيثًا، ثم يُرفع في الهواء ويلقى به في قعر جهنم، كنتُ أقف قريبًا منه وأنتظر دوري.. بينما صرخاته تكاد تقسمني نصفين، كانت رهيبة لا أستطيع وصفها، وعندما استيقظت كانت الشمس مسلطة فوق رأسي، وراعي أغنام يجر غنمه بعيدًا مذعورًا، بعدها مباشرة رأيت حلمًا آخر وظل يراودني لثلاثة أيام متتالية، وكنت أنا بطله هذه المرة، أنا من كنتُ أُعذب ولكن بالغرق!

ساد بينهما صمت طويل قبل أن يقطعه جلال الدين متسائلًا من جديد:

- ألن تقص عليّ حكاية يقينك القديم ذاك؟!

- عندما أعود، فالشمس تغرب بسرعة عجيبة هنا!

كان يعرف بأنه يتملص منه ولذلك تركه ينصرف، سيتحدث بإرادته يومًا، أما الآن فهناك حكاية أخرى بالداخل تنتظره!

❋ ❋ ❋



وكأنه يقطع الطريق بداخل خلية من النحل، قرصة مع كل خطوة، بل قرصات عدة في أماكن متفرقة من جسده، من شدة الألم المتصاعد تخلى عن المشي وبدأ يجري، تتخطى قدماه الغصون المقطوعة المُلقاة أرضًا فوق أوراق الشجر الذابلة المتساقطة، صدره يعلو ويهبط ،ويرتفع لهاثه بينما الأذى الذي يتعرض له لا يتوقف حظة واحدة، في البداية كان يوبخ نفسه هامسًا «تألم يا ساحر البلدة، اشعر بالألم»، أما الآن وقد انقطعت أنفاسه وأصبح الألم لا يُطاق انصهر عناده وبدأ في الجهر بالآيات، ليتوقف كل شيء فجأة دون أن يتوقف هو مُلقيًا بجسده المنهك فوق أحد الجذوع الكبيرة، دقات قلبه تعلو حتى بات يشعر بأن عباءته تتحرك مع شدة النبضات.

انتهى من القراءة واسترد بعض أنفاسه ليعود إلى المشي مجددًا، قطع مترًا واحدًا فقط قبل أن يسمع همسة ممطوطة باسمه «سُلطاااان»، نظر خلفه فلم يرَ شيئًا، حث السير بخطوات أوسع فعاد النداء الهامس من جديد «سُلطاان عُد إلينا» ولكن عن شماله هذه المرة، زاد من سُرعة خطواته وهو ينظر عن شماله فاصطدم فجأة بجذع شجرة وسقط على ظهره!

استجمع شجاعته بينما السقطة تؤلمه، فرك رأسه وهو ينهض من جديد، تحرك الهواء من حوله في دائرة فرفع صوته بالاستعاذة وهو يعبر الدائرة الوهمية من حوله.

خطوة، اثنتان، ثلاث قبل أن يقترب الهمس من أذنه مجددًا مُكررًا «عُد إلينا بلا شروط»، الهمس كان يتخلله وليس مجرد صوت يسمعه، يشعر به ينساب من أذنه إلى داخل عقله، يسير في شرايينه ويختلط

بدمائه والحروف تتشكل أمام عينيه في الهواء «عُد، بلا جبل، بلا شروط، سامحناك، أنت الأعلى»، وقف مبهوتًا مأخوذًا وقد بدأت الحروف في التلاشي شيئًا فشيئًا، أغلق عينيه بصعوبة وقد بدأ يفقد الشعور بلسانه، لقد جرب السحر على كل أهل البلدة، تلاعب بهم وخيل إليهم ما يشاء، ولكن هذه المرة الأولى التي يسحره أحدهم!

لقد تجسدوا له مرات قليلة في غرفة الأسياد، ولكن هذه المرة الأولى التي تتجسد له إحداهن في جسد امرأة جميلة.

رمش عدة مرات وهو ينظر إليها، تفترش الأرض بين أوراق الشجر التي لم تعد ذابلة، كانت حمراء ومصفرة وخضراء زاهية، كثبان من الأوراق، وهي تنام فوقه كأجمل ما يكون، وخصلات شعرها السوداء الطويلة للغاية تصنع دائرة من حول رأسها.

تبتسم له فيلمع الألماس من بين شفتيها لتغلفه بالأبيض، عارية الجسد، ترمش له بحلاوة فتتداخل ألوان عينيها الفيروزية، ليتوقف هو عن الرمش، يُحدق فقط!.

لم يختبر جمالاً كهذا من قبل، حُسن غير أرضي، مأخوذ من كُتب الأساطير وحكايات الحوريات، إنها تغويه بينما هو متجمد وقد بدأ قلبه يضج بقوة أكبر من سابقتها ووجهه يتلون بتلون الأوراق التي ترقد فوقها، ودون أن تباعد بين شفتيها همست بنفس الصوت الذي كان يهمس له من قبل قليل «عُد، وسنخبرك بكل ما تريد، ستكون لك الغلبة، أقبل ولا تخف» ، ابتلع ريقه بصعوبة وهي تهمس بكلماتها الأخيرة بنبرة تشبه اللحن، تبعتها بضحكة موسيقية طويلة جعلته يشعر بالدوار فجثا على ركبتيه.

ليته كان في قصة واقعية فلربما ارتفع الأذان فيها في تلك اللحظة يذكره بتوبته، أو يمر به شيخ كبير يأخذ بيده، أو تحدث مصادفة تصرف عنه غوايتها وسحرها، لكنه للأسف يسكن داو، بلدة تتوارى خلف الظلال!

ولأنه يعلم ذلك، كان حتمًا أن يأتي الإنقاذ من داخله، هو فقط القادر على صرفها، يعلم بأن النظر هو أول مروج السِحر، لذلك حارب نفسه ليُغلق عينيه، الأمر لم يكن سهلًا على الإطلاق، شعر بأنه يُغلق أهدابه على حديقة متخمة بالأشواك تنغرس بعينيه، والألم حاد يقطع الأنفاس ولكنه في الوقت نفسه يوقظه من الغفلة، كلما اشتد تبخر السِّحر، لولا الوجع لظل سابحًا في نعيم مشتعل نهايته وخيمة ضارية، تذكر النهر والغرق، تذكر صخر العاصي يناديه وهو يسقط في قعر جهنم!

كانت لا تزال تناديه وتهمس له، فيرفع في عقله أبواقًا لنداء آخر، نداء زأر به وهدير الموج يبتلعه ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾

فينحني جسده ويسجد على الفور وقد انحلت عقدة لسانه ويهتف بالاستعاذة ويليها بآية الكرسي، كانت تلاوته تشبه الصراخ، كان يستغيث، يلوذ بحماه، يأوي إلى ركنٍ شديد.

لا يعرف كم مر عليه من الوقت، كل ما يعرفه أنه كان يذرف الدموع بينما قلبه يوجعه بشدة من فرط الانفعال، إلا أن الهدوء الذي أحاط به وعودة جسده إلى طبيعته أخبراه بأنها ذهبت وتركته، وبأنه قد بطُل ما كانوا يفعلون.

كان في طريقه إلى الخروج من الحديقة الشاسعة مستخدمًا الطريق الذي يؤدي به إلى بيته من الخلف، حيث نافذة غرفة الأسياد سابقًا، يتخبط من فرط الإنهاك الجسدي الذي تعرض له .

لكنه لم يكد يصل حتى لاحظ ألسنة نيران عظيمة تنبعث من البيت كله وليس من نافذة الغرفة فقط قبل أن يصل إلى سمعه صرخات بعيدة، النيران كانت تبتلع البيت عن آخره وتضرب دخانها في السماء المظلمة حديثًا، فأخذ يعدو بأقصى ما يستطيع دون أن يستوعب عقله الصدمة بعد.

أسرع يعدو إلى الباب الأمامي فوجد تجمعًا من الناس بعض منهم يحاول رمي المياه هنا وهناك بينما البعض الآخر يقف متفرجًا خائفًا من بعيد.

الصرخات تعلو، عرفها وتبينتها أذناه قبل أن يراها بعينيه تصدر عن زوجته، ليلى المنهارة أرضًا صارخة بين الجموع تلطم خديها وتنادي على طفليهما، تخدرت حواسه وهو ينقل بصره بين البيت الذي صار كقطع الفحم المشتعلة وبين ليلى التي تحثو التراب فوق رأسها منتحبة.

تقدم نحوها فرفعت رأسها إليه بكره شديد مختلط بالكحل السائل على وجنتيها، قبل أن تنهض و تدفعه بغل مزمجرة باتجاه البيت وتصرخ به:

- ادخل إليهما، احترق معهما، يا ليتك أنت من احترقت بينما بقيا سَالمين، ليس بعد كل هذا تنجو ويموت أولادي، ليس بعد كل هذا..

دفعها عنه وخلع عباءته التي يرتديها فوق جلبابه يشطرها نصفين بقوة وقد زال ذهوله ويلف كل نصف منهم على يديه قبل أن يحاول دخول البيت.

قفز إلى الساحة الداخلية واستطاع تخطي النيران بها حتى وصل إلى الباب الرئيسي للبيت، دفع أحد حوافه بقدمه فاندفعت النار بوجهه واضطرته للرجوع للخلف وكأنها تدفعه.

خرج ثانية والتف إلى الجانب الآخر حيث النوافذ لكن النار كانت تندفع من الداخل للخارج تطاله بألسنتها، احترق الشطران حول يديه فقذف بهما بعيدًا، وهو ينادي على طفليه، نداءً يائسًا باكيًا.

كان يصرخ باسمهما ويأمل في أن يجدهما يعدوان تجاهه يعبران النيران من الداخل ليرتميا بأحضانه.

لكن النيران أخذت تنفث لهيبها في وجهه ليتراجع بعيدًا خطوة حتى وجد قدميه يعبران الباب الخارجي.

تخلت عنه قدماه حينها وتركته يسقط جاثيًا، كان ركوعًا مختلفًا، الرماد يغطي وجهه وكلتا يديه قد طالتها ألسنة اللهب فاحترقت مساحات منها، قلبه يتمزق وهو يتخيل طفليه يذوبان في الداخل وهو لايقدر على نجدتهما، بينما الهمس من حوله يرتفع كلما كثر البشر من حوله، يذكّرون بعضهم البعض بالنيران التي ارتفعت سابقًا في بيت صخر العاصي والتي قضت عليه هو وزوجته بينما كان هو في الغابة كذلك يقرأ الطلاسم التي تعلمها حديثًا، نجا تلك المرة ولكنه لم ينج الثانية.

احترق قلبه داخل جدران بيته بينما يركع عاجزًا عن إنقاذهما وزوجته تصرخ من خلفه بينها وبينه كره يراه لأول مرة في عينيها، انغلقت الدنيا وحبسته في أركانها، والعبارة التي قالها لـ جلال الدين ترن في أذنه «يداي يقطر منهما دماء ثماني فتيات وكبائر كثيرة لا يعلمها إلا الله»!

❋ ❋ ❋

علا صوت حشرات الليل وانخفض نحيبها، وبقيت مكانها جالسة على الأرض والتراب يغطيها بعد أن حثت الكثير منه فوق رأسها.

انصرف الناس وتركوها محدقة في اللاشيء، يمصمصون شفاههم ويتحسرون على ساحر البلدة وماجرى له، ويتهامسون حول شكوكهم بأن الأمر له علاقة بكرامات جلال الدين شمس الراوي!

الدخان يتصاعد بلا توقف بعد أن خمد الحريق تاركًا البيت هيكلًا أسودَ ينعق الغراب فوقه نعيقًا يستطيع ترجمته ويفك شفراته، الأسياد لا يُتركون بسهولة! لابد من ثمن باهظ عليه دفعه أولًا.

شعر بها تتحرك من خلفه فلم يجرؤ على الالتفات، لقد باتت حطام امرأة، لم يعد هناك وجود لـ ليلى التي كانتها يومًا.

خطواتها المترنحة تقترب منه أكثر فأكثر، وهو لا يزال مطرقًا يفكر في حشا روحه المتفحم بالداخل، كيف اشتعل البيت وأين كانت وقتها، لماذا تركتهما في البيت وحدهما؟ الأسئلة العاجزة مثله هاجمته فالتفت إليها فجأة بشكل مباغت دون أن يحسب حساب ما كانت هي مقدمة عليه.

قطعة من زجاج نافذة البيت المكسور انغرست بكتفه فوق صدره مباشرة، صدر عنه أنين متألم وهو يناظرها مذهولًا ويمسك بيدها التي طعنته للتو، عيناها تجابهانه بجنون، لقد كانت تنوي طعنه برقبته من الخلف لولا استدارته المفاجأة إليها ونهوضه.

ولكن لايهُم، ستنزعها لتذبحه بحرفها الحاد، قبض على يدها وقد تغضن وجهه بينما دماؤه بدأت تسيل من جرحه فوق جلبابه المغبر، يطرق

برأسه لينظر إلى قطعة الزجاج بيدها ثم يرفعها لتتلاقى نظراتهما المبهوتة الجنونية مجددًا، الكحل الجاف على خديها يبس وترك خطوطًا متعرجة تندمج مع نظرتها الجنونية، بينما أصابعه قد تجمدت حول رسخها، لتهمس به بفحيح وقد علت وجهها ابتسامة شيطانية:

- أوتعلم يا سلطان أنهما لم يكونا طفليك، ألم تخبرك شياطينك أنني حملت بهما واحدًا تلو الآخر من رجل غريب!

قالت كلمتها الأخيرة بصرخة عالية وهي تدفع حد الزجاج في صدره ثانية مستغلة الصدمة التي فعلتها عبارتها الأولى فيه فتراخت قبضته عنها قليلًا، ولكن الألم الذي استشرى به جعله يقبض عليها من جديد، بل وينهض كالعنقاء من بين رماده، تغطي عينيه نظرة شرسة يضغط أضراسه ورأسه يرتعش بتقلص وبيده الحرة يُمسك عنقها ويضغط حنجرتها ويبادلها الفحيح بآخر أشد ضراوة:

- ماذا تقولين يا امرأة؟!

وبرغم الاختناق الذي يهاجمها لكنها لم ترتدع بل اتسعت ابتسامتها التي باتت أكثر شحوبًا وهي تؤكد له بنبرة متحشرجة:

- نعم يا سلطان، لقد سقيتك من نفس الكأس الذي شرب منه أبي.

انقلب المشهد رأسًا على عقب وبات هو الذي يشرف عليها من فوقها، ويضغط عنقها ويسألها بنظرات ميتة:

- مَن أبوهما؟

علت ضحكاتها بحشرجة وقد بدأت الدماء تنسحب من وجهها، لكنَّ عينيها المحدقتين لا تزالان تنظران إليه بشماتة وتقول بنبرة خشنة مختنقة:

- برغم كل شياطينك لم تعرف، ولن تعرف، أرحبُ بالموت الذي يتركك جاهلًا على الدوام.. ترتشف كل ساعة ذائقة الموت.. وأنت تنظر في وجوه كل رجال البلدة.. لا تدري.. أيهم كشف سترك.. كما كشف صخر سِتر أبي، ولم يكتفِ بهذا، بل سحره وجعله يُلقي بنفسه من فوق الجبل.

دفعة قوية ألقت بسلطان بعيدًا تبعها صرخات جنونية لم تكن صادرة من ليلى، كانت أم عمار التي لم تتركه بعد أن دفعته بل جثمت فوق صدره وهي تصرخ بشدة وتضربه :

- أين ابنتاي يا ساحر داو، لن أتركك حتى ترشدني إلى جثتيهما، أين وضعتهما في الغابة؟!

كان يحاول حماية وجهه من ضربات فرع الشجرة الجاف الممسكة به، بينما جرحه ينزف بغزارة، حتى شعر فجأة بها تتركه مرغمة، صرخاتها تصبح أكثر جنونًا بينما زوجها يقيدها ويحملها من فوقه ويبتعد بها بعيدًا عن سلطان.

كانت كالثور الهائج تكاد تتفلت من بين يديه ولكنه كان يحاول أن يحكم يديه من حولها بينما شعرها الأجعد المبعثر حول وجهها يضرب وجهه وهي تحاول الإفلات:

- اتركني، لقد أخذ ابنتيّ بدلًا من أخت زوجته المشؤومة وقتلهما ليرضي الأسياد، زوجتك أخبرتني بذلك يا سلطاااان.

التفت سلطان إلى البقعة التي كانت ترقد بها ليلى فلم يجدها، وكأنها قد تبخرت بينما كان يقاتل ليلتقط أنفاسه أسفل أم عمار التي عاد بنظراته ثانية إليها وهي لا تزال تقاوم قيد زوجها.

الرجل يبكي بنحيب ويشهق بصوت مرتفع دون أن يتركها وبين كل شهقة وأخرى يستحلفها بأن تهدأ لأجله ولأجل ولدهما عمار، ماذا سيجني من كل هذا، ضاعت ابنتاه ثم عقل زوجته، ولا أحد يذهب إليه ليشتكي ويطلب حقه، كل ما يصارع من أجله في تلك اللحظة هي أن يُبقي على الفتات المتبقي له.

لقد خرجت تجري من المنزل فور معرفتها بحريق بيت سلطان وموت طفليه، كان هذا دافعًا يجعلها تتشفى به، فقد الساحر قواه وبيته وأولاده فلماذا لا تأخذ بثأرها لعلها تتعرف على قبر فتاتيها.

خرج زوجها يعدو خلفها حتى لحق بها وها هو يدفعها من جديد نحو البيت مجددًا عائدًا وهو يصرخ بها « يكفي، توقفي»، تاركًا من خلفه ذاك الذي كان سيد الخوف يومًا ما، يقف وحيدًا وهواء الليل يصفعه في وجهه، تنزف دماؤه ويلتهب حريق ساعديه بينما عيناه زائغتان بحثًا عن ليلى التي اختفت في الظلام!

❁ ❁ ❁

ثلاث ساعات كاملة وهو يقرأ ويعلمهم كيف يحصنون أنفسهم ويحاول تبسيط المعاني وهو يشرح لهم كيف يتنافى ما يفعله سكان داو مع معنى إياك نعبد وإياك نستعين.

صلى بهم المغرب ثم العشاء، وعندما لاحظ رأس خديجة يسقط رغمًا عنها وهي تجلس بجواره، مال نحوها برأسه وهمس لها بأن تذهب وتحاول النوم ولو لساعة.

في البداية أبت ولكن النعاس كطائر يحط فوق جفنيها لا تستطيع أن تقاومه وتفتح عينيها أكثر من هذا، نظرت حولها بحرج بالغ، ثم أومأت موافقة وهي تنهض نحو الفراش مستسلمة بينما هو يطلب من مالك أن يستكمل معه جلستهما بالأعلى في غرفة المطبخ.

صعد ثلاثتهم بينما مالك يسبقهما، بمجرد خروجه توجه إلى المبرد يسنده بحذر حتى يضعه على الأرض أفقيًا ليكون مجلسًا لهم، هيكل الثلاجة كان شديد السواد كما كل شيء من حولهم إلا أنه لا يزال يصلح لأشياء أخرى غير حفظ الطعام.

ساعده جلال الدين في فعل الشيء نفسه مع بقية الأدوات الكهربائية الموجودة بالمطبخ حتى بات لديهم الكثير من المقاعد!

كانت سلام تساعدهما بصمت مطبق، جلسة القرآن الطويلة جعلتها تسترخي وأطفأت في عينيها النظرة الهجومية الكارهة لـ جلال الدين، ولكنها لم تفلح في جعلها تُحسن التعاطي معه فكانت تتجنب أن تتلاقى نظراتهما بأي شكل كان.

- ألا يوجد لديكم مياه يا فتى، أكاد أموت عطشًا!

قالها جلال الدين بخفة ليبتسم مالك بتأثر شديد، وهو يشير إلى القبو المفتوح جداره قائلاً:

- هناك الكثير من قوارير المياه بالأسفل، بجوار صناديق المعدات.

تحرك جلال الدين على الفور هابطًا للأسفل دون أن يُحدث صوتًا كي لا يزعج خديجة، وجد القوارير بسرعة، حمل واحدة وقبل أن يخرج عاد إلى الفراش ثانية، نظر لها مليًا، المرة الأولى التي يراها فيها نائمة، انحنى نحوها ومرر أصابعه بهدوء فوق وجنتها فسمعها تتكلم وهي بين النوم واليقظة:

- جلال، ابتعد عني وإلا ضربتك.

ضحك ضحكة قصيرة قبل أن يهمس فوق جبهتها:

- كيف عرفتني دون أن تفتحي عينيك!

همهمت وهي تغوص في النوم :

- أنت الوقح الوحيد بيننا.

ضحك مجددًا وهو يعتدل واقفًا ويستدير مغادرًا وهو يهمهم مثلها:

- يا ويلك يا بن الراوي!

عندما جلس إليهما لم تكن الابتسامة قد فارقته بعد فابتسم مالك تلقائيًا وهو يتخيل حوارًا عاطفيًا كالذي كان يستمع إليه من خلف الشجرة مختبأ يتلصص عليهما، فقاطعت سلام ابتسامته وجعلته ينظر إليها متحرجًا وهي تقول بفضول:

- ألن تستكمل حكايتك؟

روى جلال الدين عطشه ووضع القارورة أمامها وهو يلاحظ التوتر الذي علا وجه مالك ليسأله:

- ألا تريد التحدث؟

- حكايتي ليست مشرفة.

قالت سلام بنبرة يمتزج فيها الرجاء باللوم والعتاب، خلطة سحرية لا يعرف مكوناتها غيرها تجيد استخدامها معه:

- لقد حكيت لك حكايتي البائسة ووعدني أن تفعل المثل، ثم بدأت تتهرب وتعاملني بقسوة وتتركني بين جدران غرفة سجينة، بينما تعمل بالحديقة بلا مبالاة.

فتح مالك فمه لينطق ولكنه أغلقه مرة أخرى، لايجيد التعبير عما يشعر به ولا تسويغ أفعاله، بداخله الكثير من الثرثرة لكنه لا يجيد البوح!

ثبّت نظراته بالجدار المقابل له يحيد بعينيه عن كليهما شاعرًا بالخزي مما يريدان معرفته، يدفع الكلام إلى فمه دفعًا فقط ليرضيها!

- كل ما أذكره أنني منذ أن وعيت على الدنيا وهم ينادونني بـ.. مليكة، وبأنني فتاة!

كان يريد أن يندمج بتلك الكتلة الجدارية أمامه ليختفي عن أعينهما، لم تواته الشجاعة الكافية ليرى تأثير ما قاله على وجهيهما، لذلك ظل مثبتًا نَظراته هناك وهو يستطرد متابعًا:

- أمي.. لم تتركني للحظة، كانت دائمًا تفرح كلما استطال شعري ولو بمقدار عُقلة الأصبع لتحتفل وتصنع لي الحلوى وتبتاع الكثير من

أطواق الشَعر الوردية وتضعها كلها دفعة واحدة في شعري.. تبالغ في الألوان الزاهية التي تجعلني أرتديها.. كانت تشاركني أنفاسي كما كنتُ أشاركها العقاب!

زاغت نظراته فبذل مجهودًا مضاعفًا ليجبر عينيه ألا تفارق الجدار كما يحاول تنظيم أنفاسه ولكن نبرته انخفضت رغمًا عنه وهو يتابع:

- في يوم من الأيام صرخت أمي في وجه والدي، لم أعرف لماذا فعلت ذلك، فما كان منه إلا أن أمر إخوتي بأن يسحبوها إلى القبو، كما لم أعرف لماذا سحبتني معها وهي تصرخ وتقاوم وكأنني جزءٌ من جسدها.. نُفيت هناك لأيام كثيرة لم أعُدّها، وللعجب كانت هي فرحة للغاية وتقول بأنها لا تريد من العالم سوى فتاتها، كانت تعشق لحظة انغلاق الجدار من الخارج، حتى إنها كانت تمتلك مفتاحًا له يفتحه من الداخل ولم تستخدمه ولو لمرة واحدة.. تنقل إليه الأثاث وأكوام الطعام المُعلب وقوارير المياه والثمار والبذور، وكأنها تنوي المكوث هنا للأبد، وكأنه وطنها!.. لدرجة أن الحزن كان يستبد بها عندما يُفتح الباب وقد انتهت فترة العقوبة المُقررة من قِبَلهم.

وذات عِقاب، فُتح الجدار وقالوا بأن جدي عاد من رحلته العلاجية الفاشلة ويريد أن يرى أحفاده قبل موته، بما فيهم حفيدته الصغيرة، في تلك المرة أعطاني جدي حقيبة بذور التفاح، فأخذها أخي الأكبر عنوة ولما لجأت إلى أمي نهرتني ومنحته الحقيبة، فزحفتُ ليلاً أسفل فراشه وسرقتُها، ولما انكشف أمري سحبتني إلى قبوها الأثير، ومع كل جلدة كانت تشق بها ظهري تكرر على مسامعي بأنني فتاة والفتيات لا يُجدن الزراعة!

ابتلعت سلام غصة تكومت بحلقها وهي تتذكر أيام التفاح الأولى، عندما كانت تظنه شبحًا، لم يكن إذن يخيفها حينها، كان يتحدث عن

عمق أوجاع روحه بينما هي غارقة في لجة رعبها من كلماته وهو يخبرها بأنه سيرميها من النافذة كالبذور.

- لم يكن هذا هو اليوم الوحيد الذي جلدتني فيه، بل فعلت كلما وجدتني أترك الفتيات وألعب مع الصبية والأولاد من أبناء المزارعين، ولما صارحتها بأنني أشعر بكوني صبيًّا مثلهم وأريد أن أرتدي ملابس كملابسهم، قطعت جلد ظهري بحزام أبي، الحزام نفسه الذي كان يجلدها به!

طرق إلى مسامعه مقاطعة جلال الدين لحكايته الغريبة يسأله بنبرة مترددة تخشى خدش ذكرياته:

- ألم تخبر أباك أو أحد إخوتك؟!

صمت قليلاً يبتلع اليُتم الذي طالما شعُر به بينما والده على قيد الحياة، ثم أجاب ساخرًا بنظرات ميتة:

- من تقصد، صقر القاسم! أنا كنت أخشى حتى النظر له، عندما بلغت العاشرة كنت أسمعه يتكلم عن القبيلة التي احتلت أرضه بعقود مزيفة وبأنه سيقضي عليهم فردًا فردًا وسيبدأ بالنساء، وإخوتي كانوا يثرثرون عن الفتيات التي سيقومون باختطافهن والاعتداء عليهن في الحديقة ثم قتلهن ودفنهن هناك، صقر القاسم كان يضحك على ما يقولون ويعلق بأن يدفنوهن على عمق أمتار كثيرة حتى لا يُخربن الثمار!

احتقنت الدماء في وجه جلال الدين وهو يلقي نظرة تجاه القبو، تلك الأُسرة لم يكونوا سوى مجموعة من الأوغاد، يجدون لذة خاصة في تعذيب النساء!

بدأ يحرك ساقه وقد غلبت العصبية على أطرافه فبات يضغط قبضته بقوة ويشد عليها، بينما يقول مالك وهو يغوص ثانية بيت أمواج ذاكرته الثائرة:

- يوم أن وجدني سلطان في طريقه..

ارتفعت وتيرة الترقب عند سلام وهي تبلل شفتيها بطرف لسانها وتتجهز لما سيقول، ضغط عينيه بقوة والصور تتابع على مُخيلته تذبح كرامته على النصب:

- صباح ذلك اليوم كنت قد أتممت الحادية عشرة أو أكثر وبدأ بداخلي شيء ما يصرخ في بأنني لستُ فتاة، لم أرَ يومًا شخصًا عاريًا لأستطيع التمييز بين جسدينا، كان شعورًا مبهمًا برأسي يخبرني بأنني فتى، ذلك هو ما دفعني للتهلكة وجعلني أتسلل إلى غرفة أحد إخوتي لأرتدي ملابسه، ثم دخل أخي الغرفة فجأة ليجدني وقد ارتديت قميصه الكبير والذي كان يكبرني بقياسات عدة، ويصل إلى ركبتيَّ، غضب بشدة واحمر وجهه وقام بدفعي على وجهي ساقطًا فوق فراشه، لم يرحم صرخاتي بينما حزامه يسلخ ظهري ضربًا، حينها سمعت ضحكات بقية إخوتي وهم يدخلون إلى الغرفة، تمازحوا حولي وأنا متكور على نفسي أبكي من شدة الألم فلم يلاحظوا أي تغير على جسدي، ولما لحقت بهم أمي جحظت عيناها خشية من أن أكون قد تعريت أمامهم، جذبت إحدى الشراشف ولفتني بها ثم خرجت بي من الغرفة وضحكاتهم تلاحقني، كنت أعلم بأنها ستصطحبني إلى القبو لتستكمل ما بدأوه فأفلتُّ منها بمجرد مرورنا بجوار الباب وجريت بكل ما أملك من قوة إلى قلب الحديقة، فجرت الكلاب خلفي وأفلتُّ منهم بأعجوبة ولكن عاريًا بعد أن قبضوا على الشرشف بين أنيابهم ومزقوا ما بقي من القميص بعد أن كادوا يمزقونني معه.

- كفى!

قالها جلال الدين وهو يلهث لا يعرف لماذا، لم يتحرك قيد أنملة وبرغم ذلك شعر بأنفاسه تتقطع وتختنق في رئتيه كم يصعد جبلاً!.

ما يحكيه مالك تتساوى فظاعته عنده بيوم المقتلة الكبير الذي راحت أمه إحدى ضحاياه، على الأقل لقد كان له أم، أما بقايا الإنسان الذي يجلس بجواره فلقد كان يعيش بين حيوانات مفترسة لا ترحم، و يا للغرابة أن كان سلطان صخر العاصي هو الآدمي الوحيد وقتها الذي عطف عليه فكساه وأطعمه ورأف بحاله!

سلام أيضًا كانت تريده أن يتوقف عن الكلام، فلم يعد فؤادها يملك المزيد من الصمود، كم أصبحت حكايتها سخيفة مقارنة بما عايشه هو، كم ظنت بأنها بائسة، حتى كشف لها مالك بأنها على الأقل كانت تجد من يحميها ولو كان ساحرًا!

لكن قطار الحكايات لا يتوقف هكذا ببساطة، وشهرزاد ليست قريبته كما ظنت سلام من قبل، ما تزال الدِيَكة نائمة، لن تستيقظ قبل أن يُنهي كل الكلام المباح:

- بمجرد أن ابتعد سلطان وجدت أمي تقف أمامي، ظلت متجمدة كالتمثال حتى اختفى سلطان عن أنظارنا، لم تتعرف عليه، وجهها كان شاحبًا وقد ظنت بأن أمرها قد تم افتضاحه وبأن الغريب الذي غطاني سيذهب ليبلغ الجميع بما رأى، مليكة أصغر عائلة القاسم ليست سوى فتى، جرتني خلفها تنظر حولها كاللصوص، دخلت بي القصر من هذا الباب الخلفي، وأدخلتني القبو.

- كفى يا مالك، كفى.

كررها جلال الدين بقوة أكبر مشددًا على كل حرف ينطق به، ولكن مالك لم يستجب، كان سابحًا بعيدًا جدًا، لن يستطيعوا إيقافه بضغطة زر:

- تركوني في القبو ما تبقى من نهار وليلة كاملة قبل أن تعود أمي صباحًا ضاحكة لتخبرني بأن صقر القاسم قد قُتل، ولم يعد له وجود، وبدأت تُطعمني وتدفع اللُقُمات في فمي رغمًا عني، تهمس لنفسها بأنه قد قُضي على جلادها ولم يتبقَ سوى أولاده، بينما كنت أنا أرتعش ويتساقط الطعام من فمي، مظهرها كان مخيفًا وهي تهمس همسات طوال لنفسها، ثم تنظر لي بغضب لا أعرف سببه قائلة بأنها لن تدعهم يأخذونني منها ويلبسونني ملابسهم ويضعون الحزام بيدي وتبقى هي الأنثى الوحيدة في القصر مجددًا، كانت نهمة للغاية، لم تكن تتفوه بالكلمات، بل كانت تلتهمها بشراسة! ثم خرجتِ ولم تعد ثانية.. أبدًا!

❋ ❋ ❋

إلّا قليل

خلد الجميع للغيبوبة سواه، لم يناموا كنومهم المعتاد، لقد هربوا إلى عالم آخر لربما تهدأ أفكارهم المتصارعة قليلاً.

غفت سلام دون أن تجف دموعها إلى جوار خديجة، بينما توسد مالك جانبًا من حجرة المطبخ، أما هو.. فلقد أغمض عينيه فقط لبضع دقائق قبل أن يفتحهما من جديد، وكأنه نام الليل بطوله.

وقف مستندًا إلى حافة باب المطبخ المفتوح جزء منه والمؤدي إلى الأشجار الكثيفة من الخلف ورفع نظره نحو السماء متأملاً في تلك النجوم، قليلة نعم ولكنها تضيء بشدة لامعة، العبرة ليست بالكثرة ما دام القليل يؤدي دوره كما يجب.

تتقلب الأفكار بداخله لها حواف حادة تجرحه، لم يفكر يومًا في مساعدة أحد، كل اهتمامه كان بزوجته وبنفسه وعابد والصبية.

إن كان يؤمن حقًا بأن ما كان يقوم به صخر ومن بعده سلطان نوعًا من الكفر والشرك، فلماذا ترك الناس تؤمن بأن له قدرات وكرامات خارقة .

إن كان سلطان يدعو الناس إلى الإيمان بالأسياد والخوف منهم، فهو كان يدعوهم بسكوته إلى الإيمان بكراماته التي أطلقها عابد حوله.

كلاهما اجتهدا ليخافهم الناس، ولم يفكر هو في دعوتهم للإيمان بالله والخوف منه وحده! كان يظن أن قصص التاريخ ستجعل الصبية ينشأون وهم يفهمون ما يجري حولهم، ولم ينتبه إلى تعليمهم معنى واحدًا من معاني الإيمان.

- ألا تنام أبدًا؟!

حدثه مالك وهو لا يزال يرقد مكانه قبل أن ينهض وقد تأثر بالنظرة التي كانت تطل من عيني جلال الدين الذي أجاب بخفوت:

- غفوتُ لدقائق.

اقترب مالك بخطوات متمهلة ووقف بجواره وهو يقرأ الحزن البادي على وجهه جليًا ويبادله نفس النبرة الخافتة:

- مازلت غاضبًا مما قالته لك سلام بالقبو؟

ابتسم دون أن تفارق النظرة الحزينة عينيه وهو يرد معترفًا:

- إنها محقة في كل حرف نطقت به، يجب أن أشكرها.. لا أن أغضب منها.

صمتَ مالك مطرقًا فباغته جلال الدين بالقول:

- ثم إنها تُحبك..

زوى مالك ما بين حاجبيه وهو يرفع رأسه وينظر ببلاهة قبل أن تهتز شفتاه عن ابتسامة مرتعشة فقال جلال الدين مُكررًا:

- إنها تحبك، وغاضبة لأجلك، ولم تجد سواي لتفرغ غضبها به.

بدا وجه مالك كالطفل الذي يُحدثوه عن الاختراعات الحديثة، يهز رأسه أحيانًا يدعي الفهم ولكنه لا يستطيع أن يُخفي الدهشة الباديةعلى ملامحه!

مشاعره الرجولية بريئة صافية، لم تختلط بالبشر ولم تتلوث بآثامهم، لذلك لم يستطع أن يخفي تعاقبها على وجهه بينما جلال الدين يتابع حديثه:

- إنها صغيرة، لم أكن أعرفها، فقط كنت أسمع عن الفتاة التي يدعونها بالمشئومة، ولم أحاول حتى أن أشرح للناس أنه لا أحد إطلاقًا يستطيع التحكم بقدره، بل يجب أن يؤمن بأنه من عند الله لأسباب لا يعلمها إلا هو.

- أتعرف، أذكر أن معلمة القراءة التي كانت تأتيني وأنا صغير كانت تقول كلامًا مشابهًا لما تقول الآن، قبل أن تطردها أمي، يبدو أنها خشيت أن أتكلم معها وأبوح لها بما أشعر!

ربت جلال الدين على كتفه فجأة فتراجع مالك خطوة للخلف منكمشًا رغمًا عنه، لكنه لم يرفع يده، بل قصد أن يزج به في الحياة الحقيقية ويجعله يختلط بالبشر بالطريقة الطبيعية دون خوف.

شد على كتفه أكثر وهو يقول مداعبًا يربت على قلبه كما يربت على كتفه:

- أنت نقي للغاية يا صديقي، أشعر بأنك الفطرة السوية هنا.. بعد خديجة!

ضحكا معًا ومُزحة جلال الدين تسقط على قلبه بخفة كالريشة وتجعله يشعر بالألفة مع الحياة وليس معه فحسب، ليطرح عليه مالك سؤالًا مباغتًا دون تفكير:

- من العجوز الذي عبرت معه قبل أيام للطرف الآخر من الحديقة؟

- إنه العم عابد، هو الذي اهتم بي بعد وفاة أبي رحمه اللّٰه.

- أشعر بأنه شخصٌ سيء للغاية.

حاجبا جلال الدين انعقدا وهو يسأله:

- لماذا تقول هذا عنه؟!

تراجع عن مقولته وقد فهم من تغضن وجه رفيقه بأن العبارة التي قالها عن العجوز لم تعجبه فحرك رأسه نفيًا وهو يقول متوترًا:

- لا، لا يهم.

اشتدت أصابع جلال الدين على كتفه وهو يسأله بإصرار ويدقق به قائلاً بنبرة آمره:

- تكلم يا مالك، لماذا قلت عنه بأنه شخصٌ شيء!

اندفع خافقه يطرق بشدة في صدره وزاغت نظراته وقد شعر بأنه في ورطة حقيقية ثم همس مترددًا:

- تعلم بأن تسليتي كانت في تعقب كل من يمر بالحديقة، في إحدى المرات تعقبته، كان يلتفت خلفه كثيرًا مما أثار فضولي من البداية، كان هناك شخص آخر ينتظره، تهامسا سويًا في البداية قبل أن يتناحرا، الشخص الآخر سبه وقال عنه خادم بينما هو هتف بأنه أخطأ من البداية عندما تعاون معهم ليوقع برجل يُدعى شمس!

لا شمس غير شمس أبيه في القبيلة والبلدة، كيف أوقع به!، عمه نصر حذره منه كثيرًا بينما هو يعيش في عالمه الخاص، كيف كان مُخدرًا كل تلك السنوات العشر.

لا ليس لعشر سنوات فقط، لقد كانت هناك غمامة تغطي عينيه من قبل ذلك.

كان يرى أباه خاضعًا تحت جناح عابد يصدقه ويفعل ما يقنعه به بسهولة شديدة.

مَن كان خادم مَن؟!

حركة في الخارج جعلت مالك يتراجع مذعورًا حتى التصق بأبعد جدار عن الباب، تلك الجلبة التي أوقفت اندفاع شرارات الغضب بداخل أوردته وجعلته يلتفت بحذر، يشرئب برأسه ليرقب ماذا يحدث في الخارج، أحدهم كان يتخبط بين الأشجار، يسقط ثم يستند ليقف مُجددًا، وعلى الرغم من ضوء الشموع الضعيف فإن جلال الدين ميزه من ملابسه، خرج مُسرعًا وكلما اقترب منه كلما لاحظ الدماء أكثر حتى وصل إليه أخيرًا:

- سلطان! ماذا حل بك؟

يسأله وهو يضع الشمعة الكبيرة التي كان يحملها بالجوار قبل أن ينحني ويحمله فوق كتفه متجهًا به إلى الداخل.

استبد الذعر بمالك عندما شاهد سلطان متدليًا فوق كتف جلال الدين الذي هتف به بأن يخرج ليُحضر الشمعة التي تركها بالخارج، انكمش على نفسه للحظات قبل أن يتحرك ببطء ملصقًا ظهره بالجدار حتى وصل إلى الباب.

فتحت سلام عينيها فجأة كما كانت تفعل كلما استردت وعيها، لايزال الشعور بالخطر يحاصرها ولا يتركها تغط في نوم عميق كشريكة الفراش التي ترقد جوارها.

تسللت عبر الدرج لتنظر من خلال الجدار المفتوح وقد جذبتها الجلبة بالخارج نحوه.

علت شهقتها عندما رأت جلال الدين يجثو بجوار سلطان ويمزق الجلباب.

خرجت على الفور من مخبئها لتتقدم نحوهما، لقد كان يمزق عند الصدر فقط ويكشف عن جرح عميقٍ، تأوه سلطان فاقتربت مبهوتة إلى البقعة التي كان يحتلها مالك حاملاً لشمعتين، أحدهما التي أحضرها من الخارج.

كان الأمر يشبه جلسة تحضير الأرواح الشهيرة، بينما يلعب سلطان دور الوسيط بذلك الأنين الذي يصدر منه بينما الآخر يحاول وقف نزيف الدماء.

لم تكن الدماء فقط هي التي تلوثه، كانت كلمات ليلى هي التي تنزف منه دون أن ينقص من مرارتها شيء، يئن باكيًا للمرة الثانية في الليلة ذاتها.

بكاء يختلف عن كل ذرف للدموع عرفه من قبل، يذرف كرامته ورجولته وهو يشعر بطعنة أخرى أشد إيلامًا تسكن ظهره، طعنته ليلى قبل أن تغرس قطعة الزجاج في صدره بسنوات بعمر طفليه.

يختلج قلبه مرتجًا في صدره النازف، لايعلم هل يبكيهما أم يبكي شرفَه المنتهك!

كانت خديجة هي آخر من استفاق من الغيبوبة وخرجت تنظر ماذا يحدث بالأعلى، لم تنضم إلى سلام ومالك بل جثت هي الأخرى بجواره تحاول أن تستوعب سريعًا ما يحدث، قبل أن ترفع عينيها إلى جلال الدين وتخبره بما كان يدور برأسه:

- لابد من كي الجرح!

لم يكن الأمر سهلاً على خمستهم، تحركوا جميعًا ينفذون ما يوجههم إليه، أشعل مالك النار في الحطب بمساعدة سلام لتضع خديجة السكين الحاد فوقها، دقائق طويلة مرت وصرخات سلطان المكتومة في قطعة القماش التي دسها مالك في فمه قبل الكي مباشرة لا تزال تصم آذانهم، وأخيرًا عم السكون فلا يُسمع سوى همسات أنفاسهم المضطربة، يتخبطون جميعًا في ظلام جهلهم عن ما أدى به إلى تلك الحالة!

قطعت خديجة الصمت موجهة عينيها نحو سلام قائلة:

- أحضري لي حقيبتي من الأسفل

بدت عليها علامات التوتر والحنق، لا تفهم من الأصل ماذا جرى لزوج أختها لتأتي تلك الغريبة وتأمرها صارخة بها ثانية:

- أسرعي!

تلفتت حولها قبل أن تتحرك حانقة، الحقيبة كانت قماشية عميقة أحضرتها سلام ووضعتها بجوارها وهي تفكر متذمرة، هؤلاء حضروا إلى هنا قبل جفاف البحيرة فلماذا لم يكونوا يستخدمون الحقائب المعتادة!

غاص ساعد خديجة في حقيبتها لتخرج منها حقيبة قماشية أخرى صغيرة الحجم مقارنة بالتي تحويها.

قامت على فك عقدتها بينما جلال الدين يتابع حركة يدها، هو الوحيد بين مالك وسلام من يعرف ماذا تفعل وماهي مقدمة عليه، لم ينس عادات القبيلة في التطبيب بالأدوية العشبية، تلك الأدوية التي حاربها شمس الراوي بعد أن عاد من المدينة مباشرة متأثرًا بما شاهده هناك، ولكن نساء القبيلة سخروا منه وأخبروه بأنهم يتداوون بها من قديم الأزل ودومًا ما تأتي بنتائجها!

أخرجت خديجة زجاجةً خُط فوق قطعة ورق ملتصقة بها كلمة «خزامى»، وقامت بنثر بعضًا منها على شرائح من الشاش طُولية طلبت من مالك أن يحضرها من خزائنه المكتظة بالأسفل.

في البداية ظن مالك أنها تطلب حقيبة الأدوية فقال لها بتشتت:

- لقد نفدت صلاحيتها!

فأخبرته بأنها لاتريد سوى لفائف الشاش فقط، تناولت ذراع سلطان بمساعدته لتقوم بلف تلك الشرائح على الجروح الملتهبة في ساعديه وهي تقول بخفوت:

- الحمد لله الحروق سطحية لم تتضرر الأنسجة.

- أي حروق؟!

قالتها سلام متعجبة، العالم يدور من حولها وهي لا تفقه شيئًا، القلق يأكلها وينبش ما بقي من صبرها وسؤالها عن أختها عالق في طرف لسانها لا تستطيع التفوه به أو تبتلعه!

❋ ❋ ❋

تحلقوا حوله حتى بدأت خيوط الشروق تسبح فوق رؤوسهم، تملأهم بالدفء وتكشف لهم عمّا كان يخفيه الظلام.

الغبار والرماد وأوراق الشجر يتشبثون جميعًا بجلباب سلطان، ووجهه الشاحب يحكي ألف قصة لأهوال قد عاشها.

صحن التفاح الذي وضعه مالك أمامهم بعد الفجر لا يزال كما هو يسكن وحيدًا منبوذًا بعيدًا عن أياديهم.

عندما أفاق سلطان من غيبوبته التي حدثت له بسبب الكي لم يتكلم، أشاح بوجهه عنهم بينما صدره يعلو ويهبط واشيًا عن دموع حبيسة هناك يقاوم ألا يذرفها.

كل ما قاله هو عبارة وحيدة كصحن التفاح هناك:

- لقد احترقتُ!

كيف ومتى، لم ينبس ببنت شفة مما جرى، فلم يستطع جلال الدين الصبر أكثر، نهض واقفًا وهو يقول بحدة:

- في كل الأحوال سأعود إلى داو، لن أجلس مقيدًا هنا جاهلاً بما يحدث من حولي.

نهضت خديجة خلفه تنظر له بشفقة قائلة:

- لا تقلق سيكون بخير.

سخر وهو يحرك رأسه بعدم تصديق مصرحًا بمرارة:

- لا أريد أن أعرف ماذا حدث له فقط يا خديجة، هناك حساب خاص بي أريد تصفيته مع من أوقع بأبي !

- كان من الخطأ أن أخبرك بما قاله رفيقك العجوز!

كل من خديجة وسلام التفتتا نحو مالك على إثر عبارته الغامضة التي تبادلها مع جلال الدين، لتمسك خديجة بذراع زوجها قائلة بحزم تربت عليه:

- لن تغادر قبل أن تخبرني عمّا أنت مقدم عليه.

لا تزال لمستها تؤثر به حتى وإن كان يتخبط كما يفعل الآن في طرقات الغضب والتيه، كل ذكرياته مهددة بالسقوط، الأساس لم يكن صلبًا كفاية، بل كان خدعة عاشها طويلاً.

نظر في عمق عينيها ينتشل نفسَه من إحساسه بالضياع وقال بنبرة متهدجة أصابتها في مقتل:

- أنا مُقدم على معرفة ماضٍ ربما هو قاتلي يا حُب.

قبضتْ على ساعده بقوة أكبر، لا تعلم هل تتشبث به من خطر عرفته في عينيه أم تنتشله من الوحدة والتشتت والغضب الذي تصرخ بها حروفه:

- إن كان ولابد فسأذهب معك.

❀ ❀ ❀

كان من المستحيل أن يغامر بها، تركها رغمًا عنها وغادر، بكل الحزم الذي تملكه لم تستطع سوى أن تطيعه في النهاية، أقصى ما استطاعت أن تفعله هو أن تجعله يعدها بأن يعود في أقرب وقت دون أن يعرض نفسه للأذى، إن لم يكن لأجله فلأجلها هي.

اليوم هو الجمعة والناس تتجهز للذهاب إلى الاحتفال كما اعتادوا في ساحة قصر الحاكم، طعام وشراب ودفوف وتنانير خضراء تطوف من حولهم، مر جلال الدين بساحة ترويض الخيول، تلمّس السياج بحنين وتنتابه نفس القشعريرة اللذيذة التي كانت تغزوه من قبل وهو عاري الجذع يمتطي الفرس ليروضها والهواء يضربه من كل جانب، استمتاعه كان شديدًا، كان يخدره حتى عن إدراك أن تلك الأحصنة للحاكم، وبتلك الطريقة فماهو إلا مجرد خادم لديه!

كان يقوم بنفس المهام التي كان يفعلها سلطان، هو يجهز له الأحصنة للامتطاء الهادئ وكذلك كان يفعل الآخر وهو يُعبِد له عقول البشر ليلعب بهم كالكرة وقتما يشاء ويفرض عليهم ما يريد!

- أين كنت يا أستاذ!

استدار نحو عمار الذي أطلق عبارته مندهشًا وهو يقترب منه بحماس متابعًا:

- لقد بحثنا عنك في كل مكان، أين كنت؟!

أمسك كلا كتفيه وشد عليهما برفق وهو ينحني نحوه قليلاً قائلاً:

- سأخبرك فيما بعد يا عمار، لن أستطيع أن أخبرك الآن.

- هل علمت ماذا حدث للساحر؟ لقد احترق بيته.

هتف بها عمار بحماس كبير وكأنه ينقل خبرًا سعيدًا، قبل أن يستطرد ببعض التذمر:

- ما أحزنني فقط هو موت أطفاله بالداخل، ولكن يا أستاذ زوجته طعنته وأمي ضربته على رأسه!

المشاعر تتقلب على ملامحه تباعًا وهو يقفز من عبارة إلى أخرى ومن خبر لآخر ما بين الحماس والحزن ثم الحماس والدهشة مجددًا كمن يشاهد مباراة حامية الوطيس!

- من أحرق بيته؟!

تغضن جبين جلال الدين وهو يسأله جعل حماس عمار ينزوي شيئًا فشيئًا ويتلاشى بينما يجيب بخفوت:

- يقولون بأنها الأسياد القديم، تنتقم لأن الحاكم قرر بأن يتعاون مع أسياد أخرى!

تشكك جلال الدين بكلام الفتى الغريب وظن بأنه مريض ويَهذِر بالكلام فسأله مترفقًا:

- هل أنت مريض يا فتى؟

لكن عمار لا يزال يؤكد له ما سمعه بما يدور بين أهل البلدة:

- إن لم تصدقني فاذهب اليوم إلى القصر لتتأكد!

أومأ له جلال الدين برأسه وقد يئس من أن يفهم شيئًا، لم يكن مستعدًا للغز جديد فأركانه ممتلئة بالألغاز حد التخمة فاعتدل يستقيم بجذعه مدعيًا الفهم:

- حسنًا يا عمار اذهب الآن لبيتك

- ستغادر مرة أخرى!

- نعم

- كيف نجدك إذن؟!

- سنجد طريقة، صدقني.

زم عمار شفتيه مطرقًا، أستاذه يظنه مجرد فتى صغير لا يستطيع أن يبوح له بأسراره، منذ أن حضرت إليه زوجته في المدرسة وهو وبقية الصبية يتحدثون بأنه واقع بمشكلة ويجب أن يساعدونه.

لقد كان سعيدًا للغاية عندما لمحه بجوار السياج، طار نحوه بكل حماس الصِبا يعرض خدماته ويسأل عن أحواله، ألا يُدرك معلمه بأنه سيبلغ الثانيَة عشرة بعد عدة أيام، ألم يخبرهم بأن أسامة بن زيد قاد الجيوش وهو في السابعة عشرة فقط، لماذا إذن لا يفعل ما يقول!

❋ ❋ ❋

يوم الخروج من الخلوة، هذا اليوم بالتحديد يختلف عن بقية أيامه، جهز نفسه واغتسل وارتدى الثوب الذي حلم بأن يرتديه طيلة سنواته السابقة، لقد مُكن له أخيرًا، سيعوض ما حرمته منه قبيلة الرواة حتى أصبح مُسنًا.

- جمعة مباركة ياعم عابد.

لم يلتفت، ولم ينظر حتى، فقد كان يعلم، لم تكن مفاجأة بالنسبة له، حدث الكثير في أثناء الخلوة وهو يعرف!

- هل افتقدتني يا جلال الدين؟

قالها ببعض السخرية مُلقيًا نحوه نظرة مستهينة به وهو يتابع بنبرة هادئة للغاية:

- أم أن أصدقاءك الجدد قد أنسوك أصدقاءك القدامى!

هل هذا مجرد تخمين، أم أن الأخبار تتسرب من أسفل عتبة الباب!

صمت مفعم بالدهشة طغى على وقفته التي باتت حائرة قبل أن يسأل:

- كيف عرفت؟!

- لا يهم، اذهب فلديك الكثير من الأحصنة تنتظرك.

رماه بها بنفس نبرته الساخرة وهو يثبت الخنجر بخصره مستديرًا نحو المرآة يمشط لحيته، تجعد جبينه بشدة وهو يرمقه، هذا ليس بـ عابد الذي يعرفه، كان يسخر من الجميع إلا هو، كان يمازحه فقط، يمنحه تقديره واهتمامه، مَن هذا الرجل الذي يقف أمامه الآن!

- على الأقل أخبرني كيف أوقعت بوالدي.

ترك عابد لحيته وبادله النظر في المرآة وقد استعاد وجهُه ملامحه الغامضة التي اعتادها جلال الدين ثم قال ببطء وهو يلتفت نحوه للمرة الأولى:

- تعرف تمام المعرفة مكانة شمس لدي، فاعقل ما يُقال لك ولا ترمني بما لا تفقه.

كان قد اقترب منه وهو ينطق بآخر كلماته بقوة وجد جعل جلال الدين يتشكك في أمره، يتبادلان النظر بثبات، سؤاله الأول لا يزال عالقًا بينهما:

- كيف عرفت بينما لم تخرج من خلوتك، ولماذا لم تحاول مساعدتي؟

- تركتك للساحر الذي بات صديقك، فهل نفعك بشيء؟ إنه حتى لم ينفع نفسه!

اشتدت الضراوة في عيني جلال الدين وهو يقترب خطوة أخرى في مجابهة صريحة، لا ينفك عن تكرار سؤاله:

- لماذا لم تساعدني وأنا أبحث عن مكانٍ أُخفي فيه زوجتي؟

- تُخفي مَن أيها العاشق؟ ابنة نصر الذي لا ينعتني إلا بالخادم؟، دعها لـ خاطر ليربيها آصف من جديد.

وكأنه نطق بكلمة السر التي حركت الهواء في منتصف الغرفة وحركته معها فقبض على تلابيبه، وهو يهمس لوجهه القريب للغاية بخطورة:

- يبدو أن عمي نصر كان محقًا، لقد كنتَ تخدعني كما خدعت شمس الراوي.

لمٍ يتراجع عابد، فقد فات آوان التراجع، فبادله الخطورة بضراوة ممسكًا بقبضتيه اللتين تجمعان حواف جلبابه بداخلها وشد عليهما وهو يهمس له:

- أنت ضعيف كأبيك، لا تصلح إلا أن تكون تابعًا.

- كيف أوقعت به؟

- هو من أوقع بنفسه.

هزه بشدة وهو يهتف باسمه وقد فاض به الكيل:

- كيف أوقعت به يا عابد؟

ولكن عابد زاد تشبثه بقبضتي جلال الدين، يجابهه القوة بالقوة، يقارعه النظرات، وقد تخلى أخيرًا عن أسراره بعد أن باتت لا أهمية لها، كما لم يعد هناك أهمية لوجود جلال الدين بجانبه:

- كان يريد أن يُفلح في شيءٍ ما، ليس جدك فقط من كان يعرف بأنه لا يصلح لقيادة القبيلة، هو نفسه كان يعرف بأنه لن يصير سوى تابع، لذلك تنازل أمام جدك عن أن يخلفه ووضع عصا المشيخة بيد نصر، مشتتًا بين أمك والمدينة وكالعادة فشل في تجديد هويته، وعندها لجأ لصاحب الكرامات!

- أنت!

- نعم أنا، ومازلت، وسترى يا بن الراوي عابد خادمكم ماذا سيفعل.

لم يعد بعقله متسع للدهشة، أو الصدمة أو المفاجأة، لم يتبق له سوى الجمود، كل ردود فعله اتحدت وصارت قطعة واحدة متجمدة، وهو يقرأ بوضوح نظرات الكره والعظمة التي تتوالى على وجه عابد الذي لا يزال

يتشبث بقبضتيه، قُذف به في صحراء قاحلة صقيعها يعصف بأضلعه والهزيمة تلوح له من بعيد بانتصار!، وعابد يستمر في تعذيبه بكلماته المزهوة بنفسه:

- لم يكن أبيك يريد إلا أن ينظر له جدك كما ينظر لـ نصر، لجأ إلي وقال علمني كيف أكون صاحب كرامات مثلك، وافقت وعلمته ولكنه فشل مجددًا، قلبه كان أضعف من أن يتحمل ما يحدث في الخلوة!

- لا تأخذني هنا وهناك في حكاياتك، من تقابل في الغابة، من الذي اتفق معك على خداع أبي؟

- لن تتغير أبدًا، تنظر تحت قدميك، وتفشل دائمًا في قراءة الرموز

ترك جلال الدين ملابسه ليقبض عليه ثانية ولكن هذه المرة على عنقه، يرجه رجًا:

- ماذا فعلتم، انطق.

طرقات شديدة هوت فجأة على باب البيت، أحدهم يُحاول كسر الباب من الخارج، نظر جلال الدين خلفه قبل أن يعاود النظر إليه بينما أصابعه تحفر طريقًا وعِرًا بعنقه مكررًا أمره السابق:

- انطق.

تهاوى الباب على دفعتين، واندفع من خلاله كتيبة كاملة من الحراس، امتلأت الغرفة الصغيرة بهم والذين سيطروا بكثرتهم على جلال الدين واستطاعوا تخليص عابد من بين يديه، تنفس عابد لاهثًا وقد أوشك أن يلفظ أنفاسه وهو يعدل من هندامه وكأن شيئًا لم يكن، بينما جلال الدين يهدر بينهم يحاول الفكاك دون أن يحيد بنظراته عن عابد الذي يقف بين الحرس كزعيم له هيبة ووقار، وبمشية عظمته الجديدة عليه اقترب منه وقال ساخرًا:

- ألم أقل لك، أنت لاتُحسن قراءة الرموز!

سمع صرير اصطكاك أضراسه وشاهد وجهه المحتقن وشعر بنظراته تثقب وجهه بينما الحراس يجتهدون في تقييده، سار حتى توقف على بعد خطوة منه، ووقف ينظر له متأملاً في وجهه، ثم يهمس بخفوت جعل جلال الدين يتوقف عن الحركة:

- لقد أحببتك حقًا، واحتسبتك ولدي، اهتممت بك وعلمتك كيف تحفظ نفسك، رافقتك في وحدتك، وجعلت الناس تخشاك، لكنك ناكر للجميل، حالك كحال قبيلتك تمامًا.

وقبل أن يخرج من باب الغرفة وسط الحماية الجديدة التي يحظى بها، نظر نحوه بجدية:

- سأفعل معك آخر جميل يا بن الراوي، ولأجل الأيام الخوالي، سأدعهم يتركونك ترحل، ولكن تذكر، هذا آخر ما سأقدمه لك، لو وقفت في طريقي بعد ذلك فسيكون مصيرك أسوأ من سلطان.

فور انصراف عابد وفرقة حراسته دخل عمار يلهث، انكب على ركبتي جلال الدين اللتين فقدتا قدرتهما على الوقوف وسقط جالسًا فوق أقرب مقعد ليسأله بلهفة:

- هل أنت بخير يا أستاذ؟

- ماذا تفعل هنا؟

- تبعتك ورأيت الحرس وهم يهجمون على البيت، اشتد خوفي عليك وظننت أنهم يريدون بك السوء.

- السوء! لقد كنت منغمسًا فيه لسنوات.

كان يحدثه وهو يدفن رأسه بين يديه، الدنيا تدور به، يصارع نفسه حتى يهدأ، ثم ماذا يا بن شمس الراوي، وما هي النهاية.

لا يبدو هناك نهاية على الإطلاق، عابد كان محقًا هو مجرد غِر ساذج لا يُحسن سوى العشق والنظر أسفل قدميه!

ضغط عمار بعفوية فوق ركبتيه وهو يتساءل باضطراب:

- هل ستصحبني إلى ساحة قصر الحاكم؟

يرفع جلال الدين رأسه إليه مفكرًا للحظات، سيُحسن قراءة الرموز بعد ذلك، لن يذهب إلى النهاية مباشرة، سيتتبع الخطوط ليصل، وسيبدأ بالرمز الأول!

***

وقف هناك مختبأ وقد ارتدى فوق ملابسه جلبابًا وعباءة ليتشبه بأهل داو، دلف إلى ساحة القصر وجلس إلى طاولة منخفضة كما يفعل الجميع، ساعده عمار في اختيار طاولة بعيدة، وبعد بُرهة انتشر الحرس في المكان والخدم يوزعون الصحون الضخمة الممتلئة باللحم المطبوخ والفاكهة دون أن يُسمح لهم بتناوله بعد!

القوانين تقول بأن الطعام يوضع قبل خروج الحاكم مباشرة، وينتظر الناس حتى ينتهي من خطبته العصماء بينما رائحة اللحم تتصاعد إلى أنوفهم ثم يأذن لهم بيده ليتكالبوا على الصحون دفعة واحدة بين دقات الدفوف

فُتح الباب الكبير وخرج عليهم الحاكم بعباءته الناصعة كالعادة، تتخلل أصابعه بعضها البعض فترتطم الخواتم الملتفة هناك بتزاحم وتنعكس الأشعة فوقها، ثم يفتح ذراعيه بتَرحاب شديد وابتسامة كبيرة هاتفًا فيهم:

- أهلي وأحبائي، اليوم يوم فرحة وابتهاج، فاليوم فقط أؤكد لكم بأننا قد تخلصنا للأبد من اللعنة ولن يكون هناك حصاد بعد الآن.

تعالت الهتافات من حوله، الكل يهتف فرحًا وأعينهم لا تغادر صحون اللحم، بينما أصحاب اللحى البيضاء يهمسون لبعضهم البعض» هل سيفتح المساجد ويسمح لنا بإخراج نسخ القرآن من المخازن»؟!

- أهلي وأحبائي، الفتنة التي حدثت لن تتكرر وقد ذهبت كل أسباب الشر، والرؤية التي حدثتكم عنها سابقًا تكررت عدة مرات في خلال الأيام الماضية، نعم، سنفتح المساجد لتعودوا إلى الصلاة

فيها مجددًا، ولكن الرؤية كانت واضحة كالشمس، لتجنب عودة الفتن من جديد لابد أن يكون ذلك تحت إشراف شخص يحبه الله، شخص صاحب كرامات، يذهب ليجالس أهل السماء ويعود إلينا بما يجب أن نفعله، وقد تخلصنا من الأسياد وجبروتها، فلتخرج علينا يا مولانا!

تبادل أصحاب اللحى البيضاء النظرات فيما بينهم وكل منهم يمني نفسه بأنه هو المقصود ولكن خروج عابد عليهم قطع كل آمالهم، بلحيته البيضاء وعباءته الخضراء، وعمامته كذلك، يلف طرفها حول كتفه، وتطل من عينيه نظرة مفترس انتهى للتو من التهام غزالته.

أشار الحاكم بيده إشارة لتدق الدفوف ويسمح للناس بها ببدء التهام طعامهم فانكبوا على الصحون دون تفكير وقد اتخذ المنطق جانبًا لحين امتلاء المعدة!

***

وكأن القصر عاد مهجورًا من جديد، يعمه السكون، خديجة تستند إلى شجرة التفاح تضم ركبتيها إلى صدرها تنظر للأفق في انتظار عودته، بينما مالك يمارس عادته في الاعتناء بالبذور، كل منهما يدعي الانشغال عما حدث منذ قليل، عندما خرجت سلام إلى الحديقة بعد حوار قصير مع سلطان، كانت منهارة باكية رافضة لأن يقترب منها أحد، اتخذت أبعد نقطة منهما وجلست تبكي.

لقد طلب سلطان من خديجة ومالك أن يتركاهما وحدهما، لم يكن هدفه أن يقص عليها ما حدث، كان هدفه أن تفشي له أسرار ليلى، إلى أين كانت تذهب ومع من كانت تتحدث في أثناء غيابه في غرفة الأسياد، وهي لم تكذب عليه، لم تكن تعرف عن ليلى أي شيء، كانت تخرج وتترك الطفلين في رعايتها، لكنها لم تخبرها بأسرارها.

ظن سلطان بأنها تكذب، فاض غضبه وقص عليها ماحدث، بكت سلام بقوة وتشنجت، كانت ترعاهما كما يرعى مالك بذوره، لا ذنب لهما فيما فعلته أمهما أو ما مارسه أبوهما، بكتهما بشدة منهارة لكنه لم يترك لها فرصة الانهيار، أمسك بساعديها فتألمت، يريد تفاصيل لا تمتلكها، كل ماتعرفه باحت به قائلة:

- أمي قبل موتها كانت تنفر مني وتبعدني عنها حتى ماتت، وليلى كانت تضربني وتعاملني بسوء أحيانًا، وأحيانًا أخرى تعطف عليّ، لم أدر سببًا لتصرفاتهما معي، لم أكن مقربة لها لتخبرني بسرها.

لكنه لم يصدقها، جرحه يقطع أنفاسه وبالرغم من ذلك يستجوبها بشراسة وكأنها هي من أحرقت البيت وقتلت الطفلين، تملصت منه وخرجت تعدو للخارج وتركته يلكم الفراش ويصرخ بوحشية، كلمات ليلى

لاتتوقف عن الطنين في أذنيه كالذبابة « لقد سقيتك من نفس الكأس»، الطفلان لم يكونا من صلبه، مَن دنس عرضه، لماذا يستخدم صخر العاصي سحره ليقتل به والد ليلى؟

ظلت التساؤلات معلقة فوق رأسه والتي يبدو أنها تبخرت وسقطت نقطة منها على رأس مالك في الحديقة، رفع مالك رأسه بقوة متعجبًا لتسقط نقطة أخرى بين عينيه، ثم تتبعها ثالثة ورابعة، ما هذا!

- مطر؟

هتفت بها خديجة غير مصدقة وهي تنظر إلى السماء وتفتح راحتيها للأعلى مكررة بابتسامة مذهولة:

- مطر!

وقفت سلام وقد اختلطت دموعها بالقطرات القليلة التي تسقط فوق وجهها، ذاكرتها تستحضر معنى الكلمة، لم تشهد مطرًا بعد الثامنة أو التاسعة من عمرها لا تذكر تحديدًا!

تبادل الثلاثة النظرات وقد ارتفعت وتيرة سقوط القطرات وبدأت تنهمر فوقهما وتختلط بالأرض العطشى، لتصرخ خديجة فجأة كالأطفال:

- مطر.. أخيرًا مطر!

وبينما هي تستعد للقفز فرحًا فوجئت به يمر من الجزء المتهدم من السور ثم ينحني ليرفع حقيبة كبيرة من خلفه، فأسرعت نحوه واحتضنته بسعادة غامرة هاتفة:

- المطر.. هل تشعر به، إنه يتساقط مجددًا!

ضمها بين ذراعيه وهو يرفع رأسه للسماء، إنه لأمر عُجاب، منذ أن سقطت أول قطرة فوق رأسه عند اقترابه من السور الداخلي للحديقة،

وبداخله يتساءل، هل تتكشف الغمة أم تزيد، هل ذاك المطر نعمة أم زيادة في البلاء والفتنة، ترى ما هو شعور أهل البلدة الآن وقد نزل المطر مباشرة بعد تولي صاحب الكرامات منصبه الجديد!

اتسعت ابتسامة مالك ووجهه تغمره المياه، يشعر بما تشعر به خديجة الآن إلا أنه يخجل أن يقفز مثلها.

سلام هي التي كان وجهها مكفهرًا وهي تجمع يديها من حولها وتنسحب للداخل لتحتمي من البلل، وماذا سيغير المطر من الأمر، هل سيعيد الطفلين، البيت الذي كانت تحتمي بجدرانه، لحظات رضا ليلى عنها، تعيش وسط غرباء مستقبلها غامض ومظلم، الآن سيتأكد الناس بأنها مشئومة بالفعل، بمجرد أن تم اختيارها للحصاد هطلت الأمطار بعدها بأيام!

دلف جلال الدين إلى القبو، كان مبللاً إلى حد ما وهو يقترب من سلطان يقول:

- لقد هطلت الأمطار مجددًا، هل تُصدق!

- بعد أن ضاع كل شيء.

كانت جملة تقريرية، لقد تشابهت مشاعره إلى حد كبير مع سلام، هو أيضًا مثلها فقد الكثير حتى ضاعت معالم روحه واختلطت حدودها:

- البقاء لله.

همس بها جلال الدين وهو يربت على ساقه فأومأ سلطان برأسه ينكسها صامتًا، فلتكن الفضيحة في دائرة مغلقة، لا داعي لأن يمرغ وجهه في الوحل أمام شخص آخر.

- كيف هو جرحك؟

- يتحسن.

حاول أن يتجاذب معه أطراف الحديث لكنه كان مُغلقًا تمامًا، يرد باقتضاب، التعازي لن تجدي نفعًا بعد كل ما مر به، لكنه يحمل على ظهره حملاً ثقيلاً ويجب أن يتشاركه معهم، كما تشاركوا المصير نفسه منذ أن اجتمعوا في مكان واحد، لكن سلطان كان الأسرع فقاطع أفكاره متسائلاً:

- ماذا حدث بينك وبين عابد؟

صمت جلال الدين لحظة متفاجئًا باهتمامه الوليد قبل أن يبدأ في قص ما حدث بينهما في البلدة، فانتفض سلطان على الفور يقاطعه مجددًا:

- لقد كان هو! كان الحاكم يحضره ليستعمله بدلاً مني، كيف لم أعرف!

- هل هذا كل ما يهمك، أنه استبدله بك!

- لا تغضب هكذا، اصمت لأستطيع ترتيب الأحداث وفك الرموز كما قال لك!

أنصت جلال الدين وهو يميل للأمام يجمع كفيه ويفركهما بينما أذناه تلتقطان الرزاز المتساقط في الخارج يشبه النقط التي يضعها سلطان الآن فوق الأحرف ويعلمه كيف ينصت للحكاية من البداية ليستطيع تجميع أحجار البازل وفك الشفرات:

- لما بلغتُ السابعة عشرة حاول أبي تعليمي أول خطواتي في عالم السحر، وبدأت أشاهد عن قرب ما يقوم به، كان يعتاد أن يجلسني بجواره في أثناء استقباله للحالات التي تطلب المساعدة، هذه تريد أن تزوج ابنتها، وتلك زوجة أولى وتريد أن تصاب الزوجة الثانية بمرض قاتل، وآخر قد فشل في إتمام زواجه فجاء ليفك أبي عقدته.

كل هذه الحالات كانت بالنسبة لي اعتيادية للغاية ولم أرَ بأسًا مما يفعله أبي، وفي أحد الأيام زارته امرأة وقالت بأنها تريد الإنجاب، فهي متزوجة منذ سنوات ومهددة بالطلاق أو أن يتزوج زوجها بأخرى إن لم تنجب له الذكر الذي يشتاقه، حينها طلب مني أبي أن أغادر الغرفة وقال بأنها حالة خاصة.

- فهمت.

قالها جلال الدين متقرفًا ليمرر الحادثة دون الخوض في تفاصيلها، فتابع سلطان مستطردًا:

- أما أنا فلم أكن أفهم، لذلك تلصصت عليهما ويا ليتني لم أفعل، هل تتخيل أن شابًا نشأ على يد ساحر البلدة العظيم يشعر بالقرف عندما يشاهد فعلاً مُقززًا كالذي شاهدته وقتها!

أطرق جلال الدين يجاهد نفسه على ألا يعلق مجددًا، أراده أن يسترسل حتى لا يقطع حبل أفكاره، سلطان يبدو كمن يتحدث إلى نفسه من كونه يتحدث إليه، يرتب القطع أمام عينيه قبل عيني جلال الدين ربما يصل ولو إلى طرف خيط واحد يضع به يده على معلومة تفيد قضيته مع ليلى:

- لم أتكلم، جمعت أغراضي وتركت البلدة كلها، وقتها كان قد انتشر عندنا خبر قبيلتك وبأن بها رجلاً صالحًا يعبد الله وحده في الصحراء، فأردت أن أصل إلى الله من خلاله تاركًا خلفي أبي وممارساته المشينة ومضحيًا بما كان سيؤول إليّ لو ورثت منصبه كساحر البلدة!

لمعت عينا جلال الدين بينما سلطان يذكره بما كان يدور في قبيلته وقت الهدنة، عندما أقام عابد خيمة في الصحراء وقرر أن ينقطع للعبادة، لم

تمر ثلاثة أشهر إلا وذاع صيته بأن له كرامات وكانت بعض النساء تعبر حديقة عائلة القاسم و تأتي إلى القبيلة تسأل عنه بلهفة شديدة، وكان شمس يصحبه ويجلس معه كثيرًا في خيمته!

- قابلته وتكلمت معه وأخبرته بأنني أريد صحبته والتعلم منه وبأنني أهرب به إلى الله مما هو خلفي، ووافق بكل ترحاب ولكن اشترط عليّ عدة شروط أهمها أن لا أسأله عن أي شيء، يأمرني فأقوم بالتنفيذ دون سؤال!

- كيف لمثلك أن يصبح تابعًا بتلك الطريقة العمياء يا سلطان؟!

- هذا ما صرحت به له، قلت له كيف أكون كالماشية تُسيرني كما تشاء، فمنحني نسخة من القرآن وفتح النسخة التي بين يديه وبدأ في قراءة سورة الكهف، ليست كاملة، بل اختار منها قصة النبي موسى والخضر، وبعد أن انتهى قال أرأيت؟ موسى نبي وأعلى درجة من الخضر وبرغم ذلك حذره الخضر من أن يسأله وإلا فسيفارقه ولن يعلمه شيئًا، هذا ما سيصير بيني وبينك، تتبعني دون سؤال وتفعل ما آمرك به وإلا فهذا فراق بيني وبينك.

- واقتنعت؟!

- نعم للأسف، وخدمته لثلاثة أشهر أقتل بداخلي كل فضول لتصرفاته، وكلما انتهت الأشهر قال لا ستتبعني ثلاثة أخرى، أغسل ثيابه وأطعمه وأستقبل الحالات التي تأتيه طلبًا للكرامة، حتى جاء اليوم الذي شاهدت فيه نسخة مكررة مما شاهدته يحدث سابقًا في غرفة الأسياد، حينها عرفت بأن جميعهم واحد، نهايتهم واحدة وإن تقاطع الطريقان، وبدوا مختلفين! فعدت إلى أبي صاغرًا.

- تقصد بأن عابد كان يفعل هذا أيضًا مع النساء اللاتي تردن الإنجاب؟!

- عندما سألته قال لا تسألني حتى أخبرك يومًا، فعلمت بأنه دجال آخر ولكن بمهنة مختلفة عن مهنة الساحر، وقبل أن أترك الخيمة جاء والدك، واستمعت إلى الحوار الذي دار بينهما دون قصد مني ولا معرفة منهما، لم أكن أعرفه منذ البداية حتى قال عابد اسمه، وسمعته يقترح عليه بأن يعقد هدنة مع عائلة القاسم ويتصدر المشهد أمام أبيه ليعلم بأنه أفضل من نصر وبأنه قادر أن يجمعه بالحاكم وبكبير عائلة القاسم ليوقعا اتفاقية الهدنة سويًا وتلك هي الطريقة الوحيدة ليستعيد مكانته ويهابه الناس ويحترموه كما يفعلون مع نصر!

- هل تقول بأن عابد أوقع بأبي بتلك الطريقة؟!

- أظن هذا يتماشى مع ما قاله لك، إلا أن هناك حلقة مفقودة، كيف تكلم عابد بتلك الثقة عن عقد الهدنة ويعقد جلسة يجمع بها الحاكم وصقر القاسم، لابد وأنه كان يستند إلى شخص آخر!

همس جلال الدين وقد تجمعت بالفعل القطع في رأسه:

- لقد كان ينفذ خطة رُسمت له من قبل.

عابد استغل ضعف والده واستدرجه إلى عقد هدنة غير حقيقية، ولكن ماهي مصلحته؟!

قاطع سلطان أفكاره كما لو باتت المقاطعة مهنته للأبد وهو يرمي له أحجية جديدة:

- ابحث عن المستفيد.

كأن سلطان قد ضغط زر الإنارة فجأة فأطل وجه آصف من بعيد يلوح له مستخفًا به، ضغط جبهته بقوة بينما الأفكار تتلاحق تباعًا، يتذكر

حينما طلب مندوب الحكومة أن يبعثوا لهم بآصف فقط ليتكلم معه، وبعدها عاد وبيده صكوك ملكية لأراضٍ لم يكونوا على علم بأنها ملك لعائلة القاسم.

عاد آصف ذاك اليوم كالفاتح العظيم وجمع المجلس وتكلم حتى ارتفع صوته على صوت الراوي الكبير، لقد أراد دومًا أن يتصدر المشهد، لكن وإن كان آصف يتطلع لمشيخة القبيلة فما كانت مصلحة عابد ليتعاون معه! ولماذا لم يحاول سلطان فضح عابد من قبل في أثناء ممارسته للسحر كمحاولة للتفريق بينهما!

- لماذا لم تخبرني بتلك المعلومات من قبل، لقد كنا أعداء وكان من الممكن أن تتشفى بي وتخبرني بها!

لمعت عينا سلطان وتغضن وجهه بألم مفاجئ، ليس من وقع السؤال وإنما من وقع الإجابة التي ما إن جالت برأسه حتى فتحت له بابًا لقبو مظلم كان يبحث فيه كل لحظة دون أن يعثر على إجابة، وهمس وهو ينهض:

- الحاكم قال لا تفعل، ولا تسلط شياطينك على عابد.

وقف جلال الدين محاولاً متسائلاً:

- هل كان يتحكم بك!

- هه؟

الغمامة تنسحب رويدًا رويدًا عن عقله بينما رقعة الشطرنج الساكنة بصفة دائمًا على طاولة الحاكم تهاجم أفكاره وهمس ثانية:

- نعم، ولا أعرف كيف!

❀ ❀ ❀

لم يعد مجرد رذاذ، لقد بدأ موسم السيول ويبدو أنه لن ينتهي أبدًا، كان جلال الدين قد اتفق مع سلطان على العودة للبلدة، فتلك الحلقات المفقودة لابد من أن يجدها أحدهما كما استطاعوا حل بعض منها بطريقتهم سابقًا، يستخدمون طريقة العصف الذهني، سؤال وجواب وتخمين حتى يضعوا أيديهما على العقدة.

ولكن السماء أبت أن تُقلع، سبعة أيام متواصلة كل يوم يشتد الهطول حتى بدأت الثمار تغرق، فيقضون وقتهم في إنقاذها وحفظها في أماكن جافة بالداخل فمالك خبير بالتخزين.

ولكي يمضي الوقت سريعًا انهمكوا في محاولة إصلاح ما أفسده الحريق، جمعوا الأثاث الذي بات غير صالح للاستخدام في عدة غرف بالأعلى وأصلحوا البعض الآخر كنوع من التعايش مع الظروف التي اضطرتهم للبقاء، كل منهم يمارس هوايته في الوحدة والتفكير بما ينتظره في المستقبل، والمؤامرات التي أحاطته في الماضي!

وقفت خديجة في منتصف الغرفة العلوية في محاولة للتماسك وهي تتبع الحروف والعبارات التي كانت تخطها سلام فوق الغبار معبرة بها عن مدى وحدتها وألمها مما لاقته على يد أهل البلدة ومن بعدهم عائلتها هي.

علمت لماذا تلك الفتاة منغلقة على ذاتها لا تتجاذب معها سوى بعض من الكلمات العابرة قبل أن تعود لتبحث بعينيها عن مالك الذي تغير كثيرًا بعد صحبته الجديدة وملابسه كذلك الذى منحها له جلال الدين.

عمار ورفقاؤه وأستاذهم الذي يعطيه كل ما يريد معرفته ويأخذ منه فطرته السليمة ليداوي بها جروحه التي لا تزال مفتوحة.

إحساس الخوف من أن يعثروا عليها معه لم يفارقها حتى اللحظة، تخشى بشدة أن يجدوها ويأخذوها منه بقوة السلاح، ذلك الخوف الذي قضى على الجدران التي تبنيها بينها وبينه فتشجعت لتخبره بأنها تنتظره في الغرفة العلوية!

- لماذا أشعر بأنني يتم استدراجي!

تنفست بعمق وهي تستدير نحوه ويبدآن في التقارب كما كانا يفعلان دومًا دون ترتيب حركة مغناطيسية تجذبهما تجاه بعضهما البعض بشكل تلقائي وقالت بجدية:

- لماذا لم تُتم زواجنا حتى الآن؟

كانت جادة للغاية، لذيذة للغاية، ترتعش النظرة في عينيها برغم محاولتها لأن تبدو طبيعية لا تهاب الموقف، تشجع نفسها بأنه الحل الوحيد الذي يجعلهم يتركونها معه وقد أتم الزواج كما هي قوانينهم الأكثر جفافًا من الجدب الذي كان!

- لأنني أعلم ما تفكرين به.

- وماهو؟!

جمع يديه حول وجنتيها مدركًا للضغوط التي ترزح أسفلها، حتى وهي تطلب منه الاقتراب منها تفعلها بشجاعة الرجال، تبحث عن الحل وتظلم أنوثتها وتقتلها بداخلها كما تفعل دومًا!

- هو أن الفتاة بداخلك ترتعش الآن رهبة .

- هو أن الفتاة ذاتها تريد أن تخرج من دار أبيها معلقة بيده وبفستان العرس الأبيض ليسلمها لزوجها تحت سمع وبصر الجميع، لكنك خائفة، وتريدين قطع الطريق عليهم بتلك الطريقة.

لو لم يكن بينهما حب وكان يقرأها هكذا بسهولة لكان يكفيها، فرت دمعة يتيمة رغمًا عنها تأثرًا بعطفه البالغ عليها، حتى وهو يرغبها يريد أولًا أن يحقق لها أحلامها اليسيرة عن الزفاف وإن كانت مستحيلة في ظل ما يحيونه جميعًا.

- لقد تغيرتَ.

همست، فقال على الفور مؤكدًا:

- نعم، وأنا ممتن جدًا للحقيقة التي صفعتني بها سلام لتريني كم كنت أنانيًا للغاية.

همست مرة أخرى وهي تستند إلى صدره:

- وأنا أيضًا ممتنة لتضحيتك النبيلة ولكنني أؤكد لك بأنني موافقة.

توترت كل خلية بجسده وضعفه نحوها يرفع غمامة على عقله ويدعوه للمجازفة فأراد أن يغلق كل باب يؤدي إلى ندم قد يمر بها للحظة فيما بعد أو إحساس سيسكنها للأبد بأنها أقل من غيرها من الفتيات.

رفع رأسها عن صدره مبتعدًا خطوة للخلف وقال وهدفه الأول تشتيت نفسه قبل تشتيتها:

- ما رأيك، نرسل مالك إلى عمي برسالة نطمئنه فيها على أخبارك؟

فتحت عينيها على الفور هاتفة بحماس مباغت:

- حقًا!

- نعم، إنه خبير بطرق الغابة، سيصل إلى الطرف الآخر بسهولة.

❋ ❋ ❋

استبد الحماس بمالك وهو يستمع إلى جلال الدين وهو يصف له الطريق بعد خروجه من الأشجار وحتى بلوغه دار عمه، الشغف تسلل إلى رئتيه مع الهواء وهو يشعر بالفخر أن جلال الدين اختاره لتلك المهمة الصعبة، لن يشك به أحد وخاصة بعدما استبدل جلبابًا وعباءة بملابس جلال الدين، الأمطار لا تدع الكثيرين يتجولون في الطرقات، الجميع يرفع فوق رأسه كل ما تصل إليه يداه حتى لا يطاله المطر في أثناء خروجه من داره وعودته، ولذلك سيكون تخفيه سهلاً طبيعيًا، وبينما هو يرسم الخطة هتفت خديجة فجأة:

- إن كان التخفي طبيعيًا وإن كان الناس يسيرون جريًا في الطرقات فلماذا لا نذهب نحن أيضًا؟

نظر إليها مليًا وقد فاجأته بعبارتها المتحمسة وأجاب بروية:

- لا أريد المجازفة، نرسل مالك في البداية ثم نرى بعد ذلك.

خفتت فجأة كما أضاءت فجأة وأطرقت هامسة بخفوت:

- معك حق.

استعد مالك للخروج من الباب الخلفي مسربلاً في جلبابه وعباءته يرفع فوق رأسه ما يحميه من المطر قدر الإمكان لكن ذات الصوت الغيور الصغير أوقفه قبل أن يدير المقبض:

- انتبه على نفسك.

اتسعت ابتسامته وهو يلف برأسه فقط نحو عمار قائلاً:

- لا تقلق أنا خبير كما قال جلال الدين عني.

اقترب منه عمار يصافحه مودعًا وهو يقول بخيبة:

- طلبت منه أن أرافقك لكنه لا يسند إليّ أي مهام.

رفع مالك حاجبيه بدهشة وهو يقول مدافعًا:

- كيف ذلك، إنه يسند إليك كل المهام تقريبًا، لقد أحضرت لنا كل ما نحتاجه من البلدة أنت ورفقاؤك، وتتخفى في الظلام بشجاعة ذهابًا وإيابًا وتساعد في حفظ الفاكهة والتنظيف وتأتي لنا بالأخبار، فماذا تريد بعد؟!

رفع الفتى كتفيه مستسلمًا ولكن بعدم رضى، يشعر بنفسه أنه قائد كتيبة ويريد مهمة خطرة تُسند إليه، إلا أنه صافحه بحرارة في النهاية وتركه ينطلق في مهمته، وصل إلى الدار كما وصفها له جلال الدين والتف من حولها إلى أن استطاع الدخول من خلف كما وجهته خديجة تمامًا.

وعندما وجد نفس يقف وجهًا لوجه أمام أبيها أخبره سريعًا بالرسالة التي ظل يرددها طوال الطريق حتى لا ينسى كلمة منها «نحن بخير ونفتقدك»، وفي الليلة نفسها عاد إليهما بحقيبة أخرى كبيرة ممتلئة عن آخرها ورسالة شفهية عن نصر يقول لهما «اختفيا جيدًا ولا تجازفا بالعودة أو الظهور، آصف كان يجمع الرجال للبحث عنكما في كل مكان ولكن المطر أوقفه، إن ضاقت بكما هذه الأرض فابحثوا عن غيرها»



- لم نستطع أن نلحق به.

قالها الرجل وهو مبتل حتى العظم يرتعش، ارتجافه ليس بسبب المطر فقط، بل لأن أوامر آصف كانت صريحة، كلفه بمراقبة دار نصر وإن ظهر جلال الدين أو خديجة يجتمعان عليهما يقيدونهما ويطلقون عليهما البارود بلا تردد، وإن كان شخصًا غريبًا فليتبعوه فبالتأكيد سيوصلهم إليهما.

وهو نفذ ما قاله بالحرف ولكن الرجل الغريب شعر بأنهم يتبعونه فاختفى فجأة في الغابة وكأنه قد تبخر!

ضرب آصف عصاته بالأرض مزمجرًا بغضب، كل يوم يحياه جلال الدين فيه خطر على حياته ومنصبه وولده الهزيل الساذج، إنه يهدد عرشه الذي بناه حجرًا حجرًا، منذ أن عرف بوصول معدات الهدم والتجريف إلى ضفة بلدتهم الأم.

انسل في الخفاء واستطاع الوصول للقادة، وهناك في الغرف السرية تلاقت المصالح، هم يريدون إخلاء البلدة من سكانها وهو يريد أن يكون هو المنقذ .. هو السيد، لذلك طلبوه هو بالاسم فيما بعد ليتفاوضوا معه ثم منحوه عقود الملكية المزيفة، ليعود إلى قبيلته كـ نبي مرسل يحمل صكوك الغفران.

وعندما شك الراوى الكبير بأمره ونقل شكوكه إلى ولديه، وافقه نصر الرؤية، بينما اتهمهم شمس بسوء الظن بكل ما ينتمي للمدينة، لماذا لا يذهبون فلربما تكون بلدة داو تلك أكثر رخاءً وتقدمًا، هي الأقرب للمدينة من بلدتهم.

لم يكن آصف بحاجة لأكثر من هذا، أحد أبناء الراوي يسير طوع أمره، والبركة في عابد القادر على إقناعه.

وعندما هاجروا مرغمين إلى داو واكتشفوا أن الأرض مملوكة لأسرة فاحشة الثراء تملص من المسؤولية وقال بأنه خُدع، وليس وحده بل خُدع معه أكبر أبناء الراوي، مثله تمامًا!

وما إن مر العام حتى واتته الفرصة من جديد حينما أرسل إليه حاكم داو يستدعيه سرًا، كانت مقابلة مهيبة لا يزال يذكرها .

اللحظة الأولى التي وطئ فيها رخام قصر الحكم وجلوسه قبالة الحاكم ووقعت عيناه على رقعة الشطرنج علم بدهائه بأنه أصبح جزءًا من اللعبة.

وافق على الفور للمرة الثانية أن يبيع قبيلته مقابل مصالحه الشخصية وحلمه بأن يصبح زعيمهم.

الحاكم متخوف من نفوذ عائلة القاسم وثرائها ويريد محوهم من على وجه الأرض، لقد بدأ صقر القاسم يناطحه ويهدد عرشه ولابد من أن يجعله عبرة بل ويجعل مسكنه قبرًا تنتشر من حوله الأساطير!

وقام آصف بدوره على أكمل وجه وذهب إلى صقر وأخبره بأنه سيجمع القبيلة حوله ليؤيدوه في الانتخابات القادمة لحكم البلدة ويمنحوا له أصواتهم مقابل موافقته على توقيع عقد هدنة مع القبيلة لعام آخر يتركهم يسكنون أرضه ويعملون في مزارع حديقته الشاسعة.

ثم أغرى عابد بأن يساعده على إقناع شمس بالأمر ليقوم بدوره هو الآخر في إقناع أبيه الراوي الكبير.

لا يزال يذكر ذاك اليوم عندما مد له مائدة من التقدير الذي يتطلع عابد إليه وقال:

- لديك مقدرة كبيرة على إقناع شمس بكل ما تريد، وستكون لك اليد العليا بعدما نتخلص من نصر وأبيه، تخيل مكانتك بعدما يصبح شمس زعيمًا للقبيلة، ستكون وقتها أنت الزعيم، أنت من ستحركه، لن يستطيع أحد بعد ذلك مناداتك بالخادم، ستخرج من الخيمة التي أقمتها في الصحراء وتكون لك دار كرامات في منتصف دور القبيلة، تخيل معي واجعلني أصدق بأنك أهل للمسؤولية التي سنتشاركها سويًا!

لن ينسى آصف ألق البرق في عيني عابد حينها، ودون تفكير أومأ موافقًا وقال بشرود:

- ستكون لديك كلمة شمس الليلة، ولكن ماذا سيحدث بعدها؟

- في نفس اليوم سنستدرج صقر بعيدًا عن أبنائه فلقد أصبحت حليفه وقائد حملته الانتخابية في القبيلة، سنقتله بين أشجاره الوارفة وسنحمل جثته إلى مسجد القبيلة كما خطط الحاكم تمامًا، وأنت تعلم جنون عائلة القاسم وأتباعهم ومريديهم، سيخرجون بالأسلحة والنار والمرتزقة على القبيلة للانتقام، وأنا وأنت سنبتعد بكل من نريد لهم النجاة، ثم يتصرف الحاكم كما وعدني ويمحو عائلة القاسم من الأرض ووقتها تصبح أرض القبيلة لنا إلى الأبد نتصرف بها ونحكمها كيف نشاء، لنا زعيم وقوانين بعيدًا عنه وعن قوانين داو!

مد عابد يده على الفور ليتصافحا وقد نضجت الخطة في رأسه، رآها عبقرية وتستحق المجازفة، ستمحى عائلة الراوي بينما يُبقي هو على شمس ليحكم من خلاله بعد ذلك، لن يتبقى بعدها من سينعته بالخادم مرة أخرى.

لن يتبقى إلا من سيصدقون بكراماته ويتمسحون بعتبته، وصارت الخطة كما أُعد لها تمامًا.

طلب من شمس أن يرافقه في خيمته بعيدًا وابتعد آصف بعائلته تاركين بقية أهل القبيلة يواجهون مصيرهم، اكتمل لهما ما أرادا إلا أن نصر لم يمت، قاتل بشراسة جنبًا إلى جنب بجوار ابن أخيه ومن تبقوا من رجال القبيلة، تلقى عنه جلال الدين رصاصة لا تزال تاركة أثرها حتى الآن في كتفه، وانتشر القتل وسُفكت الدماء بينهم، معظمهم من الشبان الذين لم يبقَ منهم إلا قليلٌ من كلا الجانبين.

وبعد أن كان عابد خادمًا، بات خادمًا ومطرودًا أيضًا من القبيلة بصحبة شمس وولده الذي تبعه مرغمًا، أصبح مهاجرًا ورفع الحاكم يده عنهم واكتفى بأن يتفضل عليهم ببيت يسكنونه، بعد أن نفذ ما يريد وأغلق أبواب القصر على أصحابه من الخارج وأحرقه بكل من فيه، كانت محرقة عظيمة أضاءت نارها سماء داو، لتصير الغابة رمزًا شبحيًا تُعرف به البلدة!

- نأمر الرجال بأن يأخذوا الأسلحة ونبحث عنهم شبرًا شبرًا في الغابة ثم في داو، نقلب البيوت عليهم.

اندفع خاطر يوجه اللوم لوالده، لكنه تراجع عندما التفت إليه آصف وقد انتشلته عبارة ولده من أعمق ذكرياته الناقمة، ذكريات تخرج من ألسنة لهب ولها صوت يشبه المدافع!

- نعم نقلب البيوت عليهم دون إذن الحاكم فيقلب هو الدنيا على رؤوسنا يا فالح!

- لابد أن تذهب له مرة أخرى وتقنعه بأن يتركنا نبحث عنهما.

- لا يوجد حل آخر ولكنني أنتظر فقط أن يهدأ سيل الأمطار هذا ولو قليلاً، إنه يزيد كل يوم عن سابقه والوضع يتفاقم.

❁ ❁ ❁

المصيدة

متى يُقال للسماء أقلعي ومتى تغيض الأرض بمائها؟ لقد تحولت الأمطار من نعمة هللوا لها فرحين إلى نقمة تفعل بهم أشد مما فعل الجدب.

غرقت الثمار وباتت الحياة أكثر صعوبة وقد مر عامٌ كامل دون أن يتوقف المطر حتى امتلأت البحيرة من جديد! واختفت معالم بركة العجوز عندما اختلطت بها مياه المطر النقية، لم تعد نتنة الرائحة كالسابق.

اليوم يوافق يوم الحصاد ككل عام ولكن معالمه لم تختفِ كما اختفى الغراب وظله، أصبح هناك حصاد آخر يُخفي عمار ورفقته تفاصيله عن جلال الدين:

- لن نصمت أكثر من هذا يا عمار لابد أن نخبرهم!

- بماذا تتهامسون؟!

كان يقف خلفهم مباشرة ولكنه لم يستطع معرفة مايدور بينهم، منذ شهرين وهو يشعر بأنهم يخبئون أسرارًا ولا يريدون إطلاعه عليها.

في البداية ظن أن الأمر له علاقة بالقارب الشراعي الكبير الذي اكتشفوا وجوده خلف القصر، كان يختفي في العمق وعندما بدأت ترتفع مياه البحيرة ظهر من جديد على السطح فجذبوه على الضفة ليخفوه بين

الأشجار، لكن تهامسهم ونظراتهم المريبة لم تتوقف، بل تزداد وخاصة عندما يسألهم عن أحوال البلدة.

بدأ يشعر بالقلق كلما وجدهم مجتمعين هكذا وخاصة بعيدًا عن مالك الذي صار الأقرب إليهم من البقية:

- لا شيء...

تفرقوا مبتعدين عنه متجهين إلى الحلقة الدائرية التي اجتمع على حدودها سلام ومالك وسلطان وخديجة قبل أن يعود جلال الدين، الحيرة تتقاذفه من أمرهم وهو يجلس بجوارها.

اجتمع الثمانية حول النار يتدفؤون ولكن هذه المرة كانوا جميعًا من يقصون الحكايات وليس عجوز البركة، ولكي يتهرب الصبية من نظرات أستاذهم الثاقبة لهم بدأوا يكررون الحكايات بانفعال مبالغ عن اللحظة التي شاهدوا فيها شراع المركب يخرج كـتنين من باطن البحيرة يرفرف بجناحه ولم يكن ينقصه سوى نفخ النار فقط.

تبادلوا الضحكات بينما سلطان يتسلى بينهم بصمت مطبق، أصبح أكثر انطواءً، عود ثقاب يشتعل من مجرد لمسه وكأن النار التي بداخله لا تنطفئ أبدًا، لقد اختفت ليلى تمامًا ولم تعد تظهر كما أخبره عمار الذي تساءل محاولاً تشتيت نظرات أستاذه الثاقبة لهم، موجهًا سؤاله نحو سلطان:

- لماذا اختاروا لـ بلدتنا أسم داو ليطلقوه عليها؟

ألتفت مالك نحوه بدهشة كبيرة تسكن عينيه وقال بحيرة بالغة:

- هل تعلم بأنني سألت جدي هذا السؤال من قبل، وكذلك معلمة القراءة أيضًا!

أراح سلطان قدميه يفردهما أمامه باستقامة بعد أن كان يطويهما أسفل منه قائلاً:

- وماذا كانت الإجابة؟

أرسل تنهيدة حائرة وهو يجيبه بشرود:

- جدي قال بأنها تعني الأرواح الشريرة بينما المعلمة قالت بأنها تعني المصيدة!

زمت سلام شفتيها بعدم رضا بينما ابتسم جلال الدين متبادلاً نظراته مع عمار قائلاً:

- هذه الإجابة ستثير خيالاتك أثناء العودة من الغابة

ضحك عمار وهو يميل تجاه مالك الذي يتسلى بقضم التفاح المفضل لديه!

من يصدق بأن عامًا كاملا قد مر عليهم، كما مر أضعافه على أصحاب الكهف، إلا أنهم لم يكونوا نيامًا مثلهم، ينجح مالك كل مرة في الوصول إلى نصر والعودة كالشبح الذي يتبخر وقتما يشعر فيها بالمراقبة.

تغير مالك كثيرًا وأصبح يلازمه عمار كظله وكأن فطرتهم الناصعة هي من جمعتهم بغض النظر عن أعمارهم المتفاوتة.

تبادل مالك معهم النظرات قبل أن يقول ممتنًا:

- من يصدق بأنني أجلس هكذا بينكم بعد عشر سنوات قضيتها وحيدًا في هذا القصر الكبير!

لترد سلام بخفوت متفوهة برموز بات جلال الدين يجيد قراءتها:

- فلتحمد اللّه أن شيئًا ما من حياتك قد تغير، فهناك من يتخبط ﻓﻲ ظلمات لا آخر لها.

رماها سلطان بنظرة تحذرها من الاسترسال بينما التفت جلال الدين نحو مالك وهو يقصدها هي بالإجابة قائلاً:

- نعم يجب أن تحمد اللّه، فلقد أخرجك من ظلمات العشر.. فلقد قيد لك ساحرًا وحاكمًا ويومَ حصاد ليرسل إليك ﻓﻲ النهاية سلام!

أطرقت برأسها تخفي ارتعاش نظراتها، ليته يفهم أن حنقها وغضبها المتواصلين ليسوا موجهين إليه، وليت ذاك الذي يجلس بجوارها يفهم بأنه أحد أسباب حنقها بملازمته لهؤلاء الصبية و كأنها لم تكن شريكته الوحيدة ذات وحدة وظلام وصحن تفاح!

خرج أخيرًا سلطان عن صمته وهو يستكمل ما بدأه جلال الدين متابعًا:

- لم يرسل إليه سلام فحسب، بل اختار ابن العاصي خصيصًا من بين كل العصاة دون سبب لأجلك.

- كيف عرفت أن اللّه اختارك دون سبب؟!

- لا تنظر إلي هكذا يا بن الراوي هات ما عندك على الفور إن كان عندك ما تقوله.

نبرة سلطان كانت خفيضة ولكنها حادة مغمورة ﻓﻲ مرارة لا يستطيع التخلص منها تجعله يتصرف بحنق مع الجميع.

نظر الصبية إلى بعضهم البعض وارتفعت طقطقة النيران التي تلتهم الحطب أمامهم يستمعون إليه بتركيز ككل ما يقوله دومًا وهو يبادله النبرة الخفيضة بأخرى:

- كسرة الخبز والعباءة!

زوى سلطان ما بين حاجبيه وارتعشت فكاه بينما ترقرق الدمع بعيني مالك وجلال الدين يتابع:

- منحتهما له في الخفاء، كسوته وأطعمته وانصرفت دون أن تنتظر أن يرى أحد إحسانك أو تأخذ على ذلك مقابلًا، أعتقد أنهما من أنجاك اللّه بهما يا سلطان، وأن اللّه أرسل إليك مالك وليس العكس كما تعتقد.

كانت سلام عدائية أكثر من اللازم ساخرةً حد الوجع وهي تعلق قائلة:

- وبالطبع أرسل خديجة إليك لتكون مهمتك الوحيدة في الحياة أليس كذلك؟

مما جعل خديجة تناظرها بحدة قائلة:

- سلام، تكلمي معه بشكل أفضل، على الأقل راعي فارق العمر بينكما!

- أنا لم أُخطئ في حقه

- أنت تسخرين منه وتتهمينه بأنه كان يعيش لأجله فقط ولو تعبتِ قليلاً ونظرت إلى جوارك حيث الصبية الشجعان هؤلاء لعلمتِ ماذا كان يفعل طوال عشر سنوات، ليس ذنبه أنكم تناسيتم دينكم وعَلِقتم في عباءة أسياد تارة وكرامات تارة أخرى دون أن تفكروا لحظة واحدة بأنكم تخافون كل شيء إلا اللّه وتتعلقون بكل الأسباب إلا مسببها ولهذا سلطهم عليكم.

- خديجة!

أمسك ذراعها وهو يناديها لتقطع كلماتها التي تُقرعها بها مسترسلة بحمائية للدفاع عنه، وقد نزعت سلام فتيل ابنة القبيلة التي تجري دماء الانتماء الحارة في أوردتها، وقد أوقفتها نظراته وهو يهمس لها:

- ليس بتلك الطريقة أبدًا.

- ألا تسمع ما تقول عنك دومًا، هذه ليست أول مرة وأنا قد تغافلت كثيرًا ولكن قد فاض بي.

- اهدئي يا حُب

أغلقت فمها أخيرًا على إثر همسته الأخيرة الأشد خفوتًا مما سبقها، بينما قال مالك بعدم رضى موجهًا حديثه إليها:

- جلال الدين لا يستحق منك هذا، أنت تظلمينه!

كلماته كانت سببًا في أن تنهمر الدمعات متواترة من عينيها وهي تجيب بتشنج:

- جميعكم تدافعون عنه بينما أنا لم أجد من يَدفع الظلم عني، لقد صمت عن كل ما يدور حوله من أخطاء لأنه لم يكن يمسه بسوء وغض طرفه عن تدهور أحوال الناس وإيمانهم.

- أستاذ لدينا ما نخبرك به

نطق بها عمار بشكل مفاجئ وقد تغلغلت كلمات سلام الأخيرة في نفسه وتوغلت بقلبه، فهتف ثانية بفورة الشباب الوليدة بينما رفيقاه يرقبانه بدهشة وهو من كان يمنعهما:

- لقد قاموا ببناء تمثال كبير لك في ساحة الحصاد واليوم ستذهب كل أسرة لتذبح أمامه ماعز أو أي حيوان يتوفر لديهم تبركًا بك وليتقربوا به إلى اللّه، وموكب عابد يطوف البلدة ويخبرهم بأن الساحر سيحاول أن يثنيهم عن طقوسهم وربما يرسل شياطينه متجسدة في هيئة جلال الدين ليصرفهم عن استكمال الطقوس، وبأنه يجب أن يرجمونه فور ظهوره!

❋ ❋ ❋



لم ينجح أي منهم في أن يوقفه، ولا حتى حُبُهُ الذي ملك عليه قلبه، لم يكن يسمع لأي مما ينطقون به من منطق بينما كلمات عمار تتجسد أمامه على هيئة التثمال الذي بنوه من أجل كراماته، أهل داو لا يخافون الأسياد فقط بل هم مُغرمون بأنواعها المختلفة أيضًا!

لم يتركوه وأسرعوا خلفه، يعلمون جميعًا بأنه ربما لا عودة، ولكنهم باتوا سويًا في بوتقة واحدة، توحدت مصائرهم، فإما نجاة وإما فلينتهِ كل هذا العذاب.

كانوا كالخيول التي تجري في سباق صامت تحت المطر بينما يحاربون كي لا تنغرس أرجلهم في الطين أو ينزلقوا بين الجذوع الغارقة بالمياة، وقع أقدامهم ينافس دقات طبول الحرب المُعلنة، حتى انتهت الأشجار وظهرت الساحة من خلفها !

من الوهلة الأولى ظهر التمثال الضخم الذي تحدث عنه عمار، كيف تم نحته بتلك الدقة! إنه يشبهه تمامًا، بينما الناس يجتمعون حوله فرحين وقد تخلصوا من شر الأسياد وفقدان بناتهن.

لا بأس بأن يُضحوا بإحدى الغنمات بينما تبقى الفتيات في أحضان أمهاتهن، تضحية يسيرة لا ضير منها ويبقون سالمين جميعًا!

الماشية لا تُقدم مباشرة للتمثال وإلا فهذا كُفر بواح، وإنما يتم ربطها بالأوتاد الكثيرة التي دُقت بجواره عن يمينه و شماله، والوحيدان المسئولان عن فك عقالها هما الشيخ عابد صاحب الكرامات، وليلى، المرأة التي وهبت نفسها وتركت زوجها الساحر لأجل الانقطاع للعبادة وقد عرفت طريق الحق!

وقف خمستهم وقد بُتت نظراتهم بينما يشاهدون ما يستشري بين الناس، كل منهم يرتدي فوق ملابسه كيسًا بلاستيكيًا يحمي نفسه من المطر ويقف بخشوع أمام تمثال جلال الدين شمس الراوي الذي أنهى مهمته في محاربة الشياطين والسحرة ثم صعد إلى السماء وترك لهم صلة بينه وبينهم، عابد وليلى!

تغيرت الطقوس وأصبح يوم الحصاد يومًا مهيبًا يحضره الحاكم بنفسه ويستدعي كبراء القوم ليشهدوا معه ذاك النصر المبين.

يرفع الحرس المظلات فوقه ويقفون بثبات، وكذلك يفعل حرس آصف الذين يلتفون من حوله للحماية.

تملص جلال الدين من تشبث خديجة ومالك واندفع هو وسلطان في لحظة واحدة كلٌ نحو هدفه!

ولكن يبدو أن الحاكم كان مستعدًا للغاية لتلك اللحظة، لقد أعد إليها بإحكام، فما هي إلا إشارة من يده حتى انهمرت الحجارة تنافس دفقات المطر في الهطول على رأسيهما، كانت فرقة كاملة مستعدة، بينما عابد يهتف في الناس بمجرد أن لاحظهما:

- ها هي الشياطين تتجسد لتصرفكم عن الطقوس ارجموا الشياطين!

لم يستطع سلطان أن يصل إلى ليلى وهو يحاول حماية وجهه ورأسه من الحجارة التي يُقذف بها من كل جانب، أصابته جروح بالغة بينما خديجة تصرخ في جلال الدين أن يرجع للوراء ويحتمي بالأشجار، كانت دماؤه تسيل واضعًا عابدًا نصب عينيه، لكنه كان يبدو بعيدًا جدًا والناس تتجمع حوله لتحمي صاحب الكرامات من هجوم الشياطين!

تراجع سلطان مرغمًا من شدة الألم الذي شعر به في ساعديه ورأسه بينما تحركت خديجة متجهة نحو زوجها وهي تراه يلقي نفسه بجموح بين

الناس ويصرخ فيهم بأن عابدًا كذاب، لكن صراخه يضيع وسط دقات الدفوف الخضراء، يصرخ ويصرخ كمن ينادي على الأموات في القبور، الناس لا تنصت إلا إلى الدفوف!.

تقدم مالك بحركته الخفيفة السريعة يسبق تحرك خديجة جاذبًا جلال الدين إلى الخلف حتى دخل به بين الأشجار ثانية.

في تلك الأثناء كان عنار ورفقته يتوغلون بين الحرس والحاكم مستغلين الجلبة والهرج الذي أحدثه خروج جلال الدين وسلطان إلى الساحة، أرادوا حماية أستاذهم ومعه بعهم وفكروا بإلهاء الحرس عنهم ولو قليلاً.

أستلوا آلة حادة من ملابسهم وقطعوا بها الحبال التي تربط هودج آصف بفرسه، ثم لكزوا الجمل لكزة جعلته يتحرك بقوة ليسقط آصف أرضًا!

غطت خديجة رأس زوجها بوشاحها الطويل باكية بشهقات مرتفعة كما تفعل سلام المذهولة مع الجروح التي تملأ جبهة سلطان وكلتا يديه، لا تصدق ما رأته، من المستحيل أن تكون هذه ليلى أختها، وكأنها تحولت إلى كائن آخر متجمد، لا مشاعر له ولا روح، تلف العمامة على رأسها كالرجال وتمسك بعصاة غليظة وتنظر للناس كملكة تستطيع أن تطيح بأي منهم فور إشارة من إصبعها!

وبعد أن انسحب سلطان وجلال الدين مدفوعين إلى الغابة مجددًا استمع عمار إلى الأوامر التي تدور بين الحرس بعد أن رفعوا آصف إلى الجمل ثانية وقد تلطخ وجهه وثيابه بالطين.

الأوامر التي أصدرها الحاكم كانت قاطعة بتفتيش الغابة والقصر للقضاء على الشياطين، بينما أصدر أوامره لزعيم القبيلة بأن يرسل

برجاله على الجانب الآخر فوق أحصنته حتى يسبقوهم، وإذا ما خرجوا من الغابة تُلقوهم بالبارود في صدورهم!

هرول عمار وصحبته من خلف الجموع ليلحقوا بأستاذهم ويخبروه بما سمعوا، حان وقت الإنقاذ الحقيقي هذه المرة.

يهرولون بين الأشجار بجنون والطين يرتفع ليلتصق بوجوههم وملابسهم ولكنهم لايبالون بشيء.

كانت حركتهم أسرع بكثير فاستطاعوا اللحاق بالخمسة المنهكين صارخين فيهم :

- الحاكم أرسل الحرس من خلفكم بأسلحتهم ليلحقوا بكم بينما أتباع آصف ينتظرونكم عند الجانب الآخر من الغابة ليضمنوا ألا تفلتوا من بين أيديهم.

بكت خديجة بقوة وهي تضم نفسها إلى زوجها الذي يملأه القهر، يبدو أنه لم يستمع إلى ما قاله عمار، إنه يهلوس مستندًا برأسه الجريحة إلى رقبتها:

- إنها غلطتي، أنا من تركتهم يظنون بي الكرامات، أنا من روضت له الأحصنة، إنها غلطتي وحدي!

بينما سلطان قد غلبه الغضب والمرارة وهو يتمسك بذراعي سلام ويهتف بها فاقدًا كل سيرة وكل منطق وكل أسباب الحياة:

- ليلى خانتني، ليلى أنجبت الطفلين من رجل آخر، أختك عاهرة.

مالك الوحيد بينهم الذي ما يزال يملك عليه عقله ولذا كان عليه أن يتصرف سريعًا

استدار بجسده نحو الأولاد وقال لهم آمرًا:

- اسبقونا إلى المركب الشراعي، أخرجوه من بين الأشجار واسحبوه إلى الضفة، هيا.

نفذ عمار الأمر على الفور جريًا قبل أن يواجه مالك خديجة صارخًا بها:

- إن لم تتحركوا الآن لهلكنا جميعًا، ادفعيه معك نحو القصر إنه يهذي.

أومأت له خديجة وقد غرقت ملامحها بين الدمع والمطر، أحاطت بكتفيه بينما هو لا يزال يهذي على كتفها، وبدأت في دفع جسده ليتحرك معها إلى الأمام.

فعل مالك المثل مع سلطان وسلام وهو يجرهما عن يمينه ويساره نحو القصر، حتى أفاق سلطان من غضبه وتخلت سلام عن ذهولها وبدآ يتحركان معه بسرعة أكبر. كان يستمع إلى الصهيل من خلفهما فيتحرك بهم بين الشجر المرتفع يخفيهم عن الأعين بمهارة، حتى استطاع الوصول بهم إلى القصر ووصل حيث ينتظر عمار هناك وزملاؤه.

كانوا ينهتون من فرط المجهود الذي بذلوه في إخراج المركب وسحبه على الأرض الطينية حتى وصلوا به إلى الضفة، المسافة قصيرة وعظامهم صغيرة ولكنهم يمتلكون عزائم الرجال الأشداء.

دخل مالك إلى القبو يحضر ما استطاعت أن تصل إليه يداه من أغراض وخرج على الفور، سقط مرة واثنتين أثناء جريه على الأرض المبتلة لكنه لم يأبه، واصل حركته السريعة حتى اطمأن إلى وضع الأغراض بقعر القارب ليجذبوه معًا نحو البحيرة. صعد عمار ورفيقاه، ثم سلام ومن بعدها خديجة وسلطان ومالك.

أما هو فكان قد أفاق من صدمته، لا يملك رغبة في الهرب، تملكه شعور برفض الحياة وقد أضاع إيمان الناس بتقاعسه عن قول كلمة واحدة ربما كانت تلك الكلمة ستغير الكثير اليوم .

نادته خديجة ليركب معهم، لكنه لم يجبها، نظر لها نظرة طويلة وكأنه يودعها وبكل ما يملك من قوة دفع القارب ليغوص في الماء، وبينما عمار يحاول التمسك على حافة القارب مذهولاً لما يفعله أستاذهم وكأنه يقوم بعملية انتحارية، قفزت خديجة إلى الماء فغاصت حتى صدرها.

الأرض لم تختفِ من تحت أرجلها بعد ووقفت تنظر إليه بثبات ظاهري بينما جسدها كله يختض من الداخل.

صرخ بها أن تصعد ولكنها أبت تبادله الصراخ:

- لن أذهب من دونك، إن اخترت الموت سأموت معك.

تقدم نحوها غامرًا جسده في المياه حتى خصره بينما مالك يحاول تثبيت المجداف في القاع بكل قوته حتى لا يبعد القارب بفعل الرياح القوية التي بدأت تشتد.

أمسكها من كتفيها بقسوة يدفعها نحو القارب لكنها حاربته وقاومت بشراسة لا تتوقف عن الصراخ في وجهه:

- في المرة الأولى تركتك تغادر وحدك ولن أفعلها ثانية إما أن تعيش معي وإما أن أموت معك.

طرق مسامعهم فجأة دوي طلق ناري على بعد مسافة ليست بالبعيدة عنهم، لقد بدأت حملة إبادتهم كالحشرات.

قفز سلطان من القارب وبدأ يدفعه نحو الحافة يساعدها بينما عمار يهتف به:

- لا يزال هناك الكثير لتعلمنا إياه، لا تتخلَ عنا.

- اصعد أرجوك.

هتفت به سلام باكية وهي تنظر إليه برجاء وتكرر:

- أنا آسفة، اصعد.

❋ ❋ ❋



دلف الحاكم إلى القصر ومن خلفه آصف الحانق وعابد ثم ليلى، احتل الحاكم مقعده الأثير بجوار المدفأة التي باتت مشتعلة الآن وتقابله كذلك طاولته المفضلة ومن فوقها رقعة الشطرنج التي يبدو أنها قطعة متداخلة ملتصقة بها لا تتحرك أبدًا ولايجرؤ أحدٌ على لمسها غيره:

- الحرس أخبروني بأنهم بحثوا في كل مكان ولم يجدوا لهم أثرًا حتى الآن.

انحنى الحاكم ينظر بشغف إلى الأحجار المتراصة فوق رقعة الشطرنج، برقت عيناه وهو يجيب آصف:

- لقد هربوا عن طريق البحيرة.

كان يبدو لهم جميعًا كـ عراف ينظر في فنجان قهوة أو ساحر يلوح فوق بلورة شفافة دائرية تكشف له كل ما يدور، تبادلوا النظرات المضطربة فيما بينهم قبل أن يقطع آصف ذاك الصمت المهيب متسائلاً:

- إن كنت تعرف، فلماذا سمحت لهم بالهرب؟!

رفع الحاكم عينيه إليه بابتسامة متسلية مدعيًا الدهشة:

- إن كنت أعرف!

اتسعت ابتسامته تدريجيًا حتى تحولت إلى ضحكات طويلة جعلت أفكار عابد وليلى تتخبط برأسيهما دون أن يجرؤ أحدهما على قطع ضحكاته!

لحظات مرت وكأنهم جزء من لوحة فنية متجمدون بداخلها.

آصف واقف يزوي بين حاجبيه ويظهر على وجهه الدهشة والحنق بينما هما يتبادلان النظرات الصامتة حتى يتفضل عليهم ويوضح لهم ما يحدث بالضبط.

وأخيرًا قرر التحدث وقد اختفت ضحكاته فجأة على عكس بدايتها، هذه المرة لا يوجه عينيه تجاه آصف وحده، بل يوزع نظراته بينهم بالتساوي قائلاً:

- أنا أعرف ما يدور بداخل كل واحد منكم، رغباتكم، أحلامكم، وأصنع لكم واقعًا يشبهها!

تقدم نحو آصف ودفعه في كتفه فسقط جالسًا على المقعد من خلفه، وضع يده فوق كفه التي تقبض على عصا الزعامة قائلاً:

- أنت كنت تريد أن تصعد على جماجمهم لتصل إلى الزعامة، حلمك القديم.

صمت قليلاً بينما يسير خطوتين تجاه مقعد عابد، فرفع يده يمسح على عمامته الخضراء قائلاً:

- وأنت كنت تريد محو كلمة خادم من قاموسك، ولم تمانع أن تمحوها بدمائهم لترتدي عمامة الكرامات.

ثم ارتفعت وجنته بابتسامة هازئة وهو يتقدم نحو مقعد ليلى ساخرًا بمكر وهو يتلمس كتفها:

- وأنتِ كنتِ ترغبين بشدة في الانتقام لشرف والدك فمنحتِ جسدك بلا تَردد في المقابل!

أشاحت ليلى بوجهها فضحك مجددًا وهو يمنحهم ظهره عائدًا إلى رقعة الشطرنج مستطردًا:

- سلطان العاصي لم يسأل نفسه يومًا كيف أستطيع أن أتحكم بالأوامر التي يمنحها لأسياده، وجلال الدين الراوي لم يتوقف لحظة ليفكر كيف أتركه يعبث مع ساحري المطيع، ليلى لم تندهش عندما أمرتها بأن تشعل أعشاب السحر الأسود في بيت عائلتها القديم مرة بعد مرة، ولم تتعجب عن كيفية معرفتي بكل التفاصيل قبل أن تنقلها هي إليّ، أو كيف عرفت بما فعله صخر مع والدتها.. حتى عابد رغبته الشديدة في الوصول لحلمه لم تجعله يتوقف متسائلاً كيف أرسل له مرة بعد مرة بمن يهمس له بأسرار جلال الدين وكل ما يحدث حوله وهو في الخلوة التي أحددها أنا له وكأنه أمر طبيعي!

أنهى كلماته ثم التفت نحو عابد متابعًا:

- لماذا لم تسألني مرة عن سر الأيام الأحد عشر؟

عاد ليضحك ثانية حتى اهتز جسده بالكامل ويرجع برأسه للخلف مستمتعًا وهو يقول دون أن يتوقف عن الضحك:

- الحقيقة يا عابد أنني كنت سأقول لك تسعة أيام أو ثلاثة عشر يومًا، لقد جاءت معي صدفة ...

احتقن وجه عابد وهو يتذكر الأحكام التي فرضها عليه الحاكم «تختلي بنفسك أحد عشر يومًا وتأخذ معك لكل يوم ثلاث تمرات فقط، تكون هي طعامك الوحيد ليتطهر جسدك من رغباته»!

أطرقت ليلى برأسها تضغط أضراسها، لقد تلاعب بهم جميعًا، كيف لم تفكر بأنه كان يعرف التفاصيل التي تأتيه هي بها، بل ويخبرها بها قبل أن تتفوه، كيف عرف من الأصل ما فعله صخر العاصي مع والدتها وبأن سلام ابنة صخر وأخت لسلطان!

لم يكن حال آصف بأقل غيظًا أوغضبًا من حالهما، إنه محق، لقد أرسل له ليتعاون معه ويعاونه وقد كان من الممكن أن يقضي وحده على عائلة صقر القاسم، ولكن لماذا، يبقى السؤال معلقًا حتى تتوقف ضحكاته الهازئة بهم والتي تتردد بين جدران قصر الحكم

- آآآه

تأوه ساخرًا وهو يقترب من مقعده ويستريح فوقه لدقيقة كاملة تغزو نظراته أعينهم المتسائلة، ثم ينحني قليلاً تجاه رقعة الشطرنج من جديد قائلاً بابتسامة عريضة وهو يتلمس البيدق ويلتفت نحوهم، تغمره متعة رائعة وهو يشرح لهم:

- البيدق إن تقدم لا يستطيع العودة أبدًا، لذلك دوره ينتهي بكل سهولة، ولذلك كان حجرًا مملاً للغاية، لولا ابن العاصي الذي قلب الرقعة رأسًا على عقب عندما قرأ آية الكرسي فوق قمة الجبل، أمرت أسياده بأن يختاروا سلام لأجبره على أن يذهب إلى الجبل فتردد، فأخذنا فتاتين إلى حتفهما فاستسلم وقرر الذهاب إلى حتفه، إلى جبل داو ليقضم الذئب رأسه وتنتهي حكايته إلى الأبد، ففعل ما لم أحسب له حسابًا وخرج منها سالمًا، ولكن أصارحكم لقد تحمست للغاية وباتت اللعبة أكثر إمتاعًا!

فرك يديه بقوة وسرعة ثم قربهما نحو المِدفأة لثوان قليلة ثم ينظر إليهم وكأنه قد تفاجأ بوجودهم معه ورفع حاجبيه متسائلاً:

- ألن تتساءلوا عن بقية الأحجار؟!

أجابه الصمت المطبق فأشار بسبابته قائلاً بتوبيخ:

- بالتأكيد تريدون مادمت أنا أريد إخباركم!

رفع أصبعه هذه المرة ونقر الحصان نقرة خفيفة جعلته يهتز دون أن يقع قبل أن يقول مخالفًا توقعاتهم:

- لا، جلال الدين ليس الحصان، لقد ترقى سلطان وأصبح هو الحصان يقفز قفزات كثيرة، أما ابن الراوي فلقد كان يفعل كل ماهو مرسوم له على الرقعة، إلا أنني لم أنهِ دوره سريعًا لأن وجوده مهم لبيدق آخر.

قال كلمته الأخيرة وهو يشير إلى عابد ويرقبه بخبث كما لو كانا أصدقاء يفشي أحدهما سر الآخر بطريقة ممتعة، حاد عابد بنظراته بعيدًا قبل أن يسمعه يُضيف:

- حتى قرر أن يهاجم الساحة ويفسد علي لعبتي الجديدة، في هذه الحالة لابد من أن أنهي دوره.

تناول البيدق بأطراف أصابعه ورمى به خارج الرقعة وهو يضحك..

❋ ❋ ❋

اهتز القارب بشدة بينما الرياح تشتد وتعصف به، مال القارب بحدة فسقط جلال الدين في المياه، قاوم بشدة يدفع الماء سابحًا بينما خديجة تنحني بنصف جسدها لتمسك به وتساعده على الصعود مجددًا بمساعدة سلام، التي تركت مجدافها واندفعت تساعد خديجة.

صعد جلال الدين إلى القارب يلهث صدره صعودًا وهبوطًا لا يدري كيف فقد توازنه فجأة في لحظة!

❋ ❋ ❋

رفع الحاكم أصابعه يتلاعب بها فوق الأحجار المتبقية بحيرة لا يعرف من يختار منهم حتى وقع اختياره على الحصان ثانية، فأدار رأسه نحوهم قائلا بجدية:

- نعود ثانية للحصان الذي ينزوي وقد شارف على فقدان عقله..

❋ ❋ ❋

عصفت الرياح بالقارب من جديد فتحرك بعنف هذه المرة وقد زاغت الأبصار بينما السماء تغطيها السحب الرمادية فتحجب الضوء عنهم، مالك لا يستطيع أن يترك مجدافه وسلام قد تخدر ساعديها.

نهض جلال الدين ليأخذ مكانها في التجديف لتتوجه مباشرة وهي تستند عن اليمين واليسار منحنية بشدة حتى لا تسقط في الماء حتى وصلت بجانب سلطان المتكور على نفسه في قاع القارب يتأرجح بشدة يهذي:

- ثماني فتيات في رقبتي وكبائر لا يعلمها إلا الله، كيف سأقابله بكل هذا كيف؟.

بينما هي قد شارفت على الانهيار من شدة التعب وهي تهزه هزًا شديدًا وترجوه:

- أرجوك أفق نحن في حاجة إليك، لقد سقط جلال الدين وكاد أن يغرق ولا يزال أمامنا الكثير..

❋ ❋ ❋

عقد الحاكم حاجبيه وهو يلمح أضواءً صغيرة تعدو فوق رقعة الشطرنج على الجانب الآخر من البلدة حيث ضفة القبيلة وبدا يهمس لنفسه بصوت مرتفع:

- لا أعرف لماذا أرى كل شيء إلا تلك النقاط الصغيرة، كنت آراها من وقت لآخر تعدو بين البلدة والحديقة لكن لا أستطيع تحديد اتجاهاتها بالضبط!

❁ ❁ ❁

كان عمار يجري بأقصى سرعة لديه مع الصبيين، يجب أن يعودوا لمنازلهم سريعًا، لقد فارقوا جلال الدين ومالك بصعوبة، كانوا يريدون صحبتهم إلى حيث مصيرهم أيًا كان ماهو، لكن الخمسة رفضوا وأصر أستاذهم على أن يتجه بهم إلى ضفة القبيلة وينزلهم هناك ليعبروا الحديقة إلى البلدة مجددًا فهو يجهل ما ينتظرهم في طريقهم إلى أرض جديدة لو استطاع القارب مقاومة العاصفة!

كان عمار يقودهما ويلهث من فرط الإجهاد الذي حل به والحزن الذي يشعر به على مفارقة أستاذه وصديقه الجديد، يمسح الدموع والمطر عن وجهه يخفي شهقاته عن أصحابه بينما كلمات جلال الدين الذي وصاه بها تقرع ذهنه « لا تترك الناس على جهلهم، أخبرهم بأنهم لا يحتاجون لوسيط بينهم وبين ربهم، لا يحتاجون إلى أسياد، لا يحتاجون إلى كرامات، الطريق مباشر ومستقيم، أخبرهم بأنهم لا يحتاجون إلا إلى فهم إياك نعبد وإياك نستعين، مهما كان تفريطهم، ستطوي بهم الزمان والمكان وتضعهم على أعتاب الله سريعًا»

❁ ❁ ❁

- هل تخشى تلك النقاط الصغيرة من أن تقلب لك اللعبة مجددًا كما فعل سلطان؟!

سأله عابد وبداخله يفك شفرة تلك النقاط المضيئة إلا أنه قرر أن يحتفظ لنفسه بها فالتفت له الحاكم بوجهٍ محتقن وكأن السؤال قد أغضبه وقال:

- فليقلبوا اللعبة كما شاؤوا، في النهاية الرقعة كلها بين يدي، أنا من أكتب الحكاية وأنا من أقوم بإخراجها وأنا من أحكيها من البداية كما أحكي لكم الآن!

قال كلمته الأخيرة وهو يرفع الرقعة بين يديه ويقلبها رأسًا على عقب ويحدق بهم قائلاً بنظرات ارتجفت لها قلوبهم وابتلع كل منهم غصة تكاد تخنقه في حلقه بينما ينهض مقتربًا منهم تكاد عيناه تلتهم وجوههم:

- وبما أنني من أقص الحكاية من البداية فيجب أن أنهيها..

ترك رقعة الشطرنج تسقط أرضًا فترتطم بشدة بالرخام، وما إن خفت صوتها واستكانت هناك، قال بفحيح أثار الرجفة في أوصالهم:

- هدأ زئير العواصف، وبدأ وابل المطر الساقط منذ عام في التراجع رويدًا رويدًا حتى توقف تمامًا، امتلأت البحيرة التي جَفَّت ويبست تربتها عطشًا لسنوات وسنوات، وانقشعت السحب الركاميّة عن محاصيل جُرفت، وأبنية تهدّمت، ومركب صغير متحطم، أمتعة وأوراق متناثرة هنا وهناك فوق سطح الماء الذي استقرَّت أمواجه أخيرًا، لتتهادى فوقه لافتة خشبيّة مسطّحة بين الحُطام خُطَّ فوقها بطلاءٍ أحمر قانٍ: محظوظٌ هو مَن يخرج من بلدتنا حيًا، أو على الأقل.. ليس بمجنونٍ!

تمت

وللحكاية بقية...!